

منه

الفن الإسلامي

محمد قطب

سبيل
التوجيه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَقَدِّمَةٌ

الفن.. الإسلامي؟!

وهل للإسلام صلة بالفن؟

أو ليس الإسلام ديناً.. والفن فنا؟ فما علاقة هذا بذاك؟

بل إن كانت هناك علاقة فهي علاقة النفور والخصام! فالأديان تبحث عن " الحقيقة " والفن يبحث عن " الجمال ". وفرق بين الحقيقة التي تتقيد بأنها حقيقة، وبين الجمال الذي لا يتقيد بشيء لأنه هائم طليق يسبح في عالم الخيال..

ثم هناك الناحية " الخلقية " ..

فالأديان تحرص على الأخلاق، والفن يكره القيود كلها بما فيها قيود الأخلاق.

لا بد إذن أن الفن الإسلامي مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات!

◦ ◦ ◦

ذلك فهم ضيق للدين وللفن على السواء!

إن الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن. فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال..

وكلاهما ثورة على آلية الحياة.

فحين تتبلد النفس، فيمر الإنسان على هذا الكون مروراً آلياً لا يراه ولا يحس به في أعماقه.. لا يثير فيه الشوق العلوي، ولا تتفتح نفسه لما فيه من جمال وحركة وحياة وتناسق.. فإنه يكون قد ضيق على نفسه المنافذ، وحصر عالمه في نطاق ضيق محصور.

ويكون قد أغلق نفسه دون عالم الفن والجمال.

وحين تتبلد النفس، فيمر الإنسان على الوجود مروراً آلياً، لا يتفتح لغاياته وأهدافه وروابطه، ولا يستجيب استجابة حية لما يربطه بالله والكون والحياة والناس من صلوات.. ولا تنطلق نفسه في الأفق الأعلى الذي تلتقي فيه كل هذه الصلوات.. فإنه يكون قد ضيق على نفسه المنافذ، وحصر عالمه في نطاق ضيق محصور.

ويكون قد أغلق نفسه دون عالم العقيدة.
ومن هنا يلتقي الفن والعقيدة في أعماق النفس، كما يلتقيان في أعماق الوجود.

○ ○ ○

والفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام!
وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر والحث على اتباع الفضائل.
وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجردة، مبلورة في صورة فلسفية.
فليس هذا أو ذاك فناً على الإطلاق!

إنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود.
هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، من خلال تصور الإسلام للكون
والحياة والإنسان.

هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين "الجمال" و "الحق". فالجمال حقيقة في
هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال. ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل
حقائق الوجود.

○ ○ ○

وقد كان يخطر في حسي دائماً أن العرب لم يستفيدوا من القرآن ولا من الإسلام
في إنتاجهم الفني.

لقد مرت عليهم فترة في أول الإسلام، انصرفوا فيها عن كثير من فنون القول.
وربما كان لهذا الانصراف أسباب متعددة..

فقد كان بناء العقيدة الجديدة في داخل النفوس وفي واقع المجتمع، ومجاهدة القوى
المحتشدة في طريق هذا البناء، سواء في واقع الحياة أو في داخل الضمير، يستنفدان جهداً
نفسياً ضخماً.. بل يستنفدان الطاقة الحيوية كلها، ولا يدعان فيها فضلة تُذخّر للتعبير
الفني.

وإذا لاحظنا المراحل الثلاث التي يمر خلالها الإنتاج الفني، ولا يتم إلا بها، وهي
الانفعال النفسي بالتجربة الجديدة؛ ثم استبطان هذا الانفعال في داخل النفس، حتى يمتزج

بأعماقها ويعطيها من لونه ويأخذ من ألوانها، ثم ارتداد التجربة إلى الخارج في صورة "إفراز" أو "تعبير" ..

إذا لاحظنا هذه المراحل الثلاث، ولاحظنا أن التعبير الفني يعتمد دائماً على ذخيرة نفسية وشعورية مختزنة في باطن النفس، تسعى إلى التعبير عن ذاتها في صورة موحية، لأن فيها شحنة مذخورة تريد الانطلاق.. أدركنا أن فترة البناء للعقيدة الجديدة لم تكن مناسبة لهذا اللون من التعبير.

لقد كانت العقيدة الجديدة في الواقع تنشئ النفوس إنشاءً من جديد. كانت "تغسل" النفوس من أدرانها الجاهلية، ومن موروثاتها القديمة كلها، ومن مفاهيمها المنحرفة، ومن تصوراتها الخاطئة، وتملأ الفراغ الحادث أولاً بأول، بتصورات جديدة ومفاهيم جديدة ومشاعر جديدة، وسلوك وعمل جديدين. ومن ثم لم يكن الرصيد القديم صالحاً للإحياء الفني، فقد كان "غير موجود" في النفوس التي استجابت للدعوة الجديدة فنفضت عن نفسها كل تراث قديم، وانسلخت من كل ما يربطها بماضيها الجاهلي من مشاعر وأعمال ووشائج قري، وصارت تحس نحوه بنفرة وتقزز. ولم يكن الرصيد الجديد قد تجمع بعد في الصورة التي تصلح للأداء الفني، الذي يعبر - كما قلنا - عن شحنة مذخورة تريد الانطلاق، لا عن الشحنة في دور التكوّن، قبل أن تمتلئ بها النفس ثم تفيض بالتعبير.

ويمكن أن يكون من أسباب انقطاع التعبير الفني في تلك الفترة كذلك أن الأغراض "التقليدية" التي كان يقال فيها الشعر - فن العرب الأول - قد تغيرت من أساسها بفعل العقيدة الجديدة، فصارت تلك الأغراض نشازاً فنياً وشعورياً لا يصلح للقول فيه. فالفخر والمديح والهجاء والجنون، والتغني بالدمن والآثار، وذكر المناقب "القبلية" والحروب والغارات والثرات.. كلها متعلقة بمشاعر الماضي الذي انسلخت منه النفوس المؤمنة، وبتصورات هذا الماضي وعلاقاته التي نبذتها هذه النفوس.. ومن ثم لم تعد صالحة للقول؛ بينما الأغراض الجديدة التي يمكن أن يقال فيها لم تبلور بعد بلورة فنية. وهذه خطوة أبعد من السابقة. فليست المسألة أن المشاعر المذخورة التي تدفع إلى التعبير الفني لم تكن قد تجمعت بعد، بل المسألة كذلك أن أغراض التعبير وطرائقه لم تكن قد تبلورت بعد لتساوق المعاني الجديدة والآفاق الجديدة. وكل غرض فني، وكل طريقة أداء جديدة، تحتاج إلى فترة من "الحضانة" قبل أن تظهر في صورة إنتاج فني. وقد كانت المعاني الجديدة والآفاق الجديدة، التي كانت قمينة بأن تعدل أغراض التعبير وطرائقه، شديدة الضخامة بالنسبة للعالم النفسي والبيئي المحصور الذي كان يعيش فيه الشاعر العربي في ظل القبيلة الجاهلية، وكانت في حاجة إلى حضانة فنية عميقة واعية قبل أن تنبت في ثوبها الجديد.

كما يمكن أن يكون من تلك الأسباب أيضاً وقع القرآن في نفوس العرب. فقد تلقوه مأخوذين مبهورين، حتى الذين لم يسلموا منهم. يتجلى ذلك في حديث الوليد بن المغيرة الذي لم يسلم: قال: "فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر؛ ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة. وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى!" كما يتجلى في كلام عمر حين أسلم: "فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام" (١).

هذا الانبهار الذي تلقى به العرب القرآن، حتى قبل أن يسلموا، يمكن أن يكون سبباً من أسباب توقفهم فترة عن التعبير الفني، فقد كانت شحنته الفنية العجيبة ثماً نفوسهم ملئاً، وتعمقها من جميع أقطارها، فتستوعب منهم كل طاقة الفن، وتغنيهم - مؤقتاً - عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال.

وتمت سبب رابع قد يفسر انقطاع المسلمين الأوائل عن التعبير الفني. وهو سبب أستمده من تجربتي الشخصية ومن قراءتي لإنتاج الأدباء والفنانين في مختلف الميادين.

فقد كنت في فترة من الفترات أقول الشعر. وقد ظللت اثنتي عشرة سنة أو تزيد، أقول في معنى واحد متكرر، كلما اتجهت إلى الكتابة وحدثني أكتب في نفس المعنى وإن اختلفت المشاعر المباشرة الدافعة إلى التعبير. كانت في نفسي "أزمة" كبيرة. أزمة الشعور بالضيق الكامل في الحياة وعبث الجهد في هذه الحياة المفضية إلى الزوال:

ثم مرت بي دورات الليالي
وانطوى السحر الذي غشّى خيالي
فإذا بالحق في الكون بدا لي!
وإذا الناس جميعاً في ضلال!
ما الذي يرجون في دنيا الزوال؟
أنا والوهم الذي يشغل بالي
في غد نذهب في طيات هاتيك الرمال
ثم يمضي الكون في التيه المعمى. لا يبال!

(١) راجع كتاب "التصوير الفني في القرآن" لسيد قطب.

وكانت هذه الأزمة تؤزني وتجهد مشاعري وتخز إحساسي.. فأعبر عن ذلك كله بالشعر غالباً وبالنثر أحياناً.. حتى مررت بتجربة ضخمة اقتلعت هذه الأزمة من أساسها، وأزالت ما حولها من مشاعر وأحاسيس. وكانت هذه التجربة هي.. الإسلام!

لقد وجدت نفسي من ضياع، ووجدت لهذه الحياة غاية وهدفاً؛ ووجدت أن هذه الغاية لا تذهب سدى، ولا تنقطع بانقطاع حياة فرد، ولا تنطوي في الرمال؛ ووجدت أن الكون لا يمضي في التيه المعمي، بل يمضي لهدف مرسوم معلوم.. وأنه كان يبدو لي أنه "لا يبالي" لأن نفسي هي التي كانت منقطعة الصلة عن روابط الحياة العظمى، لا لأنه هكذا في حقيقته..

ثم.. وجدتني - دون قصد مني - أنصرف عن قول الشعر!

لقد ذهبت "الأزمة" التي كانت تدفع إلى القول.

ذهب "الضياع".. وأصبحت أحس "بالوجود".

ولكن الإحساس "بالوجود"، بغير أزمة لاذعة ولا وخزة دافعة، لم يوح إليّ بالشعر، لأنه في حاجة إلى طاقة فنية ضخمة - أكبر من طاقتي - تستطيع أن تعبر، لا لأنها متألّة ولا شاكية، ولكن لأنها موجودة وممتلئة بهذا الوجود.. وراضية كذلك بهذا الوجود!

ولقد كان المسلمون الأوائل يواجهون هذه التجربة الفريدة.. تجربة الإسلام!

التجربة التي تزيل رواسب النفس المسمومة كلها، وتملأ النفس "بالوجود" الكامل، الراضي بهذا الوجود..

وهي تجربة لا تقول الشعر.. إلا بطاقة فنية ضخمة لا توهب لكل إنسان.

ولقائل أن يقول ولا شك: إن هذا "الوجود" ولو أن سمته العامة هي الرضى والارتياح.. كانت له "أزمات".

أزماته هي تلك الابتلاءات المتلاحقة التي عاشها المسلمون الأوائل حتى استتب لهم الأمر وظهر الدين واستقر..

وكان من الممكن أن تؤدي هذه الأزمات إلى تعبير فني..

ولكننا - عندئذ - نعود إلى الأسباب الثلاثة السالفة فنجد أن الفرصة لم تكن مواتية لمثل هذا التعبير. فقد كانت الشحنة النفسية لا تتلبث حتى تنطلق بالتعبير الفني، في المواجهة المواراة التي تشمل المجتمع والنفوس. وكانت الأغراض الجديدة والطرائق الجديدة لم تتبلور بعد لتجد سبيلها إلى التعبير الفني. ثم كان القرآن يتزل في تلك الأحداث فيصفها في بلاغة فنية معجزة، تغني عن جمال التعبير بجمال التلقي والانفعال..

تلك الأسباب - كلها أو بعضها - قد صرفت العرب المسلمين فترة من الوقت عن التعبير الفني.

ولكنهم حين عادوا إلى التعبير لم يلجئوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيجاءاتهم وأغراض تعبيرهم وطرائقه. وإنما عادوا إلى الجاهلية كاملة في مجال التعبير، أغراضه وطرائقه سواء. عاد الشعراء إلى الفخر والمدح والمجاء والمجون، بل عادوا إلى حدود القبيلة التي كانوا قد تحرروا منها فترة من الوقت. وعادت مقاييسهم الفنية هي ذاتها مقاييس الجاهلية بحذافيرها!

هل عادت هذه النفوس إلى الجاهلية الشعورية وارتدت عن الإسلام؟

هل مر الإسلام على ظاهر نفوسهم فقط، ولم يتعمق فيها؟

هل هم - أولئك العرب - ذوو طبيعة فنية ضحلة لم تستطع أن تستوعب إيجاءات الإسلام الضخمة في عالم الفن، فأنحسرت عنها، وعادت إلى رصيدها القديم؟ أسئلة تحتاج إلى جواب.. وتحتاج قبل ذلك إلى بحث.

ومع أنه ليس من همي هنا القيام بهذا البحث، وإنما هدي في الأول أن أرسم بعض الخطوط العريضة لمنهج الفن الإسلامي، فيأني أرى أن الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب القاطع فيه ظلم كبير للواقع. فقد ارتدت بعض النفوس حقاً عن بعض الآفاق الإسلامية العالية، ولكن لم يحدث قط الارتداد الكامل الذي يلغي الإسلام من النفوس ويجعله كأن لم يكن. فمنذ انطلقت الشرارة الأولى فأضاءت صفحة الكون بضوئها الباهر، لم تنطفئ الشعلة أبداً، ولم يخبُ نورها إلى حد الظلام.

ثم إن العرب - مهما يكن مستواهم الفني بالنسبة للنتاج العالمي - ليسوا بالضحالة التي قد توحي بها البيئة الصحراوية، فقد ثبت من التاريخ أنهم قد استوعبوا مستويات أعمق وآفاقاً أوسع، واستطاعوا أن ينتجوا في بعضها بدرجة الإبداع.

لا بد إذن أن هناك أسباباً أخرى.

قد تكون السياسة لعبت دوراً في ذلك، إذ ارتدت - منذ العهد الأموي، أو قبيلُه في الحقيقة - إلى عصبية جاهلية قبلية، وحرفت معها الشعراء الذين تخلقوا حول السلطان، فغمرتهم في تيارها، فإذا هم - حين يعبرون - يرتدون إلى مشاعر القبيلة في الجاهلية، فيتخذون فنون القول القبلية بوعي أو بغير وعي.

وقد يكون النقد الأوائل مسئولين أيضاً عن ذلك. فالنقد يبحث دائماً عن "القواعد". وغالباً ما يبحث عن القواعد الموجودة بالفعل، لا عن القواعد التي يمكن أن تستحدث. إذ النقد تعبيدي في طبيعته، وليس إنشائياً كالتعبير الفني. ومن ثم حمد هؤلاء

النقاد على ما كان موجوداً بالفعل في رصيدهم الفني، وهو طرائق الجاهلية وأغراضها، وقيّدوا الشعراء بها فساروا في نطاق ذلك القيد.

وأياً ما كان الأمر، فقد خسر الأدب العربي فرصة هائلة للاستمداد من رصيد الإسلام الضخم، وظل في تاريخه الطويل مجانباً - في أكثر الأحيان - لهذا الرصيد، مبتعداً عن ثرائه، محروماً من القدرة على إبداع لون من الفن كان حرياً أن يكون أروع الفنون العالمية وأبدعها، لو وجد التوجيه الصالح والقدرة الفنية المواتية..

وإن من هدف هذا البحث أن يوضح بعض سمات هذا الفن الإنساني الرفيع، لعل المسلمين - الذين لا يجدون في تراثهم الفني ما يغنيهم، فيروحوون ينتهبون نهباً متناثرة من فنون الغرب، صالحها وفاسدها بغير تمييز - لعلهم أن يفيئوا إلى كثرهم الضخم الذي أهملوه، وأن يفيئوا إلى أنفسهم حين يفيئون إلى هذا الرصيد، فيجدوا أن في مكتبتهم أن يتقدموا القافلة، لا أن يكونوا متخلفين في الطريق ينتهبون ما يتناثر من الفتات.

والله ولي التوفيق.

محمد قطب

طبيعة الإحساس الفني

الفن - في أشكاله المختلفة - هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود، في صورة جميلة موحية مؤثرة.

والفنان شخص موهوب، ذو حساسية خاصة، تستطيع أن تلتقط الإيقاعات الخفية اللطيفة التي لا تدركها الأجهزة الأخرى في الناس العاديين ؛ وذو قدرة تعبيرية خاصة تستطيع أن تحول هذه الإيقاعات - التي يتلقاها حسه مكبرة مضخمة - إلى لون من الأداء الجميل يثير في النفس الانفعال، ويحرك فيها حاسة الجمال.

إنه كجهاز الاستقبال اللاسلكي الدقيق، الذي تحس صماماته بالموجات الدقيقة الخفية فتلتقطها وتكبرها، ثم تحولها إلى صوت ونغم، صاف جميل يهز الأسماع.

والفنان - وكل بشر بصفة عامة - لا بد - ما دام حياً - أن يتلقى من الكون إيقاعات معينة في حسه، تتوقف على طبيعة هذا الحس، بين العمق والضخالة، والكبر والضالة، وتتوقف على المساحة التي يكشف عنها حسه من صفحة الكون الكبير. ثم يمضي يحاول التعبير عن هذه الإيقاعات بالطريقة الفنية الميسرة له، من لفظ أو لحن أو خطوط أو ألوان.

ومن ثم لا يمكن الفصل بين الفن - في أي شكل من أشكاله - وبين الصورة التي يتخذها الوجود في نفس الفنان، والإيقاعات المختلفة التي يتلقاها حسه من هذا الوجود.

وقد تكون هذه الحقيقة واعية في نفس الفنان أو غير واعية. ولكن النتيجة واحدة في الحالين. فهو لا يمكن أن يعبر إلا عن انعكاس الحياة في نفسه، ولا يمكن أن يكون تعبيره إلا من الزاوية التي يرصد منها الوجود، ويتلقى منها الإيقاع.. ذلك ما دام فناناً حقيقياً، صادق التعبير، وليس مجرد صانع ماهر يتفنن في صناعة الإخراج.

لذلك يكون من المهم أن نعرف صورة الكون في حس كل فنان قبل أن نقوم بتقويم إنتاجه الفني. ويكون من أصلح المقاييس في هذا التقويم أن نعرف المساحة التي يشغلها الكون في نفسه، أو المساحة التي تطلع نفسه عليها من كيان الكون فعلى قدر اتساع هذه المساحة أو ضيقها يكون اتساع أفقه الفني أو ضيقه، وتكون عظمة فنه أو ضآلته.. وذلك مع الوفاء بشروط الأداء الفني بطبيعة الحال.

ولكل فنان - صادق - موقف من الكون والحياة - أراد أم لم يرد. موقف تحدده طريقة تصويره لهذا الكون وارتباطاته، وطريقة تفاعله مع الحياة والأحداث.

هذا الموقف قد يكون واعياً كما قلنا أو غير واع. ولكنه موجود بالضرورة. وهو مكشوف لمن يرقب أعمال الفنان، متى كان بصيراً واعياً الحس، قادراً على الفهم والتقدير، ويستطيع - إذا كانت له هذه المقدرة - أن يكشف هذا الموقف ويقوم به، ويزن عن طريقه أعمال الفنان.

فالفنان - أو البشر على وجه العموم - الذي لا تطلع نفسه من الكون إلا على الحياة اليومية الصغيرة، ومشاهدها وجزئياتها، دون أن يرى فيها ارتباطاً ولا تماسكاً، أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني، من الفنان - أو البشر - الذي تطلع نفسه على ما وراء هذه المساحة المحدودة من الكون والحياة، فتري أكثر من الجزئيات العابرة في الحياة اليومية.. ترى ما بينها من ارتباطات ظاهرة أو خفية، وترى - على قدر عمقها واتساعها - ما وراء هذه الارتباطات من " كليات " عامة شاملة تفسر هذه الارتباطات وتلك الجزئيات، وتجعل منها كياناً متماسكاً لا مجرد جزئيات متناثرة في صفحة الكون.

والفنان - أو البشر - الذي تطلع نفسه من هذه الارتباطات على ارتباط واحد، فيشغل به حسه، ويصرف له همه، وليكن - مثلاً - رابط الجنس، أو رابط الاقتصاد، أو رابط المجتمع، أو رابط الصراع، أو رابط الحتمية التي تسير الأشياء والأحياء.. أو أي رابط يرى في حسه أنه هو الذي يفسر حركات الحياة وسكناتها، وتفرقها واجتماعها.. أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني، من الفنان أو البشر الذي تطلع نفسه على أكثر من ارتباط واحد، ويرى عمل هذه الارتباطات المتعددة حين تعمل معاً، ويدرك تأثيرها على الحياة والناس والأحداث.

والفنان أو البشر الذي يطلع حسه على الكون المادي وحده، أو الروحي وحده، أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني، من الفنان الذي يستطيع حسه أن يتفتح لهذا الكيان وذاك، ويستطيع أن يدرك ما بين الروح والمادة من ترابط وامتزاج.

والفنان الذي يرى من الكون المادي مشاهد " الحية " وحدها أو " الجامدة " وحدها، أصغر مساحة في التقويم الفني والإنساني، من الفنان الذي يرى ذلك الكون المادي في جميع مجاليه، فيحتفل حسه بالجمال المبعوث في ربوع الكون كله، من أناسي وطير وحيوان ونبات، وجبال وأنهار وأرض وسماوات وكواكب ؛ ويكون هذا الأخير أكبر مساحة في التقويم الفني والإنساني لو استطاع في الوقت ذاته أن يدرك " الروح " السارية في هذا الكون كله بجميعه مجاليه، الروح التي لا تجعله مادة جامدة حتى في الأشياء الجامدة، وإنما تجعله حياً يتحرك ويحس ويتعاطف، ويلتقي على شتى المشاعر والانفعالات...

ذلك مقياس صادق نقيس به الفن والفنان معاً، على شرط الوفاء بشروط الأداء الفني في كل حال.



وإذا أدركنا ذلك.. إذا أدركنا أن الفن هو محاولة البشر أن يصوروا حقائق الوجود وانعكاسها في نفوسهم، في صورة موحية جميلة ؛ وأن مكان الفنان والفن يتحدد بمدى المساحة التي تشتملها الحقيقة التي يشير إليها العمل الفني أو يرمز لها من كيان الكون.. إذا أدركنا ذلك فقد أدركنا في ذات الوقت أن الفن الذي يمكن أن ينبثق عن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو أرفع فن تستطيع أن تنتجه البشرية...



التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان هو أشمل تصور عرفته البشرية حتى اليوم.. إنه التصور الذي لا يأخذ جانباً من الوجود ويدع جانباً آخر.. وإنما يأخذ الوجود كله بماديته وروحانيته ومعنوياته، وكل كائناته.

إنه التصور الذي لا يجعل الحس بمعزل عن الحياة المنبثقة في أعماق الكون، بل يطلق الحس ليطملى الحياة في كل شيء في هذا الكون، ويتصل بها اتصال المودة والقربى والإخاء.

إنه التصور الذي لا يأخذ الإنسان جسماً ويدعه روحاً، أو روحاً ويدعه جسماً، أو جسماً وروحاً بغير اعتبار لطاقة العقل. ثم هو لا يأخذ هذه العناصر متفرقة منفصلة، بل يأخذها مترابطة متحركة - مع ترابطها - في واقع الحياة.

ولا يأخذ الإنسان فرداً ويدعه جماعة، ولا جماعة ويدعه فرداً، وإنما ينظر إليه في ذات الوقت بوصفه فرداً وجماعة مترابطين ممتزجين غير منعزلين في الكيان.

ولا يأخذ ضرورات قاهرة ويدعه أشواقاً طائفة، ولا أشواقاً ويدعه ضرورات، وإنما يأخذ مجموعته كله، عاملاً حساب الضرورات والأشواق، ومكان كليهما من نفسه ومكانها من الحياة، وأصالتها في هذه وتلك، ودورها المرسوم هنا وهناك.

ولا يأخذ ارتباطات اقتصادية أو اجتماعية أو جنسية أو فكرية أو روحية أو مادية.. أيّاً من هذه بمفردها. وإنما يأخذها كلها جميعاً، بوصفها انبثاقاً من نفسه المتعددة الجوانب الكثيرة الأهداف، وبوصفها كلها " حقائق " موجودة في واقع الأرض مترابطة في كيان الحياة.

ثم لا يأخذه فرداً واحداً في جيل، ولا جيلاً واحداً من أجيال.. بل لا يأخذه في الحياة الدنيا وحدها ويدع الآخرة، وإنما يأخذه فرداً وجيلاً وسلسلة متصلة من الأجيال، ثم يأخذه كيانه ممتداً بين الدنيا والآخرة على نسق متصل مترابط الأجزاء.

ثم هو بعد ذلك لا يأخذ الإنسان وحده منعزلاً عن بقية الكون، أو منعزلاً عن بقية الأحياء. وإنما هو يأخذ الإنسان غيره من كائنات الأرض، وكائنات الكون، ويأخذ في اعتباره "الأحياء" وغير الأحياء، ويصل بينها جميعاً برابط حيّ يخلع عليها صفة الحياة المشتركة التي تربط بين الجميع.

ثم هو بعد ذلك كله لا يأخذ أحداث الكون والحياة فرادى، منتشرة بلا رابط، وإنما يربط بينها جميعاً برابط واحد محكم، يجعل لها كلها غاية واحدة.. فكلها انبثق من إرادة الله، وكلها صائر إلى الله، وكلها محكوم بقدر الله. ومن ثم فهي "نظام" دقيق مترابط، لا فوضى فيه ولا اضطراب، ولا مصادفة ولا جزأف.

ومن وراء ذلك حقيقة الله.. الخالق المدبر، القادر الحكيم.



ذلك اصفى تصور لحقائق الوجود. وأشمل تصور للكون والحياة والإنسان.

أشمل تصور في تاريخ البشرية كله...

فكل فكرة أخرى وكل نظام وكل عقيدة، قد أخذت شيئاً من هذه الجوانب المتعددة، ولم تأخذها كلها، فنشأ من ذلك قصور في التصور، وخلل في التوازن، وخل في الاتساق.

والإسلام وحده هو الذي شملت فكرته هذه الجوانب كلها في توازن واتساق.

وكل فكرة ونظام وعقيدة قد أنشأت فناً مبنياً على طبيعة تصور لها للكون والحياة والإنسان، واختلف الفنانون بطبيعة الحال بحسب استعداداتهم الفردية، والزوايا الخاصة التي يرصدون منها الوجود، ويتلقون منها في حسهم إيقاعاته، ولكنهم جميعاً تأثروا بطبيعة تصورهم، وأخذوا مكانهم في الميزان الفني والإنساني بحسب طبيعة هذا التصور، والمساحة التي يشغلها من الكون.

وبقي الإسلام - في شموله وتكامله واتساقه - لم يجد تعبيره الفني الكامل في غير القرآن. لم يجد الطاقات الفنية البشرية الواعية التي تطبق هذا الشمول والتكامل، وتعبّر عنه في صورة موحية جميلة مؤثرة.

وليس هنا مجال بسط الأسباب التي أدت إلى خلو الصفحة الإسلامية العربية في أغلب أجزائها من فنانين كبار، يدركون الإسلام على حقيقته الشاملة، وتنفع به نفوسهم على اتساعه، ثم يقدمون هذا في صورة فنية جميلة..

ليس هنا مجال التحدث في هذه الأسباب.. وإنما نقول فقط إن الإسلام دين البشرية في جميع عصورها، وجميع أجيالها، وجميع أجناسها؛ فإذا كانت صفحته - لسبب من الأسباب - قد خلت في الماضي من روائع الفن البشري المنيقة من تصوره الشامل، فالفرصة لتمثله موجودة دائماً، وممكنة في كل جيل. والمهم أن ندرك طبيعة هذا التصور الشامل على حقيقتها، حتى إذا اتجهت الطاقات الفنية إلى تمثيلها اليوم أو غداً، اتجهت إليها بقلوب واعية وحس مدرك، فأنت بما يناسب روعتها وشمولها.

ونحاول في الفصل القادم أن نبسط طبيعة التصور الإسلامي، لنرى كيف يمكن أن يتمناها حس الفنان الملهم البصير.

طبيعة التصور الإسلامي

لكي ندرك مجالات الفن الإسلامي وطبيعته، لا بد لنا أن ندرك أولاً طبيعة التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، وارتباطها ببعضها ببعض. فمن هذا التصور - كما بينا في الفصل السابق - ينبثق العمل الفني في نفس الفنان.

والتصور الإسلامي يبدأ من الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود كله ؛ ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته، ويعنى عناية خاصة بالإنسان - خليفة الله في الأرض - فيعطيه مساحة واسعة من الصورة ؛ ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها وإليها يعود.

وهو في هذه الجولة الواسعة من الله وإليه، يشمل كل دقائق الكون، لا يغادر منها شيئاً يقع في محيطه، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وما يدركه العقل بوعيه وما تدركه الروح فيما وراء الوعي. ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته. سواء نشاطه المادي ونشاطه الروحي. وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وسواء عمله في الحياة الدنيا، وفيما وراء هذه الحياة.



الله.. يصوره الإسلام في أوضح صورة وعاما الحس البشري، وفي أروع صورة كذلك.

الله هو الخالق المدبر القادر المهيمن.. الذي خلق كل شيء.. كل ما في الوجود خلقه. ولا خالق غيره في السماوات والأرض. وهو القادر الذي لا حد لقدرته. المهيمن على كل خلقه في السماوات والأرض. لا يقع في الوجود شيء إلا ما يريد أن يقع. ولا يكون شيء إلا ما أَراده أن يكون.

قدرة مطلقة لا يحدها شيء ولا يقف في طريقها شيء.

وهو واحد مفرد أحد.. لا شريك له في الخلق ولا في الهيمنة على شؤون الخلق.

هو المتسلط وحده، وهو المدبر وحده، وهو القادر وحده، وهو المتصرف وحده في ملكه العريض.

بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجع الأمور.

صورة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض.

ليس فيها شيء من اضطراب الأساطير واختلاطها وحيرتها وتضاربها وخرافتها.
وليس بها شيء من انحرافات التصور التي أصابت الديانات الأخرى أرضيتها
وسماويها.

صورة صافية لا تحتاج إلى كد في تصورها.
وهي في الوقت ذاته صورة رائعة تروع الحس البشري وتهزه من أعماقه.
تهزه القدرة القادرة. والعلم الشامل. والحكمة البالغة. والدقة المعجزة...
والإسلام يوقع على الحس البشري هنا توقعات شتى، تهز الوجدان من أعماقه،
وتنبه الحس وتفتح البصيرة، حتى تصبح هذه الحقيقة الإلهية بكل إشعاعاتها يقيناً عميقاً في
النفس، وبديهية من بديهياتها، بل جزءاً من صميم كيانها، تتنفس به حياتها، وتنشط به
نشاطها، وتسكن به سكونها، وتعيش به كل لحظة من لحظات الحياة.
وتتنوع الإيقاعات..

فهي مرة توجه القلب البشري إلى آيات الله في صفحة الكون، ومرة توجهه إلى
قدرة الله القاهرة التي تحكم كل شيء، ومرة توجهه إلى علم الله الشامل الدقيق...
الكون آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة التي تبهر العقول.
ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون، وروعة الإحساس بها
جياشة واصله إلى الأعماق.

الحواس تتبلد لما ترى وما تسمع، فتمر بكل شيء كأنه لا وجود له، وتنسى -
بحكم التعود - أن كل شيء حولها آية للقدرة القادرة المبدعة الخالقة التي تبدع كما تريد.
الليل والنهار متعاقبين متكورين على الأرض، مختلفين في الطول باختلاف الفصول
واختلاف المكان..

الشمس الطالعة الغاربة في كل يوم، لا تكف يوماً عن الطلوع أو تكف يوماً عن
الغروب.

النجوم المتألئة في ظلمة الليل كأنها عيون تصوص في الظلمة وتتناجى على ما
بينها من أبعاد.

القمر الذي يبدأ زيقة صغيرة لا تكاد ترى، ويظل يكبر حتى يمتلئ وجهه بالنور،
ويغمر الأرض بنور رائق شفاف حالم هادئ جميل ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ زيقة لا
تكاد ترى.. ثم يختفي في المحاق.

الحياة النابتة في الشطأة الصغيرة التي تفتح الأرض بقوة وتشقق عن ورق أخضر
صغير جميل.

الحياة النابتة في الطائر الصغير والحيوان الضئيل وهو يدرج وراء أمه تزفقه أو ترضعه أو تغذوه.

الحياة المنبثة في تضاعيف الكون " الميت " لظاهر العين، وهو في حقيقته طاقات حية متحركة على الدوام.

النظام المذهل في روعته، المذهل في دقته، الذي يسير عليه الكون كله، فلا يختل منه كوكب واحد، ولا يخرج عن مساره قيد أنملة في الزمان الطويل الذي يقدر بالملايين والبلايين من السنين.

الزمن ذاته. كنهه وحقيقته، وطريقة إدراكه.

المخلوق البشري المعجز بكل ما فيه من أجهزة دقيقة وطاقات.

العمليات الجسمية، والعمليات الفكرية، والعمليات الروحية في كيان الإنسان.

امتزاجه وترابطه المحكم الشامل الدقيق الذي يجمع كل طاقاته ويوحد بينها في كيان..

آيات كلها من آيات الله في الكون. كل منها معجز، وكل منها هائل، وكل منها مثير. ولكنها لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعي ودون تفكير.

والإسلام - وهو يربي الروح - يعتمد إليها فيثير فيها الحياة.

فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة.. في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها، فتتفتح للكون كأنه جديد :

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (٢).

"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ

(٢) سورة البقرة [١٦٤] .

أَعْتَابَ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٣).

" يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ " (٤).

" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعَبَبْنَا وَقَضَبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ " (٥).

وهكذا.. وهكذا.. يوقظ القرآن الحس لآيات الله في الكون وفي النفس، ليعيش متفتحاً لها، حفيهاً بها، محساً بعظمتها، متتبعاً لها في كل صغيرة وكبيرة، شاعراً بالقادرة القادرة من وراء كل آية، واليد المبدعة من وراء كل تدبير، ومن ثم تتوجه الروح إلى الخالق، تسبح بحمده وتتطلع إلى حماه.

○ ○ ○

وكما يوجه القرآن القلب البشري إلى قدرة الله المبدعة في صفحة الكون، فكذلك يوجهه إلى قدرته القاهرة التي تمسك بيدها كل أمر، وتدبر وحدها كل تدبير :

" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " (٦)

" بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (٧).

(٣) سورة الأنعام [٩٥ - ٩٩] .

(٤) سورة الروم [١٩ - ٢٥] .

(٥) سورة عبس [٢٤ - ٣٢] .

(٦) سورة البقرة [١٠٧] .

(٧) سورة البقرة [١١٧] .

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" (٨).

"وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ" (٩).

"وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" (١٠).

"قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (١١).

" وكلها آيات توجه القلب إلى هذه الحقيقة الضخمة في بنية الكون وبنية النفس : أن الله وحده هو الخالق. والله وحده هو المدبر. والله وحده هو الذي يصرف الأمور. لا قوة سوى قوته. ولا تدبير سوى تدبيره، وكل من عداه مخلوقات هزيلة ضائعة فانية، لا تملك لنفسها شيئاً، فضلاً على أن تملك للآخرين. والنفع والضرر بيده وحده. لا ينفع أحد إلا بإذنه، ولا يضر شيء إلا بإذنه. والرزق بيده. والموت والحياة بيده. والبعث والجزاء بيده. بيده الملك وهو على كل شيء قدير.



"وكما يوجه القلب إلى قدرة الله المبدعة، وقدرته القاهرة، كذلك يوجهه إلى علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ولا في داخل النفوس.

"وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (١٢).

(٨) سورة البقرة [٢٥٥] .

(٩) سورة الأنعام [١٨] .

(١٠) سورة الإنسان [٣٠] .

(١١) سورة التوبة [٥١] .

(١٢) سورة الأنعام [٥٩ - ٦٠] .

"عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ" (١٣).

"يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" (١٤).

"... وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (١٥).

"يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" (١٦).

"يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" (١٧).

"يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى" (١٨).

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادُسُهُمْ وَلَا ادْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (١٩).



فإذا وجه القلب هذه التوجيهات كلها، وهزه بها من أعماقه، وجعله يفعل انفعالا حيا متجددا مطردا لا ينقطع ولا يفتر.. فقد انعقدت بين الله وبين القلب البشري صلة لا تنقطع في النهار أو الليل. لا تنقطع في عمل أو شعور أو فكر. لا تنقطع في سر ولا جهر. لا تنقطع في خلوة ولا صحبة. لا تنقطع ما دامت الحياة..

ويتصل القلب بالله صلوات شتى :

يتصل به خشوعاً وتقوى.

(١٣) سورة الرعد [٩ - ١٠] .

(١٤) سورة سبأ [٢] .

(١٥) سورة فاطر [١١] .

(١٦) سورة غافر [١٩] .

(١٧) سورة لقمان [١٦] .

(١٨) سورة طه [٧] .

(١٩) سورة المجادلة [٧] .

ويتصل به مراقبة له في كل أمر من أمور الحياة.
 ويتصل به حباً وتطلعاً.
 ويتصل به اطمئناناً إلى قدره وتسليماً بما يرضاه " (٢٠).

○ ○ ○

تلك حقيقة الألوهية في التصور الإسلامي. وذلك موقف الكون والحياة والإنسان من الله.

إنه موقف العبودية الخالصة للخالق. وهو في ذات الوقت موقف الحب والطاعة والتسليم، عن رغبة في التسليم وسعادة في الالتجاء إلى حمى الخالق المنعم الكريم.
 إنه ليس موقف العناد والحقد والكراهية والصراع.. ذلك الموقف الذي تصوره في وضوح أساطير الإغريق القديمة، والذي تلصص إلى داخل اللاشعور الأوربي وظل قابلاً هناك!

" وينبغي أن نعرف أن أوربا لم تكن مسيحية حقاً في يوم من الأيام! على الرغم من انتشار المسيحية فيها وتعصب الأوربيين لها في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش. وعلى الرغم مما لا يزال يرد على بعض الألسنة الغربية حين تتحدث عن " الحضارة المسيحية "!

" كلا! لم تكن مسيحية حقاً في يوم من الأيام، وإنما كان قصارى المسيحية عندهم أن تلين لها قلوبهم في المعبد، وتتأثر أرواحهم بأنغامها الشجية وسبحاتها الروحية المرفرفة، ولكنها لا تحكم الحياة العامة، ولا تحكم في أمر من أمور هذه الأرض. فإذا خرج الناس من صلاتهم في المعبد ارتدت عنهم مسيحيتهم، وعادوا إلى الوثنية الرومانية الإغريقية القديمة، يستمدون منها أفكارهم ومشاعرهم، وتشريعاتهم وتنظيماتهم، وكل حضارتهم المادية العريضة..!

وأياً ما كان الأمر فقد ظلت في لا شعور الأوربيين - تحت القشرة المسيحية الرقيقة - تلك النظرة الإغريقية إلى الله، تنثر في وجدانهم نحوه، وتطبع إحساسهم الديني في الأعماق.

فكيف كانت الأسطورة الإغريقية تصور الله.. أو الآلهة؟

(٢٠) الجزء الأول من كتاب " منهج التربية الإسلامية " فصل " تربية الروح " .

لن نستعرض هنا الأساطير كلها، ولا الصورة الزرية التي كانت تعرض بها الآلهة، فتصورهم - على أحسن تقدير - بشراً فائقي القوة، ولكن نفوسهم مشحونة بالتزوات الطائشة والانحرافات التزقة التي يتورع عنها البشر العاديون.. وإنما نستعرض أسطورة واحدة ذات دلالة، هي بروميثيوس سارق النار المقدسة!

فيروميثيوس كائن أسطوري كان الإله زيوس يستخدمه في خلق الناس من الماء والطين. وقد أحس " بالعطف " نحو البشر، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم. فعاقبه زيوس على ذلك بأن قيده بالسلاسل في جبال القوقاز حيث وكل به نسر يرعى كبده طول اليوم وتتجدد الكبد في أثناء الليل، ليتجدد عذابه في النهار. ولكي ينتقم زيوس من وجود النار المقدسة بين أيدي البشر أرسل إليهم " باندورا " - أول كائن أنثى على وجه الأرض - ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشري!! فلما تزوجها إبيميثيوس - أخو بروميثيوس - وتقبل منها هدية " الإله! " فتح الصندوق فانتشرت الشرور وملأت وجه الأرض!!

تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله! النار المقدسة، نار " المعرفة " قد استولى عليها البشر سرقة واغتصاباً من الآلهة، ليعرفوا أسرار الكون والحياة، ، ويصبحوا آلهة! والآلهة تنتقم منهم في وحشية وعنف، لتنفرد وحدها بالقوة، وتنفرد دونهم بالسلطان!

وهذه العلاقة قد اندست في أوهام الأوربيين، وصارت تصرف أفكارهم ومشاعرهم بغير وعي. العجز وحده هو الذي يخضعهم لمشينة الله! وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه. فهم يطلبون القوة ويطلبون المعرفة. ويحاولون دائماً أن يقهروا هذا العجز. أو يقهروا - بلغتهم - قوة الطبيعة. أو - بلغتهم اللاشعورية أيضاً - " ينتزعون " الأسرار! ينتزعونها من الإله الوثني القديم الذي سرقوا منه ناره المقدسة من قبل! وبهذا الدافع الخفي المطبوع في أعماق النفس الغربية - في أعماق اللاشعور - يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها " العلم " ترفع الإنسان فوق نفسه درجة، وتترل الإله من عليائه بنفس القدر! " وتظل " المعركة " هكذا دائرة: كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله ويرفع الإنسان، حتى تأتي اللحظة المرقوبة التي يتحلب لها ريق الغرب ويتلهف إليها، اللحظة التي " يخلق " فيها الإنسان الحياة، ويصبح هو الله! " (٢١).

موقفان متباينان تبايناً حاداً حاسماً شديداً: موقف أوروبا من الله وموقف الإسلام.

ولا نحتاج هنا أن نقارن بين القلق والصراع والحيرة والاضطراب التي تستولي على القلب الذي تملكه العقيدة الإغريقية الوثنية الفاسدة، والسلام والراحة والأمن والإطمئنان الذي ينعم به القلب الذي تملكه عقيدة الإسلام. ولكننا نقول فقط إن كلاً من

(٢١) من كتاب " قبسات من الرسول " .

التصورين له تأثيره في الإنتاج الفني، كما سيحيي تفصيل ذلك في الفصول التالية من الكتاب.

○ ○ ○

والكون - المنبثق من إرادة الله - هو في التصور الإسلامي شيء جميل، حيّ متحرك محس، متعاطف مع الإنسان، متجاوب معه تجاوب الصداقة والزمالة والمودة. فالسما "مزينة" بالمصابيح: "وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ" (٢٢). والتعبير بالزينة هنا تعبير موح بأن خالق الكون قد قصد في خلقه أن يجعله جميلاً، وأن الجمال جزء من بنية الكون أصيل.

والأرض التي يعيش عليها الإنسان قد جعلها الله معاونة له على الحياة، وهياها بكل ما تتطلبه هذه الحياة من مطالب: "وَبَارَكْ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا" (٢٣). "وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ" (٢٤). "فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ" (٢٥). "وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ" (٢٦).

والسما والأرض بما تشتملان عليه من طاقات وكائنات تعاونان كذلك في تهيئة الحياة للإنسان، وتيسير مهمته في الخلافة عن الله في الأرض: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ..." (٢٧)

"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ" (٢٨). "وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (٢٩).

-
- (٢٢) سورة الملك [٥] .
 (٢٣) سورة فصلت [١٠] .
 (٢٤) سورة الأعراف [١٠] .
 (٢٥) سورة الملك [١٥] .
 (٢٦) سورة الأنبياء [٣١] .
 (٢٧) سورة يونس [٥] .
 (٢٨) سورة الجاثية [١٣] .
 (٢٩) سورة النحل [٦٥ - ٦٧] .

" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ " (٣٠).

ومن ثم فالوجود كله صديق للإنسان، متعاون معه، بارٌّ به، عاطف عليه، لا تقوم بينه وبينه العداوة ولا البغضاء. ولا الجفوة ولا النفور.

وهذا الوجود الجميل، المتعاطف مع الإنسان، هو في الوقت ذاته كائنات حية ذات حس ووعي وإدراك :

" فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " (٣١).
" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ " (٣٢).

" يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا " (٣٣).

" وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ " (٣٤).

" فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ " (٣٥).

ثم هو كون منسق متوازن، كل شيء فيه مقدر بمقادير مضبوطة لا تضطرب ولا تختل :

" إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (٣٦).
" وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " (٣٧).

ثم هو مخلوق بالحق. فلا عبث في خلقه ولا باطل. ولا مصادقة ولا جزاف :

" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ " (٣٨).

-
- (٣٠) سورة النحل [١٤ - ١٦] .
(٣١) سورة فصلت [١١] .
(٣٢) سورة الأحزاب [٧٢] .
(٣٣) سورة الأعراف [٥٤] .
(٣٤) سورة الرحمن [٦] .
(٣٥) سورة التكويد [١٥] .
(٣٦) سورة القمر [٤٩] .
(٣٧) سورة يس [٣٨ - ٤٠] .

" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ " (٣٩).
 " وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُحْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " (٤٠).

وبحسن هنا أن ننقل من " ظلال القرآن " بعض الفقرات في الإشارات القرآنية للكون :

" الشمس والقمر بحسبان ".

حيث تتجلى دقة التقدير في تنسيق التكوين والحركة، بما يملأ القلب روعة ودهشة، وشعوراً بضخامة هذه الإشارة، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار.

وجسم الشمس ودرجة حرارتها، وبعدها عنا، وسيرها في فلكها. وكذلك حجم القمر وبعده ودورته.. كلها محسوبة حساباً كاملاً الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض، وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى..
 وتتناول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوننا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء..

إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال. ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحتترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها. وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا. ولو كانت الشعري بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية، وذهبت بدداً!

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض. فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها، وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة! وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعهما، وضبط خطاهما في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار. ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين!

(٣٨) سورة الدخان [٣٨] .

(٣٩) سورة الحجر [٨٥] .

(٤٠) سورة الجاثية [٢٢] .

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة.

وصدق الله العظيم.. " الشمس والقمر بحسبان ".
" والنجم والشجر يسجدان ".

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير. فأما هذه فهي إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه. وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية.

إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول، وخالقه المبدع. والنجم والشجر نموذجان منه، يدلان على اتجاهه كله. وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء. كما فسرهم بعضهم بأنه النبات الذي لا يستوي على سوقه كالشجر. وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة في النص واحد ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه.

والكون خليفة حية ذات روح. روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن. ولكنها في حقيقتها واحدة.

ولقد أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله. وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه. أدركها بالإلهام اللدني فيه. ولكنها كانت تغيم عليه، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس!

ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من الحقيقة الوحيدة في بناء الكون، ولكنه لا يزال بعيداً عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق!

والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هي وحدة بناء الكون، وأنها في حقيقتها مجرد إشعاع. وأن الحركة هي قاعدة الكون، والخاصية المشتركة بين جميع أفرادها.

فإلى أين يتجه الكون بحركته التي هي قاعدته وخاصيته؟

القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه - وهي الحركة الأصلية، فحركة ظاهره لا تكون إلا تعبيراً عن حركة روحه - وهي الحركة التي تمثلها في القرآن آيات كثيرة منها هذه : " والنجم والشجر يسجدان " ومنها : " تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم " .. ومنها : " ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات. كل قد علم صلاته وتسبيحه ".

وتأمل هذه الحقيقة، ومتابعة الكون في عبادته وتسيبته، مما يمنح القلب البشري متاعاً عجبياً، وهو يشعر بكل ما حوله حياً يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه، وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها، وهي تدب فيها جميعها، وتحيلها إخواناً له ورفقاء!

"إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق... " (٤١).

"والخنس الجواني الكنس.. هي الكواكب التي تخنس، أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي. والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الطباء. وهي تجري وتختبئ في كناسها، وترجع من ناحية أخرى. فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب، وهناك إبحاء شعوري بالجمال في حركتها. في اختفائها وفي ظهورها. في تواربها وفي سفورها. في جريها وفي عودتها. يقابله إبحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه " (٤٢).

"الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت".

والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والذهول. ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم. فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون. بمجرد النظر والتأمل. فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يفتح ويستشرف. ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي، قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب.

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون، وإلى تملي مشاهدته وعجائبه. ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً وفي كل عصر...

والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال. بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة. فالكمال يبلغ درجة الجمال، ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها:

"ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح".

ومشهد النجوم في السماء جميل. ما في هذا شك. جميل جمالاً يأخذ بالقلوب. وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته. ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمرء إلى الليلة الظلماء. ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب. بل إنه ليختلف من ساعة لساعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية.. وكله جمال وكله يأخذ بالألباب.

(٤١) "في ظلال القرآن" ج ٢٧. ص ١١٣ - ص ١١٤.

(٤٢) "في ظلال القرآن" ج ٣٠. ص ٦٦.

هذه النجمة الفريدة التي توصف هناك، وكأنها عين جميلة، تلمع بالحبة والندى!
 وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان!
 وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء. وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان!
 وهذا القمر الحالم الساهي ليلة. والزاهي المزهو ليلة. والمنكسر الخفيض ليلة. والوليد المتفتح للحياة ليلة. والفاني الذي يدلف للفناء ليلة..
 وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده، ولا يبل البصر آماده.
 إنه الجمال. الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات!

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود. وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي ينتهي فيها للحياة الخالدة، في عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية. وإن أسعد لحظات القلب البشري هي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون، ذلك أنها هي اللحظات التي تهيمه وتمد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه (٤٣).



والحياة - معجزة الخلق الكبرى - جميلة بكل صورها وأشكالها.. والقرآن يوجه القلب إليها، ويعقد صلة القربى بين الإنسان وغيره من الأحياء في هذا الوجود. النبات والحيوان والطير..

"وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَاطِيرُ ذَانِبٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ" (٤٤).

فهنا مهرجان من الحياة المتمثلة في النبات بشتى أنواعه. مهرجان زاخر حافل، مختلف الألوان والأشكال والشتات. كلها مبهج وكلها جميل. تستغرق الحس بتمليها واحدة إثر واحدة، ثم بالمقارنة بينها واحدة إثر واحدة. فهذه طويلة سامقة وهذه قريبة

(٤٣) " في ظلال القرآن " ج ٢٢ .

(٤٤) سورة الأنعام [٩٩] .

المنال. وهذه متشابهة وتلك غير متشابهة. وهي جميعها ثمر وينع، يلذ الأعين ويلذ الحس. والآية توجه الناس إلى "النظر" إلى ثمره إذا أثمر وينعه". وهو توجيه يلفت النظر هنا بصفة خاصة في مجال عرض هذه "المأكولات" الشهية التي يتوق لها الحس. فهو لا يقول هنا - كما يقول في مواضع أخرى - "كلوا من طيبات ما رزقناكم" بعد هذا العرض المشهي بالفاكهة المختلفة الأشكال والأنواع. ولكن يقول "انظروا!" انظروا إلى الجمال المبثوث في هذه الكائنات الحية، وتمتعوا بهذا الجمال في تلك اللوحة الطبيعية الحية المتناسقة البهيجة! فالجمال هنا هدف مغذٍ للروح، وهو هنا المقصود أولاً قبل غذاء الأبدان!

"وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" (٤٥).

وهنا الأنعام ذات فوائد ومنافع يبينها الله للناس ليشكروا نعمته وفضله. ولكنه لا يوجههم إلى الفوائد الحسية وحدها في الأنعام، بل يوجههم توجيهاً صريحاً إلى "الجمال" في هذه الأنعام. جمال. "حين تريحون وحين تسرحون". فالجمال عنصر أصيل في بنية الكون والأحياء. وعنصر مطلوب. مطلوب ليستمتع به الناس. وموهبة يذكر الله بها الناس ليشكروه ويعبدوه.

والإشارة إلى الجمال هنا ذات دلالة واضحة لا تخفى بالنسبة للتصور الإسلامي للوجود. فعنصر الجمال عميق في هذا الوجود جداً، يتبدى في كل كائناته "الجامدة" وغير الجامدة. والإنسان - خليفة الله في الأرض - مطالب أن يفتح حسه لهذا الجمال، ليلتقي أجمل ما في نفسه - وهو حاسة الجمال - بأجمل ما في الكون، وينتج من هذا اللقاء ارتقاء الإنسانية صعوداً، حين تشف وتصفو، وتلتقي بالحقيقة الإلهية على هذا الاتساع الشامل، الذي يشمل كل مجالي الجمال في الكون والحياة.

وتوجيه نظر الإنسان إلى "الجمال" في الأنعام ذات "المنافع" المتعددة له دلالة كذلك فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في التصور الإسلامي. فهو مخلوق واسع الأفق متعدد الجوانب، ومن جوانبه الحسي الذي يرى منافع الأشياء، والمعنوي الذي يدرك من هذه الأشياء ما فيها من جمال وهو مطالب ألا تستغرق حسه المنافع، وألا يقضي حياته بجانب واحد من نفسه ويهمل بقية الجوانب. فكما أن الحياة فيها منافع وجمال، فكذلك نفسه فيها القدرة على استيعاب المنفعة والقدرة على التفتح للجمال. فينبغي أن يأخذ الحياة هكذا بكليتها، ويتلقاها بنفسه كلها، عاملاً فيها بجميع طاقاته، ليصبح جديراً بمكانه الكريم عند الله.

(٤٥) سورة النحل [٥ - ٦].

"وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ" (٤٦).

هذه الجولة مع النحل التي تتخذ من الجبال بيوتاً ومما يعرش الناس، ثم تأكل من كل الثمرات مما ينبت طبيعياً ومما يزرع الناس.. ثم يخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس..

إن هذه الجولة تثير في النفس وجدانات شتى.. فهي أولاً تتبع هذه المخلوق الضئيل النشيط المتحرك الدعوب في رحلته الدائبة التي لا تهدأ، والتي يكاد التعبير بنغمته وموسيقاه يرسمها متموجة كنموذج النحلة في حركتها ذات اليمين وذات اليسار، وإلى أعلى وإلى أسفل، تهدأ لحظة ثم تنطلق في اتجاه جديد.. ثم يدركها العجب من هذا المخلوق الضئيل الدعوب، ويدركها الإعجاب فتنشأ بينها وبينه صلة نفسية هي مزيج من المودة والعطف.. ثم هي أخيراً تحس بالصلة المباشرة بينها وبينها، فهي رائحة غادية على "الناس" وفي النهاية تخرج شراباً "للناس"! وهكذا تقرب هذه الصلة حتى تمتزج، وتصبح نوعاً من الزمالة في الحياة!

"أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ" (٤٧).

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ" (٤٨).

والتوجيه هنا إلى الطير، وهي صافات أرجلها وأجنحتها، وحين تقبضها، توجيه له عدة أهداف.

فهو توجيه إلى آيات الله في الكون، وقدرته القادرة المبدعة الخالقة البصيرة.

وهو توجيه إلى عظمة الله التي يسبح لها كل من في السماوات والأرض - ومن بينها الطير - كل بلغته الخاصة، وعلى طريقته الخاصة.

تلك أهداف "مباشرة" مذكورة بنصها.

ولكن هناك أهدافاً أخرى يلتفت إليها الحس البصير الذي يعيش في جو القرآن، والتصور الإسلامي للكون والحياة.. إن كلمة "فوقهم" في الآية الأولى لا تحدد مكان الطير وحده، ولكنها بالإضافة الموجودة في آخرها "هم" تعقد صلة بين الطير

(٤٦) سورة النحل [٦٨ - ٦٩].

(٤٧) سورة الملك [١٩].

(٤٨) سورة النور [٤١].

والناس، لم يكن الإنسان ليحسها لو قال : أو لم يروا إلى الطير صافات ويقبضن. أو لو قال : أو لم يروا إلى الطير في السماء صافات ويقبضن! فكلمة " فوقهم " بما فيها من إضافة قد علقت القلب البشري بالطير، بعلاقة أوثق من مجرد الرؤية والتأمل. إنها علاقة فيها صلة ما.. صلة يخفق لها القلب مع خفقة الطير.

أما الآية الثانية فهي تعرض صلة أخرى بين الناس والطير وجميع الكائنات. إنها كلها تسبح لله. كل بطريقته.. ولكنها كلها تلتقي على التسبيح، وتتصل وجدانها على العبادة، ويجمعها شعور واحد وثيق!

وهكذا تقوم وشائج القربى بين الكائنات الحية كلها في هذا الكون، ما تدركه الحواس منها من ناس وطير وحيوان ونبات، وما لا تدركه الحواس ممن يشملهم لفظ " من في السماوات والأرض " الذين يسبحون كلهم لله...

ولا تقتصر صلوات القربى على هذه الإجماعات الدقيقة التي يتفتح لها الحس حين يعيش في جو القرآن والإسلام، فهناك إجماعات أخرى لها كذلك دلالتها :

" وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٤٩).

إن صلة القربى هنا ليست معنوية ووجدانية فحسب. إنها أصرح من ذلك وأقرب. إنها صلة " مادية " محسوسة. إنها الاشتراك الحقيقي - لا المجازي - في " مادة " واحدة خلقت منها كل الكائنات، ثم تعدت أنواعها بعد ذلك وتفرقت اشكالها، ولكنها جميعاً ترجع إلى هذا الأصل الواحد الذي نبتت منه جميعاً!

إن الإنسان إذن ليس واهماً ولا متخيلاً خيلاً شعرياً حين يحس بالرابطة الوثيقة بينه وبين الكائنات الحية في الوجود من حوله. إنها " حقيقة ". ولكنها حقيقة هائلة تفتح للقلب منافذ شتى يطل منها على الحياة، فتتسع مساحتها في نفسه وتعمق أصولها في حسه. ويجد فيها الشعر والفن منفذاً يصل بين النفس والكون في أوسع مداه. ولا يفوتنا هنا التعبير بكلمة " من " في الحديث عن الدواب، بدلاً من " ما " القياسية في الحديث عما لا يعقل. فهو تعبير مقصود ليصل بين وجدان الإنسان ووجدان هذه الكائنات.

وهذه القربى التي ذكرتها الآية السالفة بين الإنسان ودواب الأرض ممن يمشي على بطنه ومن يمشي على أربع، تذهب بها آية أخرى إلى أبعد من ذلك.. عن طريق الإجماع على الأقل إن لم يكن باللفظ الصريح : " وَاللَّهُ أَتَبَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا " (٥٠).. فبصرف

(٤٩) سورة النور [٤٥] .

(٥٠) سورة نوح [١٧] .

النظر عن المدلول " العلمي " لهذه الآية ونحن لا نعلمه على وجه اليقين (٥١)، فإن لها مدلولاً نفسياً، هو صلة القربى بين هذا الإنسان ونبات الأرض. فكلاهما نابت من الأرض. وكلاهما نبات!

أي صلة عميقة وثيقة تربط الإنسان بالحياة في الكون! وأي سعة يحسها الإنسان في نفسه وفي الكون، حين يتعمق في حسه الشعور بالوشائج الحية التي تربطه بالأحياء؟ لا عجب إذن حين نجد الرسول ﷺ يمسك بنبتة صغيرة فيقبلها، وحين يقول : " ليتني شجرة تُعَصَّد " (أي تقلم). فهو يتكلم بهذا وقد فاضت في روحه العظيمة مشاعر الاتصال الوثيق بالحياة في جميع الأحياء!

○ ○ ○

ثم يجيء دور الإنسان في التصور الإسلامي.
الإنسان خليفة الله في الأرض : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً " (٥٢).

وهو كريم عند الله منذ خلقه : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " (٥٣).
"وقد خلقه في أحسن صورة : " وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ " (٥٤).
ووهب له مواهب جمّة : " وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ " (٥٥).

وأعطاه مكانة عالية في الكون : " وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ " (٥٦) " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ " (٥٧).

ومكانة إيجابية في أحداث الحياة : " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " (٥٨) "فإرادة الله نافذة عن طريق إرادة الإنسان.

(٥١) دون تعلق بنظرية التطور التي تقول إن الحياة النباتية قد أدت إلى الحياة الحيوانية ثم إلى الإنسان !

(٥٢) سورة البقرة [٣٠] .

(٥٣) سورة الإسراء [٧٠] .

(٥٤) سورة التغابن [٣] .

(٥٥) سورة الملك [٢٣] .

(٥٦) سورة الجاثية [١٣] .

(٥٧) سورة الملك [١٥] .

وهكذا يتحدد دوره في الحياة. فقد خلقه الله في أحسن صورة، ووهب له هذه المواهب كلها في نفسه وفي الكون من حوله، وأعطاه مكانه في أحداث الحياة، ليقوم بدور الخلافة في الأرض، من عمارتها وترقيتها، واستخراج كنوزها وأرزاقها، والتعرف على أسرارها، وأسرار ما في السماوات والأرض من طاقات مسخرة له، بإذن الله، ولينشئ بكل ذلك حياة إنسانية صالحة رشيدة مهتدية بهدي الله. "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (٥٩). حياة فاضلة نظيفة مترفعة. حياة تليق "بالإنسان" الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق، فلا تهبط عما يليق بالتكريم والتفضيل، ولا ترتكس إلى مستوى الحيوان.

وفي الفصل القادم تفصيل للحياة الإنسانية في نظر الإسلام.

(٥٨) سورة الرعد [١١] .

(٥٩) سورة البقرة [٣٨] .

الإنحمار في التصور الإسلامي

" إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ " (٦٠).

الإنسان في التصور الإسلامي هو هذان العنصران المختلفان، مترابطين ممتزجين في كيان واحد.

قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.

قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية : الأوكسجين والإيدروجين والكربون والكلسيوم والفوسفور.. إلخ. وتتمثل فيها رغائب الأرض وضرورات الأرض.

ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية وقوة الوعي المدركة وقدرة النفس المريدة.

وهذان معاً يكونان الإنسان.

فهو ليس قبضة طين خالصة. تخضع للضرورات القاهرة من طعام وشراب وجنس.. إلخ، خضوعاً لا تملك نفسها منه، ولا تختار لنفسها سلوكاً معيناً إزاء هذه الضرورات.

وليس إشراقة روح خالصة، طليقة من القيود، ترفرف حيث تشاء، لا تخضع لضرورة، ولا تتأثر بقيود الزمان والمكان، والوجود والفناء، وثقله الجسم المنجذب إلى الطين.

ولكنه مزيج من الضرورة القاهرة والإشراقة الطليقة من القيود.

مزيج قد يغلب عليه في بعض الأحيان أحد عنصريه، فتظهر الضرورة الغليظة وعتامة الطين، أو تظهر النورانية الشفيفة وخفة الشعاع. ولكنه أبداً غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر في أية لحظة من اللحظات.

وحين ينفصل - لو أمكن ذلك - يخرج عن كيانه الأصيل فلا يصبح هو "الإنسان".

حين يصبح جسداً خالصاً. حين يصبح متعة حسية منقطعة عن كل إشراق. حين يصبح ضرورة غليظة. حين يصبح جوعة طعام أو شراب أو جنس لا تشبع ولا تهدأ. حين

(٦٠) سورة ص [٧١ - ٧٢] .

ينحصر في حدود ما تدركه حواسه لا يجاوزها إلى العالم الفسيح الذي تدركه الروح فيما وراء الوعي.. لا يعود إنساناً وإنما يرتكس إلى عالم الحيوان.

وحين يصبح روحاً خالصة. حين يهمل كيانه المادي وضروراته القاهرة ويترهب. حين يهمل العالم الذي تدركه حواسه ليعيش فيما وراء المحسوسات.. لا يصبح إنساناً. إنه يحاول أن يكون كائناً أفضل - في نظره - من الإنسان، ولكنه لا يصل في الحقيقة إلى هذا الفضل. فالسلبية الكاملة التي يتوصل إليها ليست فضلاً ولا مزية، وإنما هي إهدار لأفضل ما يشتمل عليه الإنسان: الإيجابية الفاعلة التي تحقق كيانها في واقع الحياة.

ولكنه يحقق رسالته في الأرض، ويحقق أفضل ما يستطيعه، ويحقق كثيراً من الخير، حين يكون على طبيعته المزدوجة: قبضة الطين ونفخة الروح.

ومقتضى هذا الامتزاج في مفهوم الإسلام: أن الإنسان يقضي ضروراته الأرضية الحيوانية على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان. ويحقق أشواقه الروحية الملائكية على طريقة الإنسان لا على طريقة الملاك!

يأكل ويشرب ويقضي ضرورة الجنس.. وهي كلها مسائل يشترك فيها مع الحيوان. ومع ذلك يقضيها هو على طريقته.. ولا يكون الفرق الرئيسي في طريقة الأداء الميكانيكية - فهذه قد تتشابه في " بعض " الأحيان - وإنما يكون في الفارق النفسي والشعوري وطريقة " السلوك ".

الطعام والشراب والجنس.. ضرورات يقضيها الحيوان بطريقة مباشرة، وعلى أسلوب واحد محدد تفرضه " الغريزة "، ليس له فيه اختيار. لا اختيار في القدر. ولا اختيار في الموعد. ولا اختيار في الانصراف عنه لسبب من الأسباب.

والطعام والشراب والجنس.. ضرورات يقضيها الإنسان. ولكنه يقضيها بطريقة الإنسان. فيجعل لها سلوكاً، مهمته التهذيب والتجميل، و " الاختيار ".

فهو لا يهره هبرة من اللحم النيء ويقضمها بأسنانه أو يمزقها بأنبابه. ولا يخطفها ويجري بها. ولا " يفرسها " افتراساً. وإنما يجعل لكل ذلك آداباً. مهمتها أن تبعد المسافة بين دفعة الغريزة المباشرة وبين الاستجابة لهذه الدفعة. وهو في النهاية يستجيب. نعم، لا شك. ولكن المرحلة التي يقضيها بين الدفعة والاستجابة، المسافة التي ينشئ فيها قواعد السلوك وأدب الأداء، المسافة التي " يتجمل " فيها بمشاعر معينة وأفكار معينة وحركات سلوكية معينة. هذه المسافة هي ذاتها التي تفرق بين الإنسان والحيوان، والتي تبين كيف يقضي الإنسان ضرورة الحيوان ولكن على طريقة الإنسان!

والأمر في الجنس كذلك.

ففي عالم الحيوان تهيج الذكور والإناث للإخصاب في موسمها الجنسي. لا اختيار لها في تحديد الموعد. وتهيج جماعات، لا اختيار في التميز الشخصي. وتهيج في حركات محددة تصل في نهايتها إلى اللقاء الجنسي. لا اختيار في هذه الحركات.

وأهم من ذلك أن كل أنثى مباحة لكل ذكر، وكل ذكر في اشتياق لكل أنثى. لا يقف دون تحقيق هذه " الشيوعية " الكاملة إلا عراك الذكور واقتتالهم على الإناث، وهلاك الكثيرين منهم في المعركة واستيلاء من بقي منهم حياً على قطيع الإناث (٦١).

وفي عالم الإنسان توجد ضرورة الجنس.

ولكنه - حين يكون إنساناً - يقضيها على غير طريقة الحيوان.

فقد تحرر الإنسان - بادئ ذي بدء - من قيد الموعد المحدد، وصارت السنة كلها بالنسبة إليه موسماً صالحاً للإخصاب. ولكنه في مقابل ذلك يلتزم - لصالح نفسه قبل كل شيء آخر - بتحديد القدر الذي ينغمس فيه في هذه الضرورة، وقد زود بالأداة اللازمة لذلك: أداة " الضبط " والتقدير.

وقد تحرر من صورة القطيع في شؤون الجنس - كما هو في كل شأن آخر - فأصبحت له ذاتيته المتفردة، التي تختار لنفسها سلوكها وطرائقها ومواعيدها وإقبالها وامتناعها.

ولم يعد - في عالم الإنسان - كل أنثى مباحة لكل ذكر، وكل ذكر في اشتياق لكل أنثى. لأن الجنس في عالم الإنسان ليس أداء ميكانيكياً لهدف غير واع، يتحقق من وراء وعي الفرد الحيواني، ودوره فيه هو مجرد الأداء. وإنما هو - ككل شيء في عالم الإنسان - هدف واع يدركه الفرد الإنساني، ويؤديه بموجب هذا الإدراك.

وقد اقتضى هذا الإدراك أن يفهم الإنسان أن رسالته في الأرض لا تتحقق إلا بتكوين " مجتمع " و " أسرة "، وأن من لوازم هذه الأسرة استقرار العواطف وتخصيص أنثى واحدة لكل رجل، ورجل واحد لكل أنثى (٦٢)، ليتكون المحضن الصحيح لتربية الأجيال الناشئة في عش هادئ يتمتع بالسلام النفسي والمادي. ولتتكون بين أفراد المجتمع علاقة أخرى غير علاقة التقاتل الوحشي بين الذكور على اصطيد الإناث. ولتتوجه اهتمامات الفرد - بعد قضاء حاجة الجنس في سلام وأمن - إلى أهداف الإنسانية الأخرى التي يشملها كيان الإنسان.

(٦١) هناك بعض صنوف الحيوان مع ذلك تمارس نظام " الزواج " كالحمام والثعابين، فيكون الذكر والأنثى الفين غير منفصلين .

(٦٢) إلا حين يجتدل العدد فتزيد نسبة الإناث على نسبة الذكور، وهو ما يحدث في الطبيعة، فيباح تعدد الزوجات لملاقاة هذا النقص .

وهو في النهاية يستجيب لدافع الجنس. نعم. لا شك. ولكن المسافة الهائلة التي يقطعها بين الدفعة والاستجابة. المسافة التي يكون فيها سلوكاً وآداباً للجنس. المسافة التي يضيف فيها إلى الدفعة البيولوجية "مشاعر" إنسانية: "وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً" (٦٣). المسافة التي يضيف فيها أفكاراً ذات أهداف. هذه المسافة هي هي المسافة بين الإنسان والحيوان، وهي التي تبين كيف يقضي الإنسان ضرورة الحيوان.. ولكن على طريقة الإنسان.



تلك هي الصفحة الأولى من التصور الإسلامي للإنسان، الصفحة التي تعرض صلته بالحيوان. أما الصفحة الثانية التي تعرض صلته بالملاك، فهي تقتضي أن يستجيب الإنسان لأشواقه العليا ولكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الملاك.

فالملاك - كما ترد صورته في الفكرة الإسلامية - مخلوق من نور خالص، ليس له ثقله الجسم ولا عتامة الطين. ومن ثم فهو إشراق خالصة محددة الاتجاه. اتجاهها هو الطاعة المطلقة الدائمة الكاملة: "لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (٦٤). "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" (٦٥) "يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ" (٦٦).

وهي صورة جميلة شفافة رائعة.. ولكنها ليست من طبيعة الإنسان المزدوج الطبيعة والاتجاه. ولذلك لا يُفسَّر عليها الإنسان قسراً، لأنها تفسد طبيعته، إذ تحمل الجانب الحيوي من كيانه، وتتركه بدداً لا ينفع بشيء. لذلك قال: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ" (٦٧).

وليس معنى ذلك ألا يستجيب الإنسان لما ركب في طبيعته من إشراق وتطلع إلى الخفة والانطلاق من القيد والترفع على الضرورة. بل هو يشجع على ذلك تشجيعاً، ويوجه إليه بكل وسيلة. ولكن على ألا يتزع نفسه من الأرض. "وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ

(٦٣) سورة الروم [٢١] .

(٦٤) سورة التحريم [٦] .

(٦٥) سورة الأنبياء [٢٠] .

(٦٦) سورة فصلت [٣٨] .

(٦٧) سورة الحديد [٢٧] .

الدُّنْيَا " (٦٨). " عن أنس " قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها! فقالوا أَيْنَ نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني " (٦٩).

وتلك عبقرية الإنسان : أن يسير بجسمه على الأرض وهو متطلع بروحه إلى السماء!

وهي كذلك معجزة الإسلام في مراعاته للفطرة البشرية.

فهو يكوّن نقطة الوسط بين الاتجاهات المتطرفة المنحرفة.

لا يؤمن - كالدروينية - بحيوانية الإنسان.

ولا يؤمن كالهندوكية والبوذية برهبانية الإنسان.

وقد نشأ عن النظرة الداروينية التي تؤمن بمادية الإنسان وحيوانيته اتجاهات شتى في الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس..

كما نشأ عن النظرة المثالية فلسفات وأفكار.

عن الأولى نشأت الماركسية في عالم الاقتصاد، والتفسير المادي للتاريخ في عالم الاجتماع، والتفسير الجنسي للسلوك في عالم النفس.

ونشأت عن الثانية الفلسفة المثالية، والنظريات التجريدية، من نظرية المثل لأفلاطون في العصور القديمة إلى فلسفة هيجل في القرن التاسع عشر.

ونشأت عن هذه وهذه فنون.

وستكلم عن هذه الفنون بتفصيل أوسع ونحن نتحدث عن " الواقعية في التصور الإسلامي ". ولكننا هنا نشيت ملاحظة عابرة، هي أن الفنون كلها " منحرفة " بطبيعة انبثاقها من تصور خاطئ للإنسان. وأنها على كل ما فيها من جمال ودقة وبراعة فائقة، لا ينبغي أن نخدعنا عما فيها من انحراف، حين نقيسها بهذا المقياس " الإنساني " الكاشف،

(٦٨) سورة القصص [٧٧] .

(٦٩) الشيخان والنسائي .

الذي يمثل طبيعة الإنسان على حقيقتها الشاملة، ويأبى أن ينحصر في جانب واحد من جوانب الإنسان.

○ ○ ○

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (٧٠).

تلك قصة آدم.. قصة البشرية كلها من المنشأ إلى المصير.. قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه.

وإن فيها لمجالات واسعة للفن، سيجيء الكلام عنها في موضعها.. وإنما نحن هنا مشغولون بعرض التصور الإسلامي للإنسان.

وإن الإنسان ليشهد في نفسه صدق هذه القصة في كل لحظة من لحظات حياته على الأرض.

إنه مخلوق ذو مواهب وذو مقدرة وذو نشاط فعال.

ولكن في نفسه نقطة ضعف دائمة: هي حبه للشهوات:

"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ" (٧١).

(٧٠) سورة البقرة [٣٠ - ٣٩] .

(٧١) سورة آل عمران [١٤] ،

وهو يخضع لهذه الشهوة أحياناً فتركبه، فلا يملك نفسه منها، ويُستعبد لها فتستدله وتقوده من خطامه.

وأحياناً يقدر عليها، فيرتفع على الضرورة، ويرتفع على نفسه، ويحقق أرفع ما في كيانه من طاقات واستعدادات.

وأحياناً تلم به لحظة ضعف ولكنه يفيق منها فيتوب.. فيقبل الله توبته :
 " .. وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ " (٧٢).

وهو في أرفع حالاته حين يقدر على نفسه ويمتنع على الشهوات، وعندئذ يكون قريباً من الله. وهو في أحسن حالاته حين يترك نفسه لشهوته، فتَهبط به، وتظل تستدرجه في طريق الهبوط، وعندئذ يكون في قبضة الشيطان.

ولكن الله به رحيم. فهو لم يحرم عليه النعيم وهو على الأرض : " ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ". وإنما نمنعه من " الشهوة ". وحدد بين المتاع والشهوة حدوداً بينها في دستوره، الذي طلب منهم اتباعه ليفوزوا بالنعيم المنشود.



" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " (٧٣).

إن الإنسان في التصور الإسلامي مكرم مفضل عند الله. يحمل هذه الكرامة بين جنبيه طالما هو متصل بالله متبع لهده.

وقد زوده الله بالطاقات اللازمة لعمارة الأرض : " وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات .. " والطيبات من الرزق معنى واسع وشامل يشمل كل الأرزاق. ليس فقط الطعام والشراب والمتاع.. وإنما هو كل مكونات البر والبحر، وكل طاقة في السماوات والأرض :

" وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " (٧٤).

(٧٢) سورة آل عمران [١٣٤ - ١٣٦] .

(٧٣) سورة الإسراء [٧٠] .

فالسماوات والأرض، بموجوداتها، بقوانينها، بنظامها، بطاقتها، بمنتجاتها.. مسخرة من الله للإنسان. يأخذ منها رزقاً طيباً، يستعين به على الحياة والخلافة عن الله.. يدخل في ذلك شعاع الشمس المنير ودفعها المحيي، ومطر السماء المنبت، وعناصر الهواء المساعدة على الحياة، والكهربائية والمغناطيسية، والمد والجزر، وجاذبية الأجرام السماوية... و... وكل ما في الوجود من كائنات وطاقات... ويدخل فيه الموهبة التي رزقها الله للإنسان : موهبة العلم بهذه الكائنات والطاقات، والقدرة على تسخيرها لعمارة الأرض وترقية الحياة.

وهو مكلف أن يقيم من ذلك كله " عملاً " صالحاً..

" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.... "

والعمل الصالح كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله. من عبادة. وزرع. وصناعة وعمارة. واستخراج لكنوز البر والبحر..

ولا يكون صالحاً حتى يستوفي الشروط التي بينها الله في دستوره.. شروط شاملة تشمل كل حياة الإنسان بالتفصيل. حياته فرداً وجماعة. حياته الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والمادية... ومؤداها أن تقوم في الأرض حياة فاضلة راشدة نظيفة مهتدية، يتمتع فيها الناس كلهم برزق الله الواسع، على أخوة ومودة، في ظل الحق والعدل الأزلين.

الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والمادية.. هي في التصور الإسلامي جزء من " العمل الصالح " الذي ينبغي للإنسان أن يقدمه إلى الله.. ومن ثم فهي دائماً مرتبطة بالله.

إن الإنسان في نظر الإسلام ليس شقين منفصلين : شقاً أرضياً " يعمل " وشقاً سماوياً " يتعبد ". وإنما العبادة عمل والعمل عبادة. والإنسان بشقيه شيء واحد. لأنه منذ مولده الأول قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ممتزجتين غير منفصلتين. ومن ثم فليس شيء في كيانه منفصلاً عن بقية الكيان.

الروح والعقل والجسم كيان واحد.

والعمل والعبادة كيان واحد.

والدنيا والآخرة كيان واحد.

(٧٤) سورة الجاثية [١٣] .

وكل عمل يقوم به الإنسان صادر عن كيانه كله (٧٥). وكل لحظة من حياته هي للدنيا والآخرة في آن (٧٦). ومن هنا لا تنقسم الأعمال إلى قسمين : قسم لقيصر وقسم لله. وإنما تكون كلها لله. ويدخل قيصر في ملكوت الله، ويخضع لدستور الله.. ولا تكون هناك نظريات اقتصادية، ولا نظريات اجتماعية، ولا تنظيمات أرضية منقطعة عن الله.

لا يقال في شيء من الأشياء هذا تنظيم أرضي فلا دخل لله فيه. ولا يقال لشيء من الأشياء هذا "دين" فلا دخل له بشؤون الأرض!

الأرض بكل من فيها وما فيها خاضعة لله، وينبغي أن يحكمها هدى الله.

أخلاق الناس وتقاليدهم.. علاقات بعضهم ببعض.. شؤونهم الفردية والجماعية.. سلوكهم الجنسي وسلوكهم الاقتصادي وسلوكهم الاجتماعي.. سلمهم وحرهم.. سياستهم الداخلية والخارجية.. مشمولة كلها بدستور الله، منظمة بمقتضى ذلك الدستور. ورقابة الله تشملها كلها، ولا تترك منها شيئاً للأهواء التي تنتاب البشر فتخرجهم عن الصراط.

○ ○ ○

وهذه الأمور كلها وحدة مترابطة.

مترابطة في داخل النفس وفي واقع الحياة.

فليس هناك عمل واحد من أعمال الإنسان مستقل بذاته، غير مرتبط ببقية الأعمال.

نشاطه الروحي، ونشاطه العقلي ونشاطه الجسمي كله صادر عن كيانه الموحد، ومن ثم فكله مترابط، وكل جانب منه يؤثر على بقية الجوانب.

والأمر كذلك في حياة المجتمع : لا يمكن فصل التنظيم الاقتصادي عن الفكرة الاجتماعية، عن الفكرة الروحية، عن الأخلاق.. ولا يمكن أن تتخذ أي من هذه طرقها مستقلة عن الأخرى، أو غير متأثرة بها ومؤثرة فيها في الوقت ذاته.

لا يقوم الاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية والقيم الخلقية.

ولا تقوم الأخلاق بمعزل عن الاقتصاد...

(٧٥) انظر فصل "خصائص المنهج الإسلامي" في الجزء الأول من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

(٧٦) انظر فصل "فليغرسها" عن كتاب "قبسات من الرسول".

ولا يقال للناس : أنتم أحرار في سلوككم " الشخصي " ، فكيفوا سلوككم الجنسي وقيمكم الروحية كما تشاءون، ولكن اخضعوا لتنظيمات " الدولة " في السياسة والاقتصاد!

ولا يقال لهم التزموا الأخلاق " الرسمية " فلا تفسقوا ولا تشربوا الخمر وأدوا العبادات المفروضة.. ثم تصرفوا في اقتصادياتكم كما تشاءون، فاستغلوا الناس واستعبدهم وكلوا حقوقهم!

فالتربط الموجود في كيان النفس وكيان المجتمع، يقتضي أن يكون التنظيم والتهذيب شاملاً لكل هؤلاء.

○ ○ ○

وملاك الأمر في هذه الشؤون كلها هو التوازن.. وهو صفة تكتسبها النفس من السير على منهج الله (٧٧).

التوازن سمة بارزة في هذا الكون.

فأجرام السماء متوازنة.. آية توازنها ذلك النظام الدقيق المضبوط الذي لا يحتل قيد شعرة، ولا يفترق عن مواعده ثانية ولا ثالثة ولا متراً من سرعة الشعاع!

وهو سمة واضحة في المجموعة الشمسية التي نحن جزء منها، وفي الأرض التي نعيش عليها بصفة خاصة، وفي الحياة على الأرض بصفة أخص.

والعلم يقول في هذا التوازن مقالات شتى. ليس هنا مجال تفصيلها. ولكن البصيرة الملهمة قد أدركت ذلك التوازن حتى قبل أن يصل إليه العلم. أدركته في ومضات مشرقة من ومضات الروح.

والحياة الإنسانية ينبغي أن تسير على الناموس الأكبر الذي يحكم الكون والحياة كلها.. فتتوازن بكل ما فيها من طاقات.

تتوازن الأشواق الطائرة والضرورات القاهرة.

تتوازن التزعة الفردية والتزعة الجماعية.

تتوازن التزعة المادية والتزعة الروحية.

تتوازن طاقة الواقع وطاقة الخيال.

يتوازن الحب والكراهة.

(٧٧) انظر بالتفصيل الجزء الأول من كتاب " منهج التربية لإسلامية " .

يتوازن العمل والعبادة.

تتوازن مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.

تتوازن مصلحة الجيل ومصلحة الأجيال.

يتوازن كل شيء في هذه الحياة!

○ ○ ○

والناس أخوة في البشرية، بحكم نشأتها من نفس واحدة، واشتراكهم في المنشأ والمصير.

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ " (٧٨).

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (٧٩).

وهذه الأخوة ليست قضية نظرية جميلة يُحتفظ بها في عالم المثل والأحلام. بل هي حقيقة عميقة في حياة البشرية، تصاغ على أساسها النظم والتشريعات والتوجيهات.

فالمال يشارك في الانتفاع به الجميع : " كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " (٨٠).

والأمن والسلام ملك للجميع : " كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله " (٨١) وليس المسلم فقط، وإنما هي قضية عامة : " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا " (٨٢).

" والأخلاق " قضية إنسانية، ناشئة من أخوة الناس جميعاً.

فالذي يفسد في الأرض ويرتكب الفاحشة يعتدي على عرض أخ من إخوته وعرض أخت.

والذي يلمز الناس أو يغتصبهم أو يتجسس عليهم.. أو يغشهم ويكذب عليهم.. أو يسرقهم ويغتصبهم.. إلخ، يعتدي على قانون الأخوة الذي يقتضي أن يحب المرء لأخيه ما

(٧٨) سورة النساء [١] .

(٧٩) سورة الحجرات [١٣] .

(٨٠) سورة الحشر [٧] .

(٨١) رواه الشيخان .

(٨٢) سورة المائدة [٣٢] .

يجبه لنفسه، ويعامله بما يجب أن يعامله به. ومن ثم تقام الحدود التي تلزم الناس برعاية هذه الأخوة، وتردهم بالحزم والشدّة حين يخرجون عليها، إلى جانب التوجيهات التي تبث هذه الروح في كل عمل وكل شعور.

ويصير هذا جزءاً من دستور الحياة الإنسانية، ناشئاً من الواقع العميق في بنية هذه الحياة.



والإسلام بعد يتصور الإنسان في واقعه الفعلي لا في عالم النظريات.

ولكن نظرتة إلى " الواقع " ليست ضيقة محصورة الحدود (٨٣).

إنه يأخذ الكائن البشري على ما هو عليه، لا يهمل شيئاً من طاقاته، ولا يفرض عليه ما ليس من طبيعته.

الإنسان بدوافعه كلها، بنوازعه كلها، بحالاته كلها، معترف به، ومقبول على ما هو عليه. كل ما في الأمر أن الإسلام يسعى إلى تنظيفه وتهذيبه. ولكنه لا يكتبه ولا يحارب فطرته.

طاقة الجنس نظيفة، معترف بها في وضوح النور : " وإن في بضع أحدكم لأجراً! قالوا : يا رسول الله إن أحدنا لياتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال : أرايت لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذ وضعها في حلال فله فيها أجر! " (٨٤).

ورغبة الملك نظيفة. وحب الإنسان لنفسه نظيف. وطاقة القتال نظيفة. وطاقة الكره نظيفة... وكذلك كل طاقاته واستعداداته. معترف بها. بل مطلوبة لذاتها، وفي مكانها الصحيح.

ولكنه لا يريد أن تتجاوز الحدود.. فعندئذ تنقلب إلى " فاحشة " فالفحش هو تجاوز الحدود. ومن ثم يضع لها " الضوابط " التي تضبط مُنْصَرَفَهَا ويضع لها التوجيهات التي تنظفها. ويربطها بالله لكي تَنْظِفَ وتستقيم (٨٥).

وهو في ذلك يعتمد على أداة بشرية، كامنة في كيان النفس، موهوبة للإنسان من عند الله:

(٨٣) انظر الفصل التالي : " اواقعية في التصور الإسلامي " .

(٨٤) رواه مسلم .

(٨٥) انظر فصل " نظرة الإسلام " في كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام " .

"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (٨٦).

ومع ذلك كله فهو يعلم أن اللطین ثقلته وعتامته. وللواقع ضغطه وقوته. وأن الإنسان خلق ضعيفاً فيخفف عنه: "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا" (٨٧).

يخفف عنه في التكليف: "هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (٨٨). "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (٨٩) وبطالبه بما يقع في حدود استطاعته: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فانتهوا" (٩٠). وأخيراً يقلل منه عثرته ويقبلها، ولا يسلط عليه سيف غضبه ما دام لا يصبر على فعلته: "...وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ" (٩١). "وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (٩٢).
"كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" (٩٣).

○ ○ ○

ذلك هو التصور الإسلامي.

وهو تصور واسع شامل يشمل حياته كلها بجميع دقائقها وتفصيلاتها.

وهو كذلك تصور متوازن، لا يشتط في تقدير قيمة من القيم الإنسانية على حساب قيمة أخرى، ولا ينسى أحد جوانبه ليذكر جانباً آخر.

ومن هذا الشمول والتوازن يمكن أن ينبثق فن "إنساني" رفيع. فن يشمل حياة الإنسان كلها، باطنها وظاهرها، ويشملها في عالم الضرورة القاهرة وعالم الأشواق

(٨٦) سورة الشمس [٧ - ١٠].

(٨٧) سورة النساء [٢٨].

(٨٨) سورة الحج [٧٨].

(٨٩) سورة البقرة [٢٨٦].

(٩٠) رواه مسلم.

(٩١) سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦].

(٩٢) سورة الفرقان [٦٨ - ٧٠].

(٩٣) رواه الترمذي.

المرفقة. في عالم " الواقع " وعالم " المثال ". في دنيا الفرد وعالم الجماعة. في لحظة الإنتاج المادي ولحظة الإنتاج العقلي ولحظة الإنتاج الروحي. في لحظة هبوطه ولحظة رفعته. ويكون أكبر فن شهده الإنسان.

الواقعية في التصور الإسلامي

هذا التصور الإسلامي للإنسان - وهو أكمل تصور تعرفه البشرية وأشمل تصور يفترق دون شك في بعض أجزائه وفي مجموعه النهائي عن كثير من التصورات الأرضية التي سادت من قبل أو تسود اليوم في أكثر بقاع الأرض، ويصطدم اصطداماً مباشراً مع التصور الغربي الحديث، الذي تنبثق عنه الفنون السائدة في العالم اليوم.

فالانتماءات " الواقعية " الحديثة، على اختلاف ما بينها في الجزئيات، تتفق كلها في استمداد تصورها من النظرة المادية الحيوانية للإنسان، القائمة بدورها على الداروينية القديمة (٩٤).

لقد سيطرت على الغرب فترة من الوقت موجة من " الرومانتيكية " المحلقة في الخيال، كانت في حقيقتها هروباً من الواقع السيئ الذي تعيش فيه شعوب أوروبا. هروباً يشبه في بعض مظاهره " الحشيش والأفيون " وغيره من " المغيبات " التي تنسي الإنسان الواقع، وتحلق به في عالم صناعي خال من المشاكل التي تقلق البال ثم تفيق - إذا أفأقت - على حسرة مرة من أجل الأحلام الحلوة التي لا تتحقق في واقع الأرض!

ولكن هذه الموجة انتهت - كما كان لا بد أن يحدث - لأنها حركة غير طبيعية بالنسبة للإنسان، الذي لا بد أن يجابه الواقع في النهاية مهما قهر من مواجهته فترة من الزمان.

وكان رد الفعل هو الحركة " الواقعية " التي ولدت في القرن التاسع عشر وما تزال سارية في هذا القرن العشرين.

وكل رد فعل لحركة متطرفة ينجح بدوره إلى التطرف، ولا يقف عند نقطة التوازن، لأنه يحاول - في حركة محمومة - أن يزيل آثار الحركة الأولى ويمحوها من الوجود! يحاول أن يبعد عنها إلى أقصى ما في طاقته من البعد.. فتكون النتيجة أن يبتعد أيضاً عن نقطة الوسط الموزون.

وقد كانت هذه الواقعية انتماءاً شاملاً لم يقف عند حدود الأدب والفن، بل لعلها في الأدب والفن كانت صدى للاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية و " العلمية "

(٩٤) تمييزاً لها من " الداروينية الحديثة " التي تباعد بين الإنسان والحيوان مع التسليم بالأسس العلمية التي قامت عليها نظرية دارون، وذكر اهتمامهما على الجوانب التي يتفرد بها الإنسان. ومن علمائها المعاصرين جولييان هكسلي .

التي بدأت تسيطر على الفكر الأوربي منذ القرن التاسع عشر، وما زالت مهيمنة حتى اليوم.

كان كل شيء يتجه إلى " الواقع "!

كانت هناك حركة انسلاخ كامل من " المثل " الجوفاء التي كانت مهيمنة من قبل، والتي كانت تعيش في أبراجها العاجية، في عالم نظري بحت، تاركة الواقع البشري المتن ينغل فيه الدود، الواقع الذي يسوده الفقر والظلم والطغيان والحرمان، والمذلة المهينة لكرامة البشرية.. بينما هي تحلم بالمثل العليا والتكامل في عالم غير موجود!

وكان المذهب التجريبي في العلم - وهو المذهب الذي انتقل إلى أوروبا عن طريق المسلمين في الأندلس كما تقرر المراجع الأوربية (جب - Modern Trends in Islam وبريوفولت Making of Humanity وغيره كثيرون) - كان هذا المذهب قد تغلغل في الفكر الأوربي كله، فنقله من التجريد النظري المصيب إلى مقاطعة كل ما هو نظري، وعدم الإيمان إلا بما تؤيده التجربة وتثبت صحته! أي أنه لم يقف عند نقطة الوسط الموزونة كما كان عند المسلمين، وكما ينبغي أن يكون، بل انتقل من تطرف معيب هنا إلى تطرف معيب هناك!

ونشأ على أنقاض المذاهب والاتجاهات النظرية مذهب مادي بحت، يقول إنه لا حقيقة إلا حقيقة المادة، ولا موجود إلا ما تدركه الحواس!

وفي تلك الفترة، وبسبب من هذا الاتجاه، ولدت النظرية الداروينية في مبدأ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مقررّة - إلى جانب الاتجاه المادي - حيوانية الإنسان! ومن ثم صار التصور " الواقعي " الجديد للحياة الإنسانية، قائماً على مادة الإنسان، وحيوانيته كذلك في ذات الوقت! مادة الإنسان قائمة على إنكار " الروح ".

ففي عرف المذهب المادي - كما أسلفنا - لا توجد حقيقة إلا ما تستطيع الحواس أن تدركه. وما لا تدركه الحواس فهو غير موجود، أو على الأقل شيء ساقط من الحساب. وإذا كانت الروح شيئاً غير ملموس، لا تستطيع الحواس أن تدركه، فلا ضرورة لأن يتعب الإنسان نفسه في الإيمان بها، وليسقطها من حسابه جملة، أو فليبقها للتندر بها بين الحين والحين!

وحيوانية الإنسان قائمة - في النظرية الداروينية - على التشابه بين تركيب جسم الإنسان وجسم الحيوان، ذلك التشابه الذي أوحى لدارون يومئذ بأن الإنسان حلقة من حلقات التطور الحيواني ولا زيادة. وأنه حيوان أصيل في الحيوانية، لولا " الظروف " و " المصادفات " ما استقام عوده ولا مشى على رجلين اثنتين، ولا كبر مخه وتعلم الكلام!

والتقت النظرتان على إنكار الجانب الروحي من الإنسان، الجانب العلوي الذي كان قائماً على تفرد الإنسان في الخلقة، ونفخة الله فيه من روحه، واختصاصه إياه بالعناية، وتمييزه على غيره من الكائنات.

والتقت النظرتان كذلك على الهبوط بالإنسان من آفاقه العليا إلى آفاق الضرورة الحيوانية المقيدة المحصورة النطاق. بعد أن أزيل عن الإنسان جانبه العلوي الذي كان يصله بالله، وكان من ثم " يرفعه " عن الحيوان.

وقامت على مادية الإنسان وحيوانيته جملة مذاهب في الاقتصاد والاجتماع والسياسة وعلم النفس.

قام ماركس وإنجلز يطبقان النظرية الداروينية في الاجتماع والاقتصاد على أساس أن " المادة " هي العنصر المسيطر على الحياة والإنسان. وأن التطور - الاقتصادي والاجتماعي - قوة حتمية لا بد للإنسان فيها ولا حرية له إزاءها. وأن موقف الإنسان من التطور الجبري موقف سلبى. وأن مشاعر الإنسان وأفكاره ومعتقداته لا تساوي شيئاً، ولا تؤثر في خط سير البشرية لأنها ليست " واقعاً " حقيقة. إنما الواقع هو المادة والاقتصاد.

يقول ماركس : " في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها وهي مستقلة عن إرادتهم.. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم ".

ويقول فردريك إنجلز : " تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي : وهو ان الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول الناس أو في بحثهم عن الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل ".

هذا التفسير المادي للتاريخ كان امتداداً ولا شك للتفسير المادي الحيواني للإنسان.

فليس يسعى الإنسان إلى الحق والعدل الأزليين. وإن سعى إليهما فلا قيمة لذلك ولا عبرة به. وإنما يسعى الإنسان إلى الطعام. وإلى الإنتاج المادي. وأسلوب الإنتاج هو الذي يحدد له وجوده ومشاعره وأفكاره ومثله ونظمه وعقائده.. ولا شيء من ذلك كله ثابت، لأنه لا وجود لقيم ثابتة. وإنما كل شيء " متطور " تبعاً لتطور وسائل الإنتاج..

وقام فرويد يطبق النظرية الداروينية في علم النفس، فيقرر حيوانية الإنسان كاملة في التفسير الجنسي للسلوك البشري. "جسم" الإنسان هو حقيقته. والطاقة الجنسية - في نظر فرويد - هي أعظم طاقات الجسم. ومن ثم فهي المسيطرة على كيان النفس، وهي المحرك الأول لكيان البشرية.

الجنس هو كل شيء في حياة الإنسان.

الطفل يرضع ثدي أمه بلذة جنسية. ويتبول ويتبرز بلذة جنسية. ويحرك عضلاته بلذة جنسية. ويرتبط بأمه بشعور جنسي.. وحين يصطدم هذا الشعور الجنسي نحو الأم بوجود الأب وسيطرته، يحدث الكبت. تحدث عقدة أوديب. وينشأ معها "الضمير" أو الذات العليا. كما تنشأ القيم العليا كلها. وهي قيم كلها مزيفة، لأنها تغطية مصطنعة لشعور الجنس الكمبوت نحو الأم!!

وفي السياسة راح قوم من المفكرين يشجعون الاستعمار والسيطرة والتوسع على أساس فكرة الصراع الداروينية وبقاء الأصلح (Survival of the Fittest) قائلين بوجوب سيادة الجنس الأبيض لأنه أصلح للبقاء. كما أخذ اليساريون فكرة الصراع هذه فرسموا على أساسها نظريتهم في الصراع الطبقي، الذي يؤدي في النهاية إلى سيادة طبقة معينة - هي طبقة البروليتاريا - ومحققا لجميع الطبقات.

وهكذا اتسعت النظرية الداروينية - القائمة على مادية الإنسان وحيوانيته - حتى شملت في الواقع كل اتجاهات الفكر الأوربي وكل مناحي الحياة (٩٥).



وكان لا بد أن تصل هذه العدوى إلى الفن في أثناء الطريق.

فالفن - كما قلنا من قبل - هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود، أو من تصورهم لحقائق الوجود.

وإذ كان هذا هو الإيقاع الذي تلقاه الناس في حسهم في القرن التاسع عشر والعشرين - حيوانية الإنسان وماديته، وانحصار عالمه في هذه الأرض، وانقطاع صلته بخالقه، ونفخ النفخة العلوية عنه، ونفي التفرد والتميز عن عالم الحيوان، وسلبيته إزاء قوة المادة والاقتصاد الجبريتين، وعدم جدوى ما يؤمن به من حق وعدل أزليين، وتبعيته الحتمية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية "المستقلة عن إرادته"، وعدم ثبات قيمة من القيم التي

(٩٥) انظر بالتفصيل فصل "جولة مع التاريخ" في كتاب "معركة التقاليد".

يؤمن بها، وسيطرة الدوافع الحيوانية عامة والجنسية خاصة على سلوكه - إذ كان هذا هو الإيقاع الذي تلقاه الناس في حسهم، فقد كان فنههم بالضرورة هو محاولة التعبير عن هذه الإيقاعات، ومن ثم كانت " الواقعية " الفنية في القرن التاسع عشر والعشرين!

قامت هذه الواقعية تزعم أنها ستصور الإنسان على " حقيقته "!

لقد سئمت من الصورة المزيفة التي كان يرسمها الفن القديم للإنسان. صورة البطولة الخارقة التي تتمثل فيها الفضائل المثالية التي لا وجود لها في الواقع!

أما الواقع فهو هذا " الحيوان "!

الحيوان الذي اكتشفه دارون، وفسره فرويد والتفسير المادي للتاريخ!

الحيوان الذي تحكمه غرائزه - أو دوافعه الفطرية بتعبير علم النفس الحديث - والذي يخفي وراء القشرة المزيفة المصنوعة من النفاق والرياء، حقيقة قذرة دنيئة خسيصة، هي جوهره الحقيقي.

أو الحيوان الذي تحكمه أوضاع اجتماعية واقتصادية لا بد له فيها ولا سيطرة له عليها، وهي التي ترسم له مثله وأفكاره وأخلاقه وتقاليده وطرائق سلوكه وواقع حياته. وهو لا يملك من أمرها شيئاً، وإنما هو منها كالفردي في القطيع.

أو هذان الحيوانان معاً.. ممتزجين في كيان!



وانطلقت هذه الواقعية في حماسة محمومة تعمل على تشويه صورة الإنسان وتحطيم بطولته.

البطولة خرافة " إقطاعية " أو خرافة بدائية.. كانت تفرز شخصاً معيناً فتبرزه من الصفوف " العادية " وترسم له صورة غير حقيقية من الفضائل الوهمية. لأن ذلك كان عصر " الفرد " الذي لا يحترم كيان " المجموع "، ويؤمن بأن هذا الفرد كائن قائم بذاته، غير مستمد كيانه من ذلك المجموع.

والفضيلة المثالية خرافة إقطاعية أو خرافة بدائية.. كانت متأثرة كذلك بنظرية الفرد الممتاز الذي لا وجود له في واقع الحياة.. أو كانت متأثرة بخرافة أخرى اسمها الدين.

وينبغي تحطيم هذه وتلك..

ينبغي تحطيم البطولة الفذة لأنها إهانة للفرد العادي! وهذا الفرد العادي بنقائصه وفضائله، هو البطل الحقيقي الذي يجب أن تسلط عليه الأنوار.

وينبغي تحطيم الفضيلة الفذة لأنها اتهم للفرد العادي بأنه غير فاضل! أو أنه غير فاضل بما فيه الكفاية! والفرد العادي - بنقائصه وفضائله - هو المقياس. وهو شخص - في أغلب حالاته - نفعي انتهازي منافق مخادع ضعيف ملتو غير مستقيم. ومن ثم تكون هذه هي فضائل الحياة التي يتصف بها البطل الذي تسلط عليه الأنوار! (٩٦)

وجن جنون هذه الواقعية المحمومة من صور أبطال التاريخ.. فقامت تحطيمها وتشوهها.

الأنبياء والرسل خرافة! لأنهم يعرضون صوراً نقية بيضاء. والبشرية ينبغي أن تكون ملوثة شائنة!

أو إذا لم يكونوا هم أنفسهم خرافة فلتكن نظافتهم هي الخرافة! فلنبحث لكل واحد منهم عن سقطة أو سقطات. ولنجعلها هي موضع العناية والإبراز، ونسلط عليها وحدها الأنوار!

وعظماء الأمم خرافة، لأنهم صور خارقة للمستوى " العادي " للبشر. أو إذا لم نقل إنهم خرافة، فلنبحث على الأقل عن حياتهم " الخفية " لنستخرج منها شيئاً من القاذورات نثبت به " آدميتهم " .. أي حيوانيتهم!

و " الإنسان " في ذاته خرافة!

لا ينبغي أن يخدعنا بما يدعيه لنفسه من مثل ومبادئ، واستعلاء وترفع.. فلتهبط معه إلى " أصوله " الحقيقية. إلى دوافعه الفطرية التي تحركه سواء رغب أم لم يرغب، وشعر أو لم يشعر.. فلنترك الثمار الجنية والأزهار الأرجية والفروع الباسقة والأوراق النضرة.. فذلك كله مظهر زائف. ولنبحث عن الأصل. إنه هناك.. في البذرة الغارقة في الطين!



البطل في القصة الحديثة هو الشخص العادي - لا الشخص المتميز.

وهو الشخص العادي لا في حالات ارتفاعه، ولا في جميع حالاته مع التسوية " التزيهة " في إبراز مكامن الضعف ومكامن القوة.. وإنما هو الشخص العادي معروضاً - في الغالب - من نقطة الضعف المسيطرة عليه، ومرسومة لوحاته من هذه الزاوية وحدها أو بصفة غالبية. مع الحرص على إبراز معنى معين: هو أن ساعات الارتفاع قليلة وعدمية الأثر في واقع الحياة، وأن الذي يؤثر في خط الحياة فعلاً هو لحظات الضعف الكثيرة

(٩٦) تلك نظرية المذهب " الطبيعي " وهو أحد المذاهب " الواقعية " الحديثة .

المتجمعة في مجموع الأفراد. وأن الشخص الذي يشذ عن هذا الخط - لخلل في نفسه يجعله يؤثر الارتفاع! - سرعان ما يتحطم ويندم على ما كان منه من شذوذ وغفلة... ويسير مع القطيع! أو.. ينتحر!

وهذا كله غير الأدب الجنسي. الذي يصور الحياة كلها شهوة جنس عارمة تبحث عن المتاع المسعور، والذي تخصص له أدباء كاملون، من أمثال د. هـ. لورنس، وهبوا كل طاقتهم الإنتاجية لهذا اللون الدنس من المتاع.. زاعمين أنهم كتاب "واقعيون"، وأن هذا هو الواقع الحقيقي للإنسان!

○ ○ ○

تلك صورة "الواقعية" الحديثة في الفن الغربي والفكر الغربي كله.

وأياً ما كانت الدوافع التي أدت إلى هذا التصور لحقيقة الإنسان والحياة الإنسانية، فمما لا شك فيه أنه تصور منحرف، لجيل من البشرية مصاب بشتى أنواع الشذوذ النفسي والفكري والروحي، وشتى أنواع الاختلال في حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والاضطراب العنيف في القيم والمعايير.

تَصَوَّرَ جيل كَفَّرَ الواقع السيئ الذي عاش فيه بضعة قرون، بالقيم والمبادئ العليا كلها، كما كفره بالله والعقيدة.

جيل علمه هذا الواقع السيئ أن الحياة ضرب عشوائي ذات اليمين وذات الشمال، كل بقدر ما يستطيع أن يضرب، وكل بقدر ما يستطيع أن ينتهب فسي زحمة الصراع. جيل شارد أبق مذهول مصروع.. يسير محتل الخطي وينظر زائغ البصر وتختلط في رأسه الأشياء.

جيل خارج من عبوديات شتى، فيحس أن "التحرر" من العبودية هو التحطيم الشامل لكل شيء وكل قيمة.. لأن كل شيء وكل قيمة تذكره بقيد العبودية البغيض.. وينتهي - لأنه لم يتحرر حقيقة بعد - إلى أن يستعبد نفسه من جديد.. يستعبد نفسه على الأقل لشهوة الإباق والتحطيم.

وهو فوق ذلك كله جيل مغرور.. فتنته الكشوف العلمية التي وصل إليها، فظن أنه قد ملك قياد نفسه، وأنه - ما دام يخترع ويكشف - فلا بد أن يكون كل تفكيره حقيقة، وكل ما يخطر في باله فهو صواب.

وقد يكون هذا الجليل معذور أو غير معذور.. ولكن تصورات المنحرفة لا ينبغي أن تكون دستوراً للفكر والحياة البشرية، كما أن هذيان المحموم - مع العطف عليه - لا ينبغي أن يؤخذ على أنه تفكير سليم.



والتصور الإسلامي للإنسان والحياة البشرية لا يمكن بحال أن يجاري هذا الانحراف. إن الإسلام لا ينظر في واقع فرد، ولا واقع جماعة، ولا واقع جيل من أجيال البشرية. ولكنه يجعل في حسابه واقع كل فرد وكل جماعة وكل جيل... ومن ثم لا يأخذ واقع جيل منحرف على أنه واقع البشرية.

والإسلام لا يأخذ واقع فرد ولا واقع جماعة ولا واقع جيل من أجيال البشرية على أنه حقيقة " حتمية " الوقوع ما دامت قد وقعت بالفعل، ولا على أنه حقيقة " صحيحة " الوجود لمجرد أنها موجودة بالفعل!

إن " الأمر الواقع " لا يفرض نفسه على الإسلام أبداً. فالأمر الواقع قد يكون خطأ من أوله إلى آخره، فلا يعطيه وقوعه " حجية " ولا أحقية في أن يوجد. ويظل مخطئاً ولو بقي ألف عام! إن مجرد " الوجود " ليس مزية في ذاته بالنسبة للإنسان. وإلا فالذباب موجود. والعناكب السامة موجودة! وإنما المزية هي الوجود على صواب.. الوجود على مستوى " الإنسان ". وكل " واقع " منحرف " ينحرف عن مستوى الإنسان فهو خاطئ، ولا يمكن أن يكون صواباً لمجرد أنه هو الموجود!

والذين يؤمنون بأن ما وقع بالفعل هو الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يقع - لا على أساس المفهوم الديني الذي يقول إنه لا يقع في الوجود إلا ما قدره الله، وإنما على أساس حتمية التطور، التي تجعل الأطوار الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والخلقية أموراً حتمية في طريقة وقوعها وفي أشكالها وقوالبها وترتيبها - أولئك لا يؤمنون في الحقيقة " بالإنسان " وإن تشدقوا بالإنسان وتقدم الإنسان ومكانة الإنسان وإرادة الإنسان وسيطرة الإنسان!

إنهم - أرادوا أم لم يريدوا -، وفطنوا أم لم يفطنوا - يؤمنون بسلبية الإنسان المطلقة إزاء قوى المادة والاقتصاد، وما يسمونه حتمية التطور.. سلبية لا تملك إلا أن تتعلق في " تروس " الآلة الضخمة الدائرة - آلة الحياة - دون أن يكون لها أن تبطئ حركتها أو تسرعها أو تغير اتجاه الدوران.

إنهم يتبجحون بدعوى " الإنسان " ريثما يخرجونه فقط من كنف الله - سبحانه! - ثم يلقون به بعد ذلك في طين الأرض تدوسه الأقدام.. أقدام الاقتصاد والمادة والإنتاج المادي.. أو أقدام " الدولة " على أحسن الفروض!

والإنسان في عرف الإسلام خاضع لقدر الله.. نعم. ولا يقع في الكون إلا ما قدره.. نعم (٩٧). ولكن الإنسان مع سلبه الكاملة إزاء الله، إيجابي إزاء كل قوى الكون، وكل قوى المادة، وكل قوى الاقتصاد. بل إنه من هذه السلبية ذاتها يستمد إيجابيته إزاء كل القوى المحيطة به، لأن الله، الذي هو سلبه إزاءه، قد سخر له كل ما في السماوات والأرض: " وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " (٩٨) وجعله عنصراً إيجابياً في الحياة يغير الأمور عن طريقة: " إِنْ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " (٩٩). وعنصراً فعالاً يؤثر فعله في صورة الحياة على وجه الأرض في الشر والخير: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ " (١٠٠) " وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (١٠١). وذلك كله لون من " التكريم " الذي عناه الله حين قال: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " (١٠٢).

والمخلوق البشري الذي يعيش في الغرب اليوم لا يريد أن يؤمن بالله. أدركته شقوة تصورات الوثنية الإغريقية التي تصور الحياة صراعاً بين البشر والآلهة، هدفه خروج البشر من حكم الآلهة واستقلالهم عنهم في أمور الحياة. وأراد - كالطفل الصغير، أو كالعبد الأبق - أن يحقق كيانه بأن يبعد عنه اليد التي تسنده، لأنه يرى هذا السند إهداراً لكيانه الخاص! يريد أن يقف وحده ويسير وحده، دون أن يحس بأن أحداً يمنحه القوة ويسنده. يريد أن يقول إن السماوات والأرض ليست مسخرة لأن الله هو الذي سخرها، ولكن لأنه هو - الإنسان - قد سخرها بعلمه " الذاتي " وقوته الذاتية...

نعم.. ولكنه لا يخطو خطوة واحدة حتى يقع!

(٩٧) انظر بعد ذلك " القدر في التصور الإسلامي " .

(٩٨) سورة الحاثية [١٣] انظر " السلبية والإيجابية " في الجزء الأول من كتاب " منهج التربية

الإسلامية " فصل " خطوط متقابلة في النفس البشرية " .

(٩٩) سورة الرعد [١١] .

(١٠٠) سورة الروم [٤١] .

(١٠١) سورة البقرة [٢٥١] .

(١٠٢) سورة الإسراء [٧٠] .

إنه يخطو منتفشاً متبجحاً حتى يخرج - في وهم نفسه - من سلطان الله ونفوذه ومعزنته وسنده ووصايته.. ثم.. إذا هو فريسة "لحتميات" لا أول لها ولا آخر، تحيط به كالأخطبوط، وتضرب وجهه ضرباً في الوحل، كلما أراد أن يرفع رأسه عادت تمرغه في الوحل من جديد.

الجبرية الاقتصادية..

الجبرية المادية..

الجبرية التاريخية...

الجبرية الاجتماعية أو "الجماعية"..

الجبرية النفسية..

الجبرية السلوكية..

كلها جبريات يخضع "لقدرها" صاغراً بينما ينتفش انتفاشاً مضحكاً أمام قدر الله! وتروح "المذاهب" و "العلوم" تعدد ألوان هذا الخضوع المذل للقوى التي تُخضع الإنسان بحتميتها، بحيث لا يملك نفسه إزاءها، حتى يصبح هذا الإنسان هملاً لا كيان له ولا وزن في خط سير الحياة.. ومع ذلك تظل تتبجح هذه المذاهب والعلوم بدعوى الإنسان!!

ألا أنه مسخ مشوه لا يرضى عنه "إنسان" له كيان!

○ ○ ○

والواقعية الإسلامية تختلف عن هذه الواقعية البائسة في نقطتين أساسيتين.
أولاً : طبيعة تصورهما للإنسان، وموقفه من الله والكون والحياة وأخيه الإنسان.
وثانياً : طريقة تسجيلها "للقاطات" البشرية التي تختارها للتعبير الفني.
فأما طبيعة تصورهما للإنسان فقد تحدثنا عنها فيما سلف بما فيه الكفاية، ولكننا نلخصها هنا مرة أخرى :

فالإنسان في نظر الإسلام إنسان، لا هو بالحيوان ولا هو بالملاك.
وهو يشتمل على شيء من طبيعة الحيوان، ولكنه يتصرف فيه بطريقة الإنسان.
كما يشتمل على شيء من طبيعة الملاك، ولكنه يتصرف فيه كذلك بطريقة الإنسان.

مخلوق ليس شراً خالصاً ولا خيراً خالصاً. وإنما فيه الاستعداد للخير والشر، وفيه القابلية لأن يسير في هذا الطريق أو ذاك: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (١٠٣).

مخلوق هو قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. وهذه القبضة من طين الأرض تخضعه لضرورتها. ضرورات الطعام والشراب والجنس.. الضرورات الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية، ولكن النفخة من روح الله ترفعه من الخضوع الكامل لهذه الضرورات، والسلبية المزرية لإزاءها، فتجعله "يتصرف" في هذه الضرورات تصرف المالك لأمره، الفعال ذي القوة الموجّه المريد.. وكلها من صفات الله سبحانه التي أودع شيئاً منها في قبضة الطين، حين نفخ فيها من روحه العلية.

ومن ثم فالتصور الإسلامي - والفن الإسلامي - يصور الإنسان على هذه الصورة المزدوجة التي هي طبيعته الحقيقية. يصوره في لحظات ضعفه ولحظات قوته، لحظات هبوطه ولحظات رفعته، اللحظات التي يلصق فيها بطين الأرض، واللحظات التي يشرق فيها بنور الله.

ولكن...

وهنا النقطة الثانية التي تختلف فيها واقعية الإسلام عن واقعية الغرب..

ولكن.. إذا كانت العدسة المصورة الإسلامية تلتقط اللقطات من هنا ومن هناك في أمانة ودقة و "واقعية"، فهي تختلف بعد ذلك في طريقة التوجيه...

إنها حين تلتقط لحظة الهبوط، تلتقطها على أنها كذلك.. على أنها لحظة هبوط! لا على أنها لحظة بطولة تستحق التصفيق والإعجاب!

إن الواقعية الغربية المنحرفة، الثائرة على المثاليات الفارغة التي كانت سائدة من قبل، والحمومة بالرغبة في الانتقام من تلك الصورة الزائفة، لتتجمع وتتشدد لتبحث عن نقطة الضعف البشري، وتسلب عليها الأضواء بشدة، وتسلبها بالتفصيل وكأنها تقول: ها نحن أولاء قد انتصرنا على الزيف السابق. ها نحن أولاء قد انتقمنا من الصورة النظيفة البيضاء، التي كان مجرد وجودها اتهاماً لنا بالنقص، واتهاماً لنا بالهبوط عما يجب أن نكون عليه.. فلنحطم هذه الصورة الزائفة. فلنثبت لأنفسنا أننا - بكل ما نشتمل عليه من هبوط وضعف وخسة - طبيعيون جداً وعاديون جداً وأسوياء جداً.. ها نحن أولاء قد أثبتنا ذلك بالفعل، بما صورناه من صور الهبوط.. ألا فلنعلن انتصارنا.. فلنعلن انتصار ما نشتمل عليه من سوءات، بأن نضفي عليه صفة الشرعية. وصفة البطولة!

(١٠٣) سورة الشمس [٧ - ١٠] .

هذا هو " اللاشعور " الذي يوجه الفن الغربي والواقعية المنحرفة.

إنه يضفي صفة البطولة على لحظة الضعف البشري - المزرية جداً في بعض الأحيان - ليضلل نفسه عن حقيقة هبوطه المزرية. فبدلاً من أن يتهم نفسه أو يتهمه أحد بالنقص، ويطالب نفسه أو بطالبه أحد بالارتفاع، وهو لا يريد الارتفاع أو لا يقدر عليه، لأنه أحلده إلى الأرض واتبع هواه.. بدلاً من ذلك يقول إن الارتفاع خرافة والهبوط هو الحقيقة الواقعة السوية التي يقال عنها: " ليس في الإمكان أبدع مما كان! ".

أما الواقعية الإسلامية فهي لا تنكر أن حالات الهبوط هذه حقيقة واقعة.. ومع ذلك لا تمجدها ولا تسلط عليها الأضواء، لأنها في حقيقتها لحظات هبوط.

إن الواقعية الإسلامية لا تحب أن ترسم صورة مزورة للبشرية. صورة بيضاء من كل سوء، نقية من كل شائبة، سليمة من كل انحراف! كلا! فما هكذا يقول القرآن ذاته الذي يدعو للرفعة الدائمة والمحاولة الدائمة للتغلب على الضعف! إنما يقول: " وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا " (١٠٤) ويقول: " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (١٠٥) " ويقول: " خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ (١٠٦) " " إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا.. إِلَّا الْمُصَلِّينَ (١٠٧) " " إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (١٠٨) " " وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (١٠٩) " " وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ (١١٠) " " وَلَقَدْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ، وَلَقَدْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرِّاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (١١١) " " وَيَذْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١٢) " " وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (١١٣) " " كُلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ، أُنْزِلْنَاهُ بِرَبِّهِ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَنِي (١١٤) ".

(١٠٤) سورة النساء [٢٨] .

(١٠٥) سورة آل عمران [١٤] ،

(١٠٦) سورة الأنبياء [٣٧] .

(١٠٧) سورة المعارج [١٩ - ٢٢] .

(١٠٨) سورة إبراهيم [٣٤] .

(١٠٩) سورة الإسراء [٨٣] .

(١١٠) سورة يونس [١٢] .

(١١١) سورة هود [٩ - ١١] .

(١١٢) سورة الإسراء [١١] .

وهي كلها آيات تصور " نقائص " الإنسان تصويراً صادقاً بارعاً عميقاً، واقعياً إلى أقصى حدود الواقعية... ولكنها تصورها على وضعها الطبيعي الحقيقي، وهي أنها نقائص ينبغي أن يرتفع عليها الإنسان. وهنا مفرق الطريق..

إن الواقعية الإسلامية لا تزعم أن الإنسان خير كله ممحض من الشر. ولا تزور عن تصوير هذا الشر في أي تصرف من تصرفات الإنسان، ولكنها تقول عنه إنه شر. وتصوره على أنه خطأ لا ينبغي أن يكون.

ثم مرة أخرى.. لا تزعم أن الإنسان خير كله ممحض من الشر. وإنما تعرف أنه خليط من هذا الاستعداد وذاك. وترسمه في هذه اللحظة وتلك. ولكنها لا تسلط الأضواء على لحظة الهبوط، وإنما على لحظة الإفاقة من ذلك الهبوط! " وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ لَئِنْ رَأَوْهُمُ الْعَذَابَ لَآتَيْنَهُمْ مِنْهُم مِّنْ رَّحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١١٥) " .



الواقع الإسلامي هو الواقع الكبير.. لا الواقع المحدود الصغير..

واقع الضرورة القاهرة وواقع الأشواق الطائرة.

كلاهما واقع في حقيقة الإنسان، فلماذا نجسم الواقع الهابط ونغفل الواقع الرفيع؟

هل نأخذ المسألة بالكم؟ أن ذلك هو الغالب وهذا هو القليل؟

الواقع حقيقة ما في ذلك شك.

"ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك.. إنه حقيقة " الإنسانية " .

وندرة اللحظات التي يرتفع فيها البشر عن الواقع لا تعني أنها غير موجودة، ولا تبرر إغفالها من " واقع " الحياة. فما دامت تحدث بالفعل فلا بد من تسجيلها والإشادة بها، ووضعها موضعها الحق في وزن الأمور.

هل كل يوم يزهر النبات؟ أليست لحظات معدودة من حياته هي التي تتفتح فيها الزهور؟ ولكن من يقول إن ندرة تلك اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذا العذب والمنظر

(١١٣) سورة الكهف [٥٤] .

(١١٤) سورة العلق [٦ - ٧] .

(١١٥) سورة آل عمران [١٣٤ - ١٣٦] .

البهيح؟ وكم تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات، ولا تستمع بذلك الجمال المتاح؟ وكم تكسب وهي تترقب الزهور المفتحة، وتتطلع إليها في لهفة، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات؟

ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التي لا تتلبث، ولا يتضوع شذاها غير لحظات؟

كذلك " زهرات " المشاعر و " ثمرات " النفوس. قليلة. نعم. ولكنها في قلتها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل!

"... وجاء ماركس وصفه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادية وواقعية الاقتصاد : " إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته " " إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم، وليست مشاعرهم هي التي تحدد وجودهم.. إن علاقات الإنتاج ووسائله هي التي تحدد الصفة النهائية للمجتمع، وهي التي تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم ".
وذلك واقع.. ولكنه واقع صغير!

والواقع الأكبر الذي أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر في الطعام والكساء والجنس - وهي المطالب الأساسية كما سماها - ولا يمكن أن تنحصر في نطاق المادة. وأن كل ما أنتجته البشرية في تاريخها الطويل، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة، وتعبير عن الواقع البشري الكبير. وأن الاقتصاد قد يكون " أساس " الحياة البشرية، ولكن الأساس شيء والبنیان شيء آخر. فضلاً عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية في " أساسها " وإنما هي سيكولوجية أو روحية أو فكرية، لا تقل توجيهاً للناس في حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد.

أما فرويد وعلم النفس التحليلي كله فيتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل. يتزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريحية والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة في الطين. ثم يقول لك : أنظر! أليس هذا هو " الواقع "؟ أليست ترى معي البذرة الغارقة في الطين؟

نعم هذه البذرة حقيقة. ولكن من يقول إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها ألحج الألوان؟ هل كل ذلك ليس حقيقة، والحقيقة الواحدة هي البذرة والطين؟

... وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة، ولا إن الفن ينبغي أن يصورهم ملائكة. ولكن الواقعية الحقبة ينبغي أن تشمل الواقع الكبير، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمدة الغليظة، لأن الواقع الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض؛ وإنما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال، والكمال.

صراع الجسد حقيقة. غلبة النوازع الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة. ضعف الإنسان ورضوخه لذواته حقيقة. ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلمسها كل إنسان في نفسه حين يحقق كيانه كإنسان. والفن ينبغي أن يشمل الواقع كله بلا تمييز.. الواقع الأكبر والأصدق في التصوير.

وما نعني حين ندعو إلى " تطهير " الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط، أو نلغي تصوير المشاعر الحسيسة من الحساب. أو نصور الإنسان ملكاً بلا خطايا ولا أخطاء. كلا! وإنما نعني أن يكون الضوء مركزاً على لحظات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة.

قصة همزات الشياطين لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول. إنها قصة شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة. وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج. ولكنها رويداً رويداً تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة، تصرعها وتكتم أنفاسها. ويظل المؤلف يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب، حتى يقع في الخطيئة ويرتكب الفاحشة. ولكنه لا يتركك والضوء مسلط على منظر الجريمة! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير. إنه يرسم لك لحظة الإفاقة. إنه ينهي القصة بمنظر التوبة. منظر الفتى وهو يتلمس في ظلمة نفسه أضواء المغفرة. ثم يفتح الباب ليدخل منه النور : " كل ابن آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون ". ثم يتركك والنور مسلط هناك! (١١٦).



ذلك موقف الواقعية الإسلامية من تصوير " الأبيض " و " الأسود " في النفس الإنسانية. تصوير لحظة القوة ولحظة الضعف.. لحظة الارتفاع على الضرورة ولحظة الوقوع في الضرورة.

أما موقفها من تصوير الصراع الاجتماعي والاقتصادي و " الطبقي " وموقف " الإنسان " من هذه القوى المتصارعة.. فإنه يهتدي بالروح ذاتها التي اهتدى بها في تصوير الأبيض والأسود في نفس الإنسان.

إن التفسير المادي للتاريخ، بما يضخم من القوى المادية والاقتصادية ويصغر من قوى الإنسان إزاءها، وبما يصغر من قيمة العقيدة، وقيمة الأفكار والمثل، والقيم الخلقية الروحية.. إنه كله حقيقة! ولكنه حقيقة على المستوى الصغير المحدود، وليس حقيقة على المستوى الكبير للإنسان!

(١١٦) من كتاب " في النفس والمجتمع " فصل " فوق الواقع " .

إنه حقيقة هذا الجيل من البشرية في الغرب.. وحقيقة كل جيل يقطع نفسه من سند القوة الكبرى، فينقذف في التيار، يسير به إلى مصيره " المحتوم " دون إرادة منه ولا اختيار.

كل جيل من البشرية - وكل فرد - لا يؤمن بالله والعقيدة، ليس له إلا مصير واحد. هو التضاؤل أمام كل القوى التي لا يعصم منها إلا الإيمان بالله، ولا يجعلها مسخرة للإنسان بدل أن يكون هو مسخراً لها إلا الإيمان بالله. حين ينقطع الإنسان عن سند القوة الكبرى تأكله الغيلان في الأرض. غيلان الاقتصاد والمادة والمجتمع والدولة.. والآلة.. والقيم المعكوسة.. وحين يرتبط بهذه القوة الكبرى ويستمد قوته منها، يقف لهذه الغيلان الطاغية فلا يجعلها تنال منه، أو على الأقل يكون عنصراً إيجابياً في الصراع معها، ولا يكون ضعيفاً مسلوب الإرادة مقضياً عليه بالخضوع المطلق والتسليم.

وهذا الجيل من البشرية في الغرب قد قطع صلته بالله والعقيدة. لم تعد العقيدة في الله تحكم شيئاً من حياته الواقعة. لا تنظيماته الاقتصادية ولا الاجتماعية ولا السياسية.. ولا سلوكه الفردي ولا الجماعي.. ولا قيمه الخلقية ولا الفكرية.. ومن ثم وقع فريسة للغيلان.

وهو لم يقع فريسة لها لأن هذه هي " حتمية " التطور.. ولكن لأنه وقف يواجهها بلا سلاح. فأخذت ترتطم به وتختبط، حتى وصلته إلى ما هو فيه اليوم.. من رأسمالية فردية عاتية في الغرب، وجماعية طاغية في الشرق. وهو في كليهما مستبعد لهذه القوة أو تلك، لا يملك في نفسه كيان " الإنسان ".

ولكن البشرية لم تكن هكذا أبد الدهر! على النحو الذي يريد أن يفرضه هواة التفسير المادي للتاريخ على جميع التاريخ!
وإلا فما شأن الإسلام؟!

آية حتمية هي التي أخرجت الإسلام في الجزيرة العربية في ذلك الوقت من التاريخ وأخرجت الأمة الإسلامية إلى الوجود؟

شعور العرب بضرورة تجمعهم في أمة، واحتشاد القوى لهذا التجمع المنشود؟
فليكن ذلك..

كم أمة في التاريخ تجمعت.. ثم لم تخرج للإنسانية مثلاً ولا مبادئ ولا عقائد ولا أفكاراً متحققة في عالم الواقع لا في عالم المثال؟

لقد تجمعت أمم كثيرة في التاريخ من قبل ومن بعد، واحتشدت طاقاتها لهذا التجمع. فأياها قدم للبشرية من تجمعه ذلك دستور حياة شامل كالذي قدمه الإسلام؟

وأهم من ذلك.. أين كانت الضرورة " الحتمية " التي أخرجت هذا النظام على صورته تلك، الفريدة في تاريخ البشرية كله؟

أين كانت الحتمية في القرن السابع الميلادي، التي تؤدي إلى ظهور نظام " عالمي " يتحدث إلى الإنسانية كلها، ويدعوها لمبادئه ومثله؟ في أي مكان على الأرض، فضلاً عن شبه الجزيرة الصحراوية البدوية في ذلك الحين؟

أين كانت الحتمية في القرن السابع الميلادي التي تؤدي إلى توزيع المال بين الناس " كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم "؟ في أي مكان في الأرض فضلاً عن الجزيرة العربية؟

أين كانت الحتمية في تحرير " الإنسان " من كل عبودية على الأرض، ليعبد الله وحده، متحرراً ضميره من الخضوع لأي ثقل مادي أو معنوي يعوق تحقيق كيانه الأسمى، وينقص من قيمته كإنسان؟

أين كانت الحتمية في تحرير المرأة من ظلم الجاهلية وعدوانها وافتئاتها على كيانها، لتعطى كياناً إنسانياً يتصل مباشرة بالله، ويمارس في واقع الأرض حرية الملك وحرية التصرف المباشر والأهلية الكاملة في كل نشاط حيوي نظيف، وحرية الزواج، وحرية الشعور بعواطف الإنسان؟

أين كانت الحتمية في تحرير الرقيق من وضعه السيئ ومنحه كرامة الإنسان؟ وجعل قانونه الذي يتحاكم إليه هو شريعة الله لا إرادة السيد كما كان الحال مع كل رقيق الأرض في ذلك الزمان.. شأنه شأن الأحرار سواء؟

أين الحتمية في كل ذلك، والإسلام هو الذي أعطى هذه الكرامات كلها متطوعاً دون قهر، ودون أن يطلب أحداً من أصحاب هذه الحقوق حقوقهم، أو يثور لها، أو يصطدم بـ " المالكين " لاستخلاصها من أيديهم؟

وما التغير الذي حدث في وسائل الإنتاج في الجزيرة العربية بل في العالم كله في ذلك الوقت، فأدى بطريقة حتمية - على رأي ماركس وإنجلز - إلى تلك الثورة التحريرية الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ؟

كلا! لا حتميات هناك، ولا تفسير مادياً للتاريخ!

إنما هو الله - سبحانه - المنعم الوهاب، وهب للناس هذه الدفعة التحريرية الكبرى، تفضلاً منه ومنه، لا عن قهر ولا اضطرار.

وحين وهبها لهم، وأمدهم بدستورهم الذي يسيرون عليه، قاموا - بموجب إيمانهم بالله ودستوره - ينشئون هم نظمهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لا مقهورين عليها، وإنما منشئين لها من واقع إيمانهم ؛ فتنتقل الفكرة الإيمانية من وجدان القلب إلى

واقع الأرض، وتصبح حقيقة واقعة في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والسلوك الفردي والجماعي، والسلوك الخلقي، طليقة من القهر والحتمية ؛ ويصبح الإنسان قوة فاعلة موجهة مريدة، تنشئ هي الأوضاع ولا تخضع للأوضاع ؛ تضع تفسيرها هي للتاريخ والحياة، وتلزم بهما التاريخ والحياة، ويصبح الإنسان هو قدر الله الذي يفعل في الأرض ما يشاءه الله.

تلك حقيقة قد حدثت بالفعل..

حقيقة لا يستطيع أن يفسرها التفسير المادي للتاريخ، الذي يفسر التاريخ بمعزل عن الله والعقيدة، ويمعزل عن عالم الروح.

ومن أجل ذلك لا تنفي الفكرة الإسلامية الله من واقع البشرية، ولا تنفي واقع الروح.

○ ○ ○

ومع ذلك فهي لا تصور واقع البشر بعين الخيال الحالم الغافل عن واقع الأشياء.
لا تتصور الناس أبطالاً كلهم يصارعون قوى المادة وقوى الاقتصاد وقوى " التطور"، فيصرعونها بعضا سحرية اسمها العقيدة.
كلا! فالإسلام يعرف جيداً واقع الحياة البشرية.

يعرف أن الناس يضعفون عن الصراع لأنه مهمة شاقة ثقيلة عظيمة التكاليف في النفس والمال والمتاع : " لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ " (١١٧) " وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ " (١١٨) " وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ " (١١٩).

وليس كل الناس يصبر على هذا البلاء... كثير منهم يؤثرون السلامة فيخضعون. يخضعون للقوى المسيطرة في المجتمع، فيلغون كيان أنفسهم، ويتنازلون عن وجودهم، ويصبحون هملاً من القطيع.

وحين ذلك يصدق التفسير المادي للتاريخ!

ولكنه - رغم ذلك - لا يصبح ضرورة حتمية!

(١١٧) سورة التوبة [٤٢] .

(١١٨) سورة البقرة [١٥٥] .

(١١٩) سورة محمد [٣١] .

فليس من الحتم الضروري أن يضعف الناس عن الصراع في كل مرة وفي كل جيل! والذي يحدث عملياً أنهم يهّبون بين الحين والحين حين يستيقظ في كيانهم كيان " الإنسان "، ويرتفعون على واقعهم الصغير بكل حتمياته وجبرياته.. ويحققون إنسانيتهم على درجات متفاوتة من الارتفاع.

ثم هم حين يضعفون تكون الحقيقة أنهم هم قد ضعفوا! ولا تكون الحقيقة أن حتمية التطور قد أنشأت أوضاعاً - على رأي ماركس وإنجلز - مستقلة عن إرادة الإنسان!

إن " الناس " موجودون دائماً في كل حالة.. موجودون على مستواهم الأعلى فينشئون هم أوضاعهم بموجب ما يؤمنون به من عقائد ومثل. أو موجودون على مستواهم الأدنى فتغلبهم الأوضاع وتجرفهم الطريق. ولكن لا يحدث في أية حالة أن يقوم تطور مستقلاً عن كيان الإنسان - أين يقوم إذن؟! - ثم يفرض نفسه فرضاً على الناس بحكم حتميته وجبريته المستقلة عن إرادة الناس!! وهذا هو التصوير " الواقعي " لحياة البشرية..

التصوير الواقعي لكل ما يحدث في حياة البشر من تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية. تصوير لا يُغفل مكان الفرد في حياة البشرية ولا يغفل واقع الجماعة. ولا يُغفل عن نقط الضعف ونقط القوة في حياة الإنسان، ولكنه يصورها من منبعها الحقيقي، من داخل النفس الإنسانية المتفاعلة مع الكون والحياة، لا مما يسمى " الواقع المادي " الذي يفرض نفسه على الإنسان والحياة.

وهذا هو التكريم الحقيقي للإنسان، حتى وهو في لحظات ضعفه وعجزه وهبوطه وانحرافه مع التيار. لأنه يصور الواقع من خلال وجوده الإنساني، ويظل هذا الواقع بما يعتمل في نفسه من ألوان المشاعر والأفكار.

وهذا هو الخلق بخليفة الله.. التفسير " الإنساني " لحياة الإنسان!



كلاً! لا يرسم الفن الإسلامي صورة مزورة للبشرية. بل صورة واقعية عميقة الواقعية. صورة تشمل الإنسان كله في جميع حالاته وجميع آفاقه. ولكنها لا تسلط النور على الشر وتجعل منه فضيلة. ولا تسلط النور على الضعف وتجعل منه بطولة.

ولا تغفل الجوانب العليا من كيان الإنسان.

ثم هي لا تأخذ واقع جيل معين، مليء بالشذوذ والانحراف، جيل طحنته الصراعات الاقتصادية والاجتماعية فأياسته من نفسه، وحولته عن الإيمان بما يشتمل عليه من عناصر الرفعة، ومرغته في الوحل، وأخضعته لكل ضرورة مذلة.. ثم تقول إن هذا واقع البشرية!

كلا! إنه واقع جيل معين من أجيال البشرية.

والواقعية الإسلامية على استعداد لأن ترسمه بأمانة كاملة، بكل ما فيه من نقائص وضعف وخسة وهبوط. ولكن على هذا الشرط: على أنها نقائص وضعف وخسة وهبوط. لا على أنها الأمر الواقع الذي لا مفر منه ولا أمل في الارتفاع عليه!

إن أمانة الإسلام للبشرية في مجموعها، بجميع أجيالها، هي التي تفرض عليه هذا الموقف إزاء هذا الجيل المنحرف وكل جيل..

إنها تصور الواقع الحادث.. ولكنها تصوره مقيساً إلى ما ينبغي أن يكون عليه البشر في حياتهم السوية.

و " ما ينبغي " أن يكون عليه البشر ليس صورة خيالية مزورة. فهي تحمل في أطوائها عناصر ضعفها بجانب عناصر قوتها.. ولكن المهم أنها تحمل عناصر القوة، وتسלט النور على هذه العناصر، لأنها هي الحقيقة بالإشادة والتسجيل.

والإسلام يحمل في فكرته ووقائعه التي حدثت بالفعل في واقع الأرض.. يحمل صورة محمد بن عبد الله ﷺ وصورة أبي بكر وعمر وخالد وعلي وعمر بن عبد العزيز.. وصلاح الدين.. وكثيرين غيرهم من " وقائع " التاريخ الإسلامي وبطولاته. يحملهم معه صوراً للواقع الذي يمكن أن يصل إليه البشر بالتوجيه الصحيح.. ويقيس إليهم واقع أي جيل، ليعطيه وزنه الحق في ميزان القيم البشرية. وبهذا الوزن ذاته يضع الناس في لوحته الفنية.. بحسب ما يستحقون.. بحسب ما يحققون من كيانهم الإنساني، وما يجاهدون لإثبات رفعة الإنسان وإشراقه، وإيجابيته الفعالة في هذه الحياة.

وليس معنى الإيجابية الفعالة في التصور الإسلامي أن تنتصر الفضيلة في كل صراع: سواء الفضيلة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الخلقية.. أو ينتصر أصحاب العقيدة المنافحون عنها.. أو ينتصر الخير في أية صورة من صوره.

كلا! فما هكذا يصور الإسلام الواقع.

فقد ينهزم الخير مرة ومرة ومرة.. ويكون هناك سبب وحكمة في كل مرة.

قد تكون هناك فتنة جائحة تحتاج الحق والباطل : " وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً " (١٢٠).

وقد يكون الله يريد أن يفتن الطغاة البغاة، فييسر لهم النصر على الحق : " لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (١٢١).

وقد يكون الله يريد أن يمحس المؤمنين ليحملوا العبء على سلامة وتمكن واستعداد : " وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ " (١٢٢).

وقد يكون غير ذلك من الأسباب ما يكون.. ولكن التصور الإسلامي يؤمن بأن سنة الله في نصر الحق وأصحابه سنة ماضية لا تتبدل. وإنما أعمار الأفراد ليست هي المقياس. والجولة العارضة ليست هي الجولة الأخيرة.. وواجب " الإنسان " أن يؤدي دوره المطلوب منه في عمره المحدود، ثم تسير السنة الماضية في طريقها، ويتحقق النصر في موعده الموعود، وتظل القلوب في كل جيل معلقة بهذا الوعد لا تيأس من روح الله.

وهكذا يشمل التصور الإسلامي صفحة البشرية كلها، في جميع حلقاتها وأجيالها، مترابطة متشابكة متداخلة في اللوحة الكبيرة، حية متحركة هادفة صحيحة الدلالة في جميع الحالات.

ومن ثم لا يكون مجاوزاً للواقع وهو يرسم صوره الفنية، ولا يكون متخذاً مقاييس خيالية يقيس بها الناس والأوضاع والأشياء.

(١٢٠) سورة الأنفال [٢٥] .

(١٢١) سورة النحل [٢٥] .

(١٢٢) سورة آل عمران [١٣٩ - ١٤١] .

الحواسف البخريّة في التصوّر الإحلامى

الجانب الوجداني من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب في موضوع الفنون. فعنصر " التأثير " هو العنصر البارز في الفن. وأقرب وسائل التأثير هو تصوير الوجدانات البشرية في صورة جميلة موحية تؤثر في الوجدان.

ومع أن الفنون - وخاصة في موجهتها " الواقعية " الحاضرة - تتخذ من كل شيء موضوعاً للتعبير الفني، إلا أن وجدانات البشر ما تزال رغم ذلك هي الموضوع الغالب على الفن في كل لغة وفي كل جيل. وهذا أمر طبيعي بالنسبة للفن. وإلا انقلب علماً أو فلسفة أو أي لون آخر من ألوان التعبير الخارجة عن نطاق الفنون.

ليس الموضوع في ذاته هو الذي يحدد نوع العمل إن كان فياً أو غير في، وإنما الذي يحدده هو طريقة تناول الموضوع. فحين يتناوله الكاتب ببرود الذهن - مهما يكن الذهن صافياً ومشرقاً ولماحاً - فإنه لا يكون فناً - ولو كان موضوعاً متعلقاً بالعاطفة - لأنه يخاطب الذهن وحده ولا يصل إلى الوجدان. وعلى العكس من ذلك يمكن أن يدخل الموضوع في دائرة الفن - ولو كان عن مادة مغرقة في الجمود - إذا استطاع الكاتب أن ينفعل هو به أولاً، ثم ينقل ذلك الانفعال بصورة مؤثرة تصل إلى وجدان الآخرين.

والذي ينبغي أن ينقله إلينا الفن في كل موضوع يتناوله هو ذلك الجانب الوجداني الحيّ المنفعل المؤثر.. لا غيره من جوانب الموضوع. ويدع للعلم والفلسفة والبحث الذهني كل جانب تجريدي، وكل جانب تسجيلي أو إخباري بحث، لا تدخل فيه " النفس " التي انفعلت به ثم رغبت في نقل انفعالها للآخرين.

ومن ثم فإن المذاهب التي تنحو نحواً علمياً خالصاً في الفن، فتسجل " الواقع " كما تراه العين الذهنية الباردة، أو كما تراه " الكاميرا " التي لا يعينها ما تنقل من الصور، ولا تنفعل بما تلتقط من الأضواء والظلال، أو كما يراه المحلل النفساني في المعمل.. حالة تُدرَسُ لا تجربة شعورية تُعاش وتفرز لها النفس إفرازات شتى وهي تهمسها وتمثلها.. هذه المذاهب تنتج فناً رديئاً مهما يكن فيه من دقة وبراعة وجهد مبذول، لأنها تنقص العنصر الأول من عناصر الفن: وهو حرارة الوجدان.

وقد كانت مثل هذه المذاهب " الواقعية " و " الطبيعية " وغيرها نكسة في عالم الفن متمشية مع النكسة الروحية والنفسية الشاملة التي أصابت أوروبا في القرنين السابقين، بسبب نفرتها المحمومة من كل شيء يخلق في الخيال ويتخذ طابع الانفعال لغير المنظور (فيما وراء الطبيعة) ورغبتها المحمومة كذلك في أن تلمس " الواقع " كما " هو " بغير تزويق أو أضواء أو ظلال!

وهي نكسة.. لأنها تلغي واقع " النفس " كله لتثبت فقط واقع " المادة ". الواقع الذي لا تدخل النفس البشرية في تقديره ولا تقويمه، وإنما تسجله وتقدره " الآلات " العلمية والأدوات، وتحوّل العين البشرية من ثم إلى مجرد آلة علمية للالتقاط والتسجيل، لا لتبدي رأيها أو تدخل بذاتها في عملية الالتقاط والتسجيل!

وهي نكسة كذلك لأنها تلغي قيمة " الإنسان " وتصغره إلى جانب المادة.. متأثرة بالنظرة المادية الحيوانية للإنسان، التي لا تجعل له قيمة أعلى من قيمة المادة، بل بالعكس قيمة أقل، لأن المادة تؤثر في الإنسان تأثيراً " حتمياً " يخضع له أراد أو لم يرد، في حين لا يؤثر هو في المادة إلا برضاها ورغبتها! وحسب قوانينها الذاتية ذات الطابع الحتمي والجبروت!

والفن " الإنساني " ينبغي أن يفيق من هذه النكسة.. ينبغي أن يرد للنفس الإنسانية اعتبارها.. اعتبارها الذاتي بوصفها قيمة كونية كبرى. واعتبارها إزاء المادة بوصفها شيئاً مسخراً للإنسان لا مسخراً له!!

وحين يُردُّ للنفس الإنسانية اعتبارها فإن " القيم " تعود فتتخذ وزنها من خلال النفس، ولا يكون لها واقع إلا واقعها في داخل النفس..

وهذه حقيقة.. حقيقة ينبغي أن تكون مقررة في الأذهان كالحقائق " العلمية " التي يتعدها الناس في هذا الزمان. فليس شيء موجوداً أصلاً - بالنسبة للإنسان - إلا إذا وجد في النفس وانفعلت به وتحركت مستجيبة له.

خذ هذا المنظر " الجميل " .. إنك تقول عنه إنه جميل حين ينفعل به حسك ويتحرك له وجدانك. حين " تحس " أنت بوجوده في داخل نفسك. وإلا فهو غير جميل، أو غير موجود على الإطلاق في عالمك النفسي.

وفي الجانب الآخر، خذ هذه الفكرة التي تملأ مشاعرك وتحرك وجدانك. إنها " واقع " نفسي ضخم بالنسبة إليك، تعيشه وتتفاعل معه وتنفعل به. ويؤثر في شعورك وسلوكك وعملك. ومن ثم فهو هو " الواقع " بالنسبة إليك، ولو لم يبصره أحد غيرك ولم يكن له عند غيرك وجود.

والمسألة - بعد - ليست فوضى! فلن نعود إلى الفلسفة المثالية الجوفاء التي تنكر الوجود الذاتي للعالم المادي المحسوس... وإنما هو مجرد رد الاعتبار للنفس الإنسانية، ورؤية العالم المادي المحسوس - الذي لا شك في وجوده الذاتي - من خلال هذه النفس، لأنه - في الواقع - لا يؤثر في حياة الناس إلا من خلال تأثيرهم النفسي به وتأثرهم الوجداني.. ورد الاعتبار كذلك للوجدان البشري، لأن الواقع أنه لا يحدث تغيير في حياة الناس المادية إلا من خلال الوجود الإنساني الشامل، بما فيه من طاقات، وما فيه من رغبات.

وإذا قررنا قيمة الوجدان البشري في الحياة الإنسانية عامة وفي عالم الفنون خاصة. نعود إلى الحديث عن الوجدانات البشرية المختلفة، والمساحة التي تشغلها في رقعة الفن. إن التناسق في لوحة الحياة البشرية يقتضي أن تكون الوجدانات التي يصورها الفن شاملة لكل العواطف البشرية، في مختلف حالاتها ومجالاتها، لا مقصورة على لون معين من ألوان الوجدان. وذلك هو الذي يليق بالواقعية الحقبة التي ينبغي أن يمارسها الفن في تصويره للحياة (١٢٣).

ولكن الذي يطالع على الإنتاج العالمي في الفن، وخاصة الحديث منه، ويطالع على الأدب العربي المزور الذي يعيش في هذه الأيام بلا هدف ولا غاية ولا قواعد ولا ذاتية مستقلة ولا منهج مرسوم، يرى أن لوناً واحداً من العواطف البشرية هو الغالب على هذه الفنون كلها.. وهو عواطف الجنس.

وما من شك في أن عواطف الجنس أصيلة عميقة في الكيان البشري، وأنها طاقة من أكبر الطاقات الموجهة لمشاعر الناس وسلوكهم.. ولكن.. من يقول إنها الدافع الأوحده المتفرد بالتأثير والتوجيه؟



الجنس - بجميع أحواله وجميع مستوياته - حقيقة عميقة في حياة البشر، بل في كيان الحياة: "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ" (١٢٤).

فالأزواج.. الذكر والأنثى.. ليست حقيقة بشرية فقط، بل هي موجودة أيضاً في عالم الحيوان وعالم النبات. بل يقول العلم الحديث إنها موجودة كذلك في عالم "المادة" في بناء الذرة من بروتون وإلكترون، متقابلين في الحلقة، متجاذبين على الدوام، ليحفظا بناء الخلية "الجامدة" وتوازنها، كما يحفظ الجنسان توازن الحياة في عالم النبات والحيوان والإنسان.

بل يقول العلم أغرب من ذلك وأعجب: إن في ذرة كل عنصر من العناصر نواة ثابتة في مركزها وعدداً من الإلكترونات يدور حولها في حلقات متوالية الأبعاد بالنسبة لمركز النواة، وإن الحلقة الأخيرة من هذه الحلقات تكون دائماً ناقصة. فإذا كانت كل حلقة مكونة من ثمانية إلكترونات مثلاً، فقد تكون الحلقة الأخيرة إلكترونين اثنين أو

(١٢٣) انظر الكلام عن التناسق في الفصل التالي: "الجمال في التصور الإسلامي".

(١٢٤) سورة يس [٣٦].

ثلاثة، وإن أي عنصر لا يتحد كيميائياً إلا مع العنصر الذي يكمل له حلقة الأخيرة الناقصة بحلقته هو الناقصة.. تماماً كما يفعل الأزواج في عالم الأحياء!!

دقة معجزة في الجامد والحي على السواء!

ومع ذلك فالجنس - على كل عمقه في كيان الحياة - ليس هو الحقيقة الوحيدة ولا الحقيقة الغالبة في البناء!

فينبغي أولاً أن نسأل : هل هو وسيلة في كيان الحياة أو غاية؟ وما مساحته الحقيقية في ذلك الكيان؟

كل حقائق الحياة تشير إلى أنه وسيلة لا غاية.

فهو في بناء الذرة وسيلة للتماسك. والتماسك هو الغاية. أو هو بدوره وسيلة لغاية أكبر، هي تكوين الكون كله بما فيه من طاقات وكائنات.

وهو في النبات والحيوان وسيلة لحفظ النوع وحفظ النوع هو الغاية، أو هو بدوره وسيلة لغاية أكبر، وهي تنويع الحياة في الكون، وتحقيق القدرة الخلاقة القادرة.

وهو في الإنسان كذلك وسيلة لحفظ النوع وترقيته، وليس غاية في ذاته.

كل ما في الأمر أن الإنسان وُهب قوة واعية مدركة، تجعله يعيش كل أهدافه ووسائله بوعيه ووجدانه جميعاً، فتتسع مساحته في نفسه وتعمق، وتصبح أكبر من مثيلاتها في عالم الجماد والنبات والحيوان.

ومن ثم يأخذ الجنس مساحة واسعة في النفس الإنسانية لا يأخذها - مثلاً - في عالم الحيوان.

فبينما ينحصر في عالم الحيوان في العملية الجنسية ذاتها، بمقدمات بسيطة، عنيفة في غالب الأحيان وفظة، وينتهي عند الأنثى بالإخصاب والحمل، وعند الذكر بالصيام الكامل عن كل نشاط جنسي حتى يحل الموسم الجديد.. إذا هو في عالم الإنسان مشاعر كثيرة وعواطف، وفنون من الغزل، وألوان من المشاغل.. يدخل فيه شوق الجنس، ومودة الإلف، ورغبة القرب، والتفكير في وسائل الجذب، والإحساس بالجمال.. كما يدخل فيه التفكير في نتائج اللقاء.. التفكير في الأسرة والأبناء والأعباء.. وتنظيم المجتمع الناشئ من هذه العلاقة، تنظيمًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا، ووضع القواعد النظرية والوسائل العلمية لهذا التنظيم.

نعم.. يأخذ مساحة واسعة في النفس البشرية. ولكنه في أية حالة من حالاته لا ينقلب - في النفس السوية - عن وضعه الطبيعي. لا ينقلب من كونه وسيلة إلى أن يكون غاية!

ثم إنه - في النفس السوية - لا يأخذ مساحته الواسعة لأنه يطغى على مساحات أخرى مخصصة لغيره من المشاعر، ولكن لأن النفس الإنسانية هي هكذا واسعة شاملة فسيحة، ومن ثم تتسع لكل المشاعر على نطاق واسع، دون أن يطغى شيء منها على شيء، ودون أن يختل تناسقها الأخير في صفحة النفس.

ثم إنه - مرة أخرى - حين يأخذ مساحة واسعة في النفس - السوية - لا يفسد تكوينها الطبيعي المترابط. لا ينفصل بذاته عن بقية المشاعر. لا يتحدد ولا يتحيز بوصفه جنساً خالصاً لا علاقة له ببقية النفس. فذلك مستحيل في النفس السوية المترابطة، التي يلتقي كل جزء فيها بكل جزء وكل هدف ببقية الأهداف. لا تنفصل الروح عن الجسم عن العقل في باطن النفس، ولا تنفصل الأهداف الاجتماعية عن الأهداف الاقتصادية عن الأهداف الفكرية والروحية والسيكولوجية في واقع الحياة. ومن ثم لا يكون هناك جنس خالص في أية لحظة من لحظات الحياة (١٢٥).

ذلك هو الوضع الحقيقي لمشاعر الجنس.

الوضع الذي لا تفرضه " الأخلاق " ولا يفرضه " الدين ". ولكن تفرضه الحقيقة الواقعة المجردة من كل اعتبار.

و " الواقعية " الصادقة ينبغي أن تعالج الأمر على حقيقته. فهي ليست مأذونة أن تخدع الناس عن الواقع، أو تتخيله كما يترأى لها وتصوره على هواها.

نعم: توجد حقيقة " واقعة " في حياة البشر: إنهم كثيراً ما ينحرفون عن طبيعتهم السوية، فيضخمون جانباً من جوانب وجودهم على حساب بقية العناصر المكونة لهذا الوجود. يضخمون مثلاً جانب الجنس، حتى يبدو كأنه هدف في ذاته، وكأنه الشغل الشاغل والههم المقعد المقيم.

نعم. هذه حقيقة. ولكنها حقيقة منحرفة. والواقعية الصادقة ينبغي أن تصورها. ولكن تصورها على حقيقتها. على أنها انحراف!

ومع ذلك ففي داخل إطار الجنس ذاته - بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى كلها - لا يكون الجنس لوناً واحداً ولا درجة واحدة.

هناك الشهوة العارمة التي تتمثل في الجسد الهائج والجوارح الظائمة، والعيون التي تطل منها الرغبة المجنونة.

(١٢٥) انظر الجزء الأول من كتاب " منهج التربية الإسلامية " فصول " تربية الروح " و " تربية العقل " و " تربية الجسم " .

وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة، التي تعد العدة في ترتيب وأناة، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال.

وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التي تنبع من الجسد، ولكنها تمر في طريقها على القلب، فيصفيها من بعض ما بها من " العكار " ويعطيها قسطاً من " العاطفة " تخرج بصيحة الجسد الملهوف.

وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التي تنبع من القلب، ولكنها قد تمر في طريقها على الجسد، فيعطيه بعض لحيه المحرق، وقد يخلط بها بعض العكار، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء.

وهناك إشراقة الروح الحاملة، قد صفت من العكار كله، وصارت صفاء مطلقاً لا يعرف الجسد، وإشعاعاً لا تعرف القيود. تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذي يُصبّ فيه!

وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ، ولا يقدر عليها التعبير! وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس، تشترك في الأصل، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف " (١٢٦).

فأي مبرر من عالم الواقع، يرر تصوير مشاعر الجنس كلها على أنها هم حيواني مسعور، كذلك الذي يطفح به القصص الحديث في العالم كله، والقصص العربي المسوخ المدخول؟

○ ○ ○

والجنس في نظر الإسلام حقيقة مهمة عميقة أصيلة. وقد مرت بنا الإشارة القرآنية إلى " الأزواج " المكونة لبنية الكون " مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون ". وفي القرآن إشارات أخرى كثيرة تتعلق بحقيقة الجنس :

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً " (١٢٧).

وهذا النص يستحق وقفة عند قوله تعالى : " لتسكنوا إليها " وقوله : " مودة ورحمة " .

(١٢٦) من كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام " .

(١٢٧) سورة الروم [٢١] .

السكن - بكل ما يوحيه من هدوء وسكون وطمأنينة واستقرار وراحة - هو الهدف من خلق " الأزواج " في عالم الإنسان. إنه ليس مشغلة الفكر والبال. ليس التعب والعذاب والقلق والاضطراب. ليس اللهفة الدائمة التي لا ترتوي والظمأ الذي لا يهدأ. ليس التطلع الدائم الذي يستنفد الطاقة ويورث الخبال. وإنما هو السكن.. هو الهدوء والراحة.. هو الاستقرار الذي يمكن الإنسان من تحقيق أهداف حياته، ويقوّي على أداء هذه الأهداف.

والعلاقة بين الجنسين هي المودة والرحمة.. الرحمة الندية والأنس اللطيف الودود.. في هذا الجو الراضي المشرق الذي يكون شقي النفس الواحدة المتوادين المتراحين : " خلق لكم من أنفسكم أزواجاً " .

وفي نص آخر لون من العلاقة مكمل لذاك : " هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ " (١٢٨).

ففي هذه الكلمات القليلة تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن. فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان. وهو الستر الذي يستتر به، وهو في الوقت ذاته مفصل على قده لا ينقص ولا يزيد. والرجل والمرأة ألصق شيء ببعضهما ببعض : يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة. وفي لحظة يذوب كل منهما في الآخر فلا تعرف لهما حدود. وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلباسه.

ثم هما ستر، كل واحد للآخر. فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة. وهما على الدوام ستر روحي ونفسي. فليس أحد ستر لأحد من الزوجين المتآلفين، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنبه الأفواه والعيون. وهما كذلك وقاية تغني كلاهما عن الفاحشة وأعمال السوء، كما يقي الثوب لابس من أذى الهاجرة والزمهرير.

" وهما بعد ذلك كاللباس في تفصيله مضبوطاً على القدر. يلبسه صاحبه فيستريح إليه، ويتحرك نشيطاً في محيطه، ويكتسب به زينة وجمالاً تعجب صاحبها وتعجب الناظرين. فليس أبدع من تصوير هذه المعاني كلها في تشبيه واحد شامل عميق " (١٢٩). وفي نص ثالث جانب آخر من هذه العلاقة : " نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ " (١٣٠).

وهنا يذكر الغاية من التزاوج وهي النسل. ويستعير له من عالم النبات صورة الحرث والإنبات، فهي كلها حياة ذات وشائج قرى بعضها من بعض!

(١٢٨) سورة البقرة [١٨٧] .

(١٢٩) من كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام " .

(١٣٠) سورة البقرة [٢٢٣] .

ومن ذلك تكملة صورة العلاقة بين الزوجين، الذكر والأنثى، في تصور الإسلام.



ولا يغفل الإسلام عما يحدثه التجاذب الفطري بين الجنسين من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك. ولكنه يقيسها بمقياسه الدائم الذي يقيس به كل شيء : فما سار مع الناموس، ناموس الحياة والكون، فهو صالح وهو صواب. وما خالف هذا الناموس فهو خطأ وهو عمل غير صالح.

إنه لا ينكر الجنس، وما يرف حوله من مشاعر وأفكار. لأن منهجه الذي يسير عليه في معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها، نظيفة وفي معرض النور، لا مستقدرة ولا مختلصة في الظلام.

إن الله هو خالق الفطرة، بكل ما تشتمل عليه من ميول ودوافع وطاقات، وقد خلقها لحكمة وغاية، لتؤدي دورها المرسوم لها في بنية الكون ونظامه، لا لتكبت ويقطع عليها الطريق.

ولكن الله في الوقت ذاته يطلب من هذه الفطرة أن ترتفع وتتهذب، لأن هدف الوجود كله - كما يعبر عنه الإسلام وكما تقرره كل حقائق الوجود - ليس مجرد استمرار الحياة، ولكن رفعها وتجميلها، والوصول بها إلى مرتبة الجمال والكمال.

ذلك ناموس الكون الأكبر. وهو كذلك الناموس الذي يقيس به الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان.

فكل شعور صاعد، وعمل صاعد، وفكرة صاعدة... فهي سائرة مع الإسلام في طريقه.

وكل شعور هابط، وعمل هابط، وفكرة هابطة.. فهي منحرفة ضالة عن الطريق.

ومشاعر الجنس ككل شيء آخر في الناموس الكبير.

فكل ما يؤدي منها إلى الصعود والرفعة. كل ما يؤدي إلى القوة والتماسك. كل ما يؤدي إلى التوازن. كل ما يؤدي إلى جمال المشاعر وصفاء النفوس وطلاقة الأرواح.. فهو جميل، ومباح، ومطلوب.

وكل ما يؤدي إلى الهبوط والنكسة إلى عالم الحيوان، والضعف والانحلال والتفكك، والانحراف الذي يُفقد التوازن، وغلظ المشاعر وعرامة الشهوة التي تخنق طلاقة الروح.. فهو قبيح، ومنكر، وحرام.

وليس ذلك حكماً "خلقياً" بالمعنى الضيق المحدود المتعارف عليه في حدود الأرض وما عليها من الناس. فالأخلاق في الإسلام لا تنحصر في هذه الحدود. وإنما هي أوسع من ذلك جداً وأعمق في بنية الكون. إنها جزء من الناموس الكبير الذي يحكم الكون والحياة، وليست شيئاً منفصلاً عنه، ولا مفصلاً على قد الإنسان وحده. فالإنسان ذاته جزء من بنية الكون، يسير معه على ناموسه الشامل المحيط.

ليست الأخلاق صناعة "محلية" في الأرض، تحدد الأرض قيمها ومواصفاتها. ولا صناعة "بشرية" تتقلب مقاييسها بتقلب أهواء البشر وأحوالهم وتطور أفكارهم. وإنما هي صناعة كونية فطرها فاطر الكون والحياة والإنسان. وهي تلتقي مع الكون في فطرته الشاملة: فطرة التناسق والتوازن والجمال (١٣١).

ومشاعر الجنس - ككل شيء في حياة الإنسان - تحكمها الأخلاق الإسلامية بهذا المفهوم الشامل، المستمد من ناموس الوجود.

فالإسلام لا يسير على نهج خاص في المسائل الجنسية، وعلى نهج غيره في بقية الأمور. وإنما يسير في المسائل كلها على أساس نظريته الموحدة المتمشية مع الناموس الأكبر.

"إن الله كتب الإحسان على كل شيء.. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته" (١٣٢)!

والإحسان المقصود هنا هو جعل الشيء حسناً... أي الجمال... جمال الأداء وجمال الإحسان وجمال التفكير.. الجمال في كل شيء، حتى في ذبح الذبيحة وقتل القاتل (١٣٣).

والإحسان في أمور الجنس ليس إلا واحداً من نواحي الإحسان الكثيرة التي يطلبها الإسلام في القول والفعل والشعور.

وهو حين يشترط النظافة في أمور الجنس، فكما يشترطها في التعامل المالي، والتعامل الاجتماعي، والتعامل السياسي، والتعامل الدولي، وتعامل الإنسان مع ربه وتعامله مع نفسه:

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ،

(١٣١) انظر الفصل التالي "الجمال في التصور الإسلامي".

(١٣٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(١٣٣) اقرأ فصل "وليرح ذبيحته" في كتاب "قبسات من الرسول".

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (١٣٤).

قاعدة واحدة، تشمل كل شؤون الحياة. النظافة في الفكر والعمل والشعور. نظافة في الصلاة ونظافة في اللسان. ونظافة في المال. ونظافة في الجنس. ونظافة في التعامل مع الناس في رعاية الأمانة وحفظ العهد.. وما نظافة الجنس إلا واحدة من صنوف النظافة التي يجب أن يعيش في جوها المسلم المؤمن الذي يتعامل في حسه مع الله.



وليس مؤدى ذلك كله تحريم مشاعر الجنس. فهي ليست قدرة في ذاتها حتى تستعبد في مجال النظافات، وقد مرت بنا الشواهد الكثيرة من الآيات والأحاديث عن نظافة الجنس في حس الإسلام.

وليس مؤداه كذلك ألا يتحدث الإنسان عن الجنس أو يحس به إلا في داخل علاقة الزواج. فالناس لا يولدون متزوجين. وإنما تسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له الطريق.

وهذه "العواطف" ليست حراماً في نظر الإسلام.

عواطف الإعجاب والحب، وما يصحبها من أفكار وأعمال وسلوك.

وإنما الحكم عليها هو الحكم على كل عمل آخر وكل شعور.. الحكم المستمد من الناموس:

هل تؤدي الدور الذي يتفق مع فطرة الكون؟ أم تنحرف عن الطريق؟

فأما إن كانت هذه العواطف - وهي فطرية في صميم الخلقة - تهدف إلى تحقيق هدف الحياة، تهدف إلى ارتباط شقي الإنسانية في علاقة نظيفة مثمرة منتجة؛ تهدف إلى تقوية كيان كل من الشقين ودفعه في طريق الصعود.. فهي طبيعية، متمشية مع الناموس. والحديث عنها ووصفها وإبرازها في صورة فنية جميلة موحية، جزء من مهمة الفن الإسلامي الأصيل.

وأما إن كانت عبثاً.. لا يسعى إلى غايته الطبيعية، بل يجعل من نفسه غاية مستقلة منفصلة عن كيان الحياة.. فهي ليست جزءاً من مهمة الفن، لأنها ليست جزءاً من ناموس الحياة.

(١٣٤) سورة المؤمنون [١ - ١١] .

وناموس الحياة في مسائل الجنس أنه ليس " ضرورة بيولوجية " تقضي على أي وضع، حتى في عالم النبات والحيوان!

وإلا ففيم كان الجمال؟

" الجمال " فطرة " الطبيعة ". فطرة الحياة اتلي خلقها الله.

والحياة لا تكتفي بقضاء الضرورة، ولكنها تهدف دائماً إلى الإحسان في الأداء.

أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان؟

أتظن أن ذلك " ضرورة "؟

قالوا : لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس! وتساعد كذلك في تلقيح النبات!

فهل تظن ذلك؟ هل من " الضرورة " بالقياس إلى النحل أن يكون في الزهرة كل هذا الجمال؟

كلا والله! فالنحل خلّق متواضع، وإنه ليحط على الزهرة الأرجية الفاتنة كما يحط على الزهرة العادية الجمال.

فليس جمال الزهرة إذن ضرورة! وكل الأهداف " البيولوجية " يمكن أن تتم في أبسط زهرة كما تتم في أحمل الأزهار.

ورأيت هذه الطبيعة؟

رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصباح الوليد؟

رأيت روعة الجمال التي تبهر الأنفاس وتهز الوجدان؟

والبحر الممتد إلى غير نهاية متسرب الموج، تراه في الليل الساكن كأنما تعمده الأطياف.. أو الأشباح؟

والليلة القمراء.. هل ذقتها؟ وذقت طعم السحر في ضوئها، وظلها، وأطيافها السارية وحديثها المهموس؟

هل تظن ذلك ضرورة؟

وأيّن هي الضرورة في ذلك كله، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال؟

ورأيت هذا الوجه...؟

هاتان العينان الحاملتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار.. تلك التقاطيع المنسقة.. هذا المعنى المعبر.. تلك " الروح " التي تطل من وراء القسمات؟

تظن ذلك ضرورة؟ وما الضرورة؟

أليست كل العمليات " البيولوجية " من طعام وشراب وتنفس تتم في أفبح وجه وأجمل وجه على السواء؟

بل.. نداء الجنس ذاته. أليس يتحقق في كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال؟

كلا. إنه ليس " ضرورة " وإنما هو " جمال ".

هو إحسان في الأداء لا مجرد الأداء؟ (١٣٥).

ومن ثم لا يقبل الإسلام تلك الفكرة المنحرفة التي تقوم عليها " الواقعية " الغربية الحديثة، فكرة أن الجنس عملية بيولوجية خالصة، وهدف يتحقق في ذاته بصرف النظر عن أية علاقة وأي ارتباط.

تلك فكرة قائمة على أساس حيوانية الإنسان وماديته.

أما فكرة الإسلام، فهي أصل في فطرة الكون وأعمق في فطرة الحياة.



والفن الإسلامي يستطيع أن يتحدث عن المشاعر التي تربط بين الجنسين في هذه الحدود النظيفة.

وتلك قصة موسى مع ابنة الشيخ الصالح مثل لذلك الحديث :

" وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْحِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ... " (١٣٦).

فهنا عرض لعواطف أنثى نظيفة تجاه رجل. عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته.. ثم أمانته المتمثلة في محافظته عليها وعلى عرضها وهي معه - وحدهما - في الطريق إلى الدار. والفتاة تعبر عن هذه العواطف - على طريقة الأنثى الحبيبة الخجول - ويفهم أبوها عنها. ويقرها ويزوجها للرجل الذي أعجبت به وعبرت - بطريقتها - عما

(١٣٥) من كتاب " قبسات من الرسول " فصل " وليرح ذبيحته " .

(١٣٦) سورة القصص [٢٣ - ٢٧] .

أحست نحوه من إعجاب. ثم يجيء القرآن فيقر هذه العواطف وهذا السلوك، فيروية رواية تقرير وصراحة وإثبات.

وعلى هذا النسق يستطيع الفن الإسلامي أن يتحدث عن كل علاقة حب نظيفة، لا تنحرف ولا تسف، وعن أثرها في نفس صاحبها، وما تدفع كل واحد منهما إلى إبراز أجمل ما عنده من مشاعر وأعمال، وما تقوي من عزيمة كليهما وتعينه على تحديد هدفه في الحياة. وما تربطه بالله.

كما يتحدث - في مجال الفن الواسع - عن تقلبات تلك العاطفة بين الشد والجذب، والإقبال والفتور، والهدوء والجيشان.. ما دام ذلك كله في حدوده النظيفة الجميلة المضئئة المشرقة.. الجارية على ناموس الحياة.



ولكنه يستطيع كذلك أن يتحدث عن مجالات الجني الهابطة المنحرفة عن السبيل. فـ " الواقعية " تقتضي عرض الأبيض والأسود من باطن النفس وواقع الحياة. وتلك قصة يوسف :

" وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ، وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ، قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (١٣٧).

قصة كاملة من قصص الهبوط الجنسي. ودفعة من دفعات العرامة الحسية التي تنسى في ساعة الشهوة الغليظة كل اعتبار.

وصراحة في الوصف والتعبير: وراودته التي هو في بيتها عن نفسه.. وغلقت الأبواب.. وقالت هيت لك.. ولقد همت به.. قال هي راودتني عن نفسي.. وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه.. قد شغفها حباً.. فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن.. ولقد راودته عن نفسه. ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن.. وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن..

ما بقي شيء من الصورة لم يرسم في الخيال من خلال الألفاظ.

ومع ذلك.

فكيف تجد طعم " الجنس " في هذه القصة التي تتحدث عن هبوط الجنس؟

هل تجد فيها ذلك العرض الذي يهدف إلى إثارة التلذذ بالجنس والإعجاب بلحظة الهبوط والمتعة بالمشاعر المنحرفة والفطرة الموكوسة؟

أم تحس - مع جمال العرض ودقته وأمانته وصراحته - بالنفور من تلك الفطرة المنحرفة والتقزز من ذلك الهبوط؟

ذلك طريق التعبير عن مشاعر الجنس المنحرفة حين يراد التعبير عنها بطريقة الإسلام.

أمانة في الوصف، بلا إثارة جنسية ولا تلذذ ولا إفساد.

○ ○ ○

وذلك في محيط الجنس المتخصص..

ولكن كم يشمل الجنس من مساحة الوجدان ومساحة الحياة؟

كم قدره في حقيقة الواقع، لنقيس مساحته في رقعة الفنون؟

هل يعيش الإنسان حياته في عالم الجنس وحده، لا تصطرع في نفسه الدوافع، ولا

تتداخل الانفعالات، ولا تتعدد الهموم؟

(١٣٧) سورة يوسف [٢٢ - ٣٤] .

حتى الفارغون التافهون الذين فرغت حياتهم من الاهتمامات الجادة والأهداف الكبيرة.. حتى هؤلاء لا يقضون حياتهم في مشاعر الجنس وحده، وإنما تشتجر في نفوسهم رغبات شتى - تافهة نعم، ولكنها أوسع من عالم الجنس على أي حال!

والإنسان السوي لا يستطيع أن يعيش الحياة بعنصر واحد من نفسه - أيًا تكن ضخامته في حسه - ويغفل عناصر وجوده الأخرى، التي لا بد أن تحقق وجودها في مشاعر نفسه وواقع حياته ما دام يعيش.

فطاقة " الحب " وحدها في النفس - وهي إحدى طاقاتها فحسب - ميدان واسع شامل يفيض بأحاسيس شتى، كلها معجب، وكلها مؤثر، وكلها جميل.

الحب هو بنية النفس الحية السوية التي تعيش متجاوبة مع حقيقة الوجود.

ولكنه حب شامل.. يشمل كل الوجود.

يشمل علاقة الإنسان بربه. وعلاقته بالكون والحياة.. وعلاقته بكل البشرية..

والحب الإلهي وحده - وهو أحد ألوان الحب - يمكن أن يستوعب فناً قائماً بذاته، متكاملًا مستوفياً كل عناصر الفن، باقياً في صفحة الحياة ما شاء الله له البقاء..

هذا الحب، بما يفيض على النفس من أنوار شفافة رائقة، وبما يوسع من آفاقها حتى تشمل الوجود كله، وبما يرفع من كيانها حتى تصبح وكأنها نور خالص مشرق متألئ، لا تدخله عتامة الجسد ولا ثقله الطين.. إنه عجيبة من عجائب الأحاسيس البشرية.. وإنه لفي القمة من هذه الأحاسيس.

ومضة واحدة من هذا النور الإلهي تشرق على قلب البشر.. ومضة واحدة في لحظة خاطفة.. تفعل في النفس ما لا تفعله أجيال من التجارب والأحاسيس و " الثقافات " والاطلاعات التي توسع مدارك النفس وتعمق صلاحها بالكون والحياة.

ومضت خاطفة كومضة البرق.. تضيء صفحة الكون كله في باطن النفس.. وتصل الإنسان بكل عمقه واتساعه وشموله، الذي لا يعيه في أحواله العادية ولا يدرك حقيقة مداه.. تصله بالحقيقة الكبرى الخالدة، صلة تصل إلى أعماقه، وتنفذ إلى أبعد ذرات وجوده، وتمتدج بكل وشيجة حية في النفس، فإذا هي والنفس شيء واحد ممتزج الكيان..

هذه الومضة.. هذه الارتعاشة الوجدانية الواصلة.. هذه الصلة العميقة بحقيقة الوجود.. هذه الانتفاضة المشرقة التي تشع من خلال الطين المعتم فيتألاً وينير.. هذه الإشرقة الرائقة التي تضيء للإنسان طريقه بين الأشواق، أشواك الشر والباطل والظلام.. أو ليست تعبيراً من تعبيرات الحب التي يمارسها الإنسان السوي، ولو مرة واحدة في حياته المليئة بشتى المشاعر والانفعالات؟

أو ليست فناً من أروع الفنون. لأنها لحظة من أروع اللحظات؟

لقد امتلأت نفوس المتصوفة بهذه المشاعر الجميلة الرائقة الشفافة الواصلة.. وهي في صميمها ذخيرة للفن وذخيرة للحياة.. وإن كان قد فات كثيراً من المتصوفة قدرة الأداء الفني عن هذه المشاعر العالية، لأن الطبائع الفنية لم تتوفر فيهم على المستوى المطلوب للتعبير عن هذا الفن الكبير. ولكنه فن قائم في انتظار الطبائع الموهوبة، التي تطيق الصعود إلى هذا المرتقى السامق، وتجيد التعبير عنه في عالم الفنون.

وحب الكون. المتمثل في " الطبيعة " بجبالها وأهوارها ووديانها، وأرضها وسماواتها، ونجومها وكواكبها أليس لوناً من ألوان الحب يخطر في نفس الإنسان السوي ويمثل جزءاً من " واقعه " الحي الذي يعيشه في الحياة؟

وحب الكائنات الحية.. الحب الذي يجد نشوته في التطلع إلى النبتة الصغيرة تشق طريقها من الطين، والورقة النابتة من البرعم، والزهرة النابتة من الكم، والثمرة اليانعة.. والتطلع إلى الحيوان الوليد يتبع أمه وأمه تدلله وتحنو عليه، والحيوان الرشيق يجري مختلاً مزهواً برشايقته، والحيوان القوي الكاسر الجسور.. والتطلع إلى الطير صافات ويقبضن، بما لها من ألوان زاهية وحركات رشيقة.. أليس لوناً من ألوان الحب يخطر في النفس ويشغل شيئاً من فراغها؟

وحب البشرية.. الحب الذي لا يتجه إلى صديق معين ولا صاحب ولا منفعة.. وإنما يشمل الناس جميعاً بمودة لطيفة، تحب لهم الخير، وتحس نحوهم بوشائج القرى والأخوة الودود.. أليس لوناً بل ألواناً من الحب، تفيض بها النفس السوية أحياناً على الأقل، ولا نقول كل الأحيان ولا غالب الأحيان؟

أليس هذا الحب كله جديراً بالتسجيل الفني، وهو واقع له وزنه في الحياة، بل واقع يستحق التسجيل والإشادة، لأنه هو الذي يبني الإنسانية على أصولها الصحيحة، ويعينها على تحقيق كيائها الأسمى المذخور في فطرتها؟

هل الحب الجنسي وحده - وهو واحد فقط من ألوان الحب - هو الحقيقة الوحيدة في عالم النفس، والحقيقة الوحيدة الجديرة بالتسجيل؟!

من يقول ذلك إلا التافهون الفارغون، الذين لا تتسع نفوسهم لغير مشاعر الحيوان.. وحتى هؤلاء لا تنحصر حياتهم في مشاعر الجنس؟!

إنه مسخ مشوه هذا الأدب الجنسي الذي تمارسه الفنون الأوربية، والأدب العربي المزور الذي يعيش في هذه الأيام بلا هدف ولا غاية ولا طريق مرسوم!

لقد كان الأدب الإغريقي يفسح مجالاً واسعاً لمشاعر الجنس.. وذلك جانب من جوانب اختلالاته الكثيرة - رغم روعته الفائقة وعلو مكانه في المقاييس الفنية - وكانت

أوروبا وريثة التراث الإغريقي تحافظ على سعة هذا المجال الجنسي في فنونها. ولكنها مع ذلك كانت "معقولة"، موزونة إلى حد.. حتى ظهر فرويد، يطبق في عالم النفس النظرة المادية الحيوانية للإنسان، ويفسر السلوك البشري كله من خلال الجنس. وعندئذ انطلقت الحيوانات المسعورة تلتطخ صفحة الفن بحركات السعار الجنسي المنهومة الطائشة، وتعري الإنسان من كل "ملابسه" الحسية والمعنوية، لترسمه في لحظة الجنس وحدها، وترسمه عريان.

ثم يجيء الأدباء المزورون في الإنتاج العربي، فيقلدون هذا السفه الفتي الملوّث، وبملاؤن إنتاجهم بالسعار المحموم الذي يستعفف عنه الحيوان!

وهل الحب وحده - بمجالاته الصاعدة والهابطة - هو الوجدان الوحيد الذي تجيش به النفس الإنسانية؟

ألا تجيش فيها مشاعر الكره.. ومشاعر الصراع؟

الكره طاقة بشرية مساوية وموازية للحب في الفطرة (١٣٨)، ولها مجالات واسعة في النفس والحياة.

والكره - كالحب - يصعد ويهبط. ويكون خيراً مرة وشريراً مرة، بحسب ما يتوجه إليه.

فالكره الذي يتوجه به الإنسان نحو الفساد في الأرض، نحو الشر المنبث في الأحياء، نحو الظلم والطغيان والانحراف، هو كره نبيل كالحب النبيل، وواسع شامل يشمل كل أمور الحياة.

والكره الذي يتحول في نفس صاحبه إلى كراهية الخير للناس، والحقد عليهم، وكراهية كل شيء جميل، وكراهية الاستقامة والنظافة والصعود والترفع.. هو كره هابط منحرف شائه مريض.

والحياة تعرف في واقعها ألواناً من هذا الكره ومن ذاك. وأياً تكن نسبة أحدهما الغالبة، فالكره وجدان له وزنه وثقله في واقع النفوس وواقع الحياة. والتعبير الواقعي الصادق عن الحياة لا بد أن يفسح مجالاً لتصوير مشاعر الكره، واشتباكاتهما في النفوس، وتأثيرها في أعمال الناس وسلوكهم ومشاعرهم، وإلا فهو تعبير ناقص مبتور.

(١٣٨) انظر فصل "خطوط متقابلة في النفس البشرية" في الجزء الأول من كتاب "منهج التربية الإسلامية".

والصراع...

إن الصراع يكاد يشمل كل الحياة البشرية!

يصارع الإنسان في داخل نفسه ونواذعه ودوافعه المتداخلة المتعارضة التي لا يمكن الاستجابة لها كلها في وقت واحد، إلا أن تُضبط وتنظم، وتحدد "أولويتها" في المرور! ويصارع غيره في الحياة.. يصارع الناس والأشياء.. والتنظيمات والنظم.. والقيم والقوى والتيارات!

ولا يمكن أن تخلو حياته لحظة واحدة من الصراع!

والصراع - كالحب والكره - يهبط ويصعد، ويكون في سبيل الخير كما يكون في سبيل الشر.

الصراع الخير يقاوم في داخل النفس رغباتها المنحرفة، وميلها إلى الشر، وسعيها إلى الفساد. والنفس لا بد لها من توجيه دائم وتقويم، وإلا فإنها إن تركت وشأنها هبطت بها ثقله الطين، وانفصلت عن إشرقة الروح.. "إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ" (١٣٩) بالجانب الأدنى من فطرتها، ما لم يتدخل الجانب الأرفع من هذه الفطرة ليردها عن ذلك السوء ويأمرها في طريق الخير.

ويقاوم في المجتمع مختلف أنواع الشرور.

يقاوم الظلم بجميع أنواعه وألوانه، الظلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي والظلم السياسي يقاوم تفريق الناس إلى سادة وعبيد.. سادة يملكون كل شيء وعبيد لا يملكون إلا الذل والهوان والحرمان.

ويقاوم القيم الفاسدة التي تستعبد الناس وتغلهم عن تحقيق كيانهم الإنساني الصحيح. يقاوم العبودية للمال أو الجاه أو السلطان.. أو الشهوات. فكلها عبوديات يرسف الإنسان في أغلالها فلا ينطلق إلى آفاقه العليا الجديرة بكيان الإنسان.

ويقاوم التصورات الفاسدة التي تقلب نظرة الإنسان لنفسه ونظرته للحياة والكون ونظرته إلى الله..

تقلب نظرته إلى نفسه فلا يراها في محيطها الشامل ولا يقدر طاقاتها حق قدرها، فينحصر بها في نطاق ضيق، ويرز بعض جوانبها ليحجب بها البعض الآخر، ويغفل عن تكاملها وشمولها وارتباطها ببعضها ببعض.

(١٣٩) سورة يوسف [٥٣].

وتقلب نظرتة للحياة والكون فلا يتوجه لهما بالحب، أو لا يحس لهما وجوداً على الإطلاق، فتتصرف نفسه في حدود وجوده الضيق المغلق عن الأحياء، ويورثه ذلك - فوق ضيق الأفق - أنانية مريضة متعفنة يشمئز منها الكيان السليم.

ويقلب نظرتة إلى الله، فلا يحس نحوه بالحب، ولا يتوجه له بالعبودية الحبة الخاشعة المتطلعة، المطمئنة إلى قدره، المسلمة كيافها له، المستمدة من هذا التسليم قوة وإيجابية في واقع الحياة. ولا تدرك " الحق " المتمثل في الله سبحانه وفي كل ما خلق من الأشياء، والمتمثل في وجود الناس في الحياة الدنيا ووجودهم في الآخرة في دار الجزاء..

والصراع الشرير يتوجه إلى العكس.

يكبت في داخل النفس نوازع الخير الفطرية ويسكت صيحة الضمير.

ويقاوم في المجتمع كل نزعة إلى الخير.

يقاوم الحق والعدل الأزلين. ويحارب الله ورسوله ويسعى بالفساد في الأرض.

ويؤيد الباطل ويمكّن له.

يؤيد الظلم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. يؤيد تفريق الناس إلى سادة وعبيد.

ويؤيد القيم الفاسدة ويفسح لها المجال.

وينشئ التصورات الفاسدة وينشرها بين الناس.

ويشيع الفاحشة ويدعو لها ويحببها للراغبين.

ويفسد علاقة الناس بالله والكون والحياة.

وهذا الصراع في اتجاهاته هذه وتلك واقع من أكبر الوقائع في الحياة البشرية.

ولحكمة عليا أوجده الله في الأرض : " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (١٤٠).

فلولا الشر الموجود في الأرض، ومصارعة الخير له، لركد الخير وأسن وتعفن، أو ترهل وضعف ولم تعد له إيجابية حقيقية في الحياة وهذا الدفع الذي يدفع الله به الناس بعضهم ببعض، هو الذي يحبي الخير ويقويه وينشطه ويدفعه إلى العمل الإيجابي المنتج، فلا تفسد الأرض.

وإدراك هذه الحكمة العليا قمين بأن يفتح بصيرة الإنسان على مساحة واسعة من الحياة والكون، ويجعلها تدرك ارتباطات أكبر وأعمق وأشمل من جزئيات الحياة الصغيرة المتناثرة، التي قد تسجلها " العين الآلية " التي تستخدمها بعض الفنون الواقعية والطبيعية

(١٤٠) سورة البقرة [٢٥١] .

مكتفية بما عن جمال تلك الارتباطات وتناسقها وتوازنها، وحكمتها البعيدة العميقة التي تمنح الحياة حركة وجمالاً وتكاملاً، تفقدها ولا شك الصورة الجزئية المفرقة، مهما كان فيها من جمال العرض أو دقة التصوير أو براعة الأداء.

وهذا الصراع كله بجميع ألوانه، سواء في باطن النفس أو واقع المجتمع، أو واقع الحياة كلها بما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد.. مجال واسع للتعبير الفني، ذو مساحة واسعة تتضاءل بجانبها الفنون الجنسية كلها وتزوي في ركن من الصورة صغير! وقد اتجهت بعض المذاهب الحديثة في الفن إلى هذا الصراع فتخصصت فيه وحده.. بل قصرته على جانب واحد منه هو الصراع الطبقي أو الصراع الاقتصادي على أي حال.

وذلك اختلال في الصورة من جانب آخر.

فليس معنى اهتمامنا بتصوير حقيقة الصراع أن نلغي بجانبها ما يعتمل في النفس من وجدانات أخرى أهمها وجدان الحب الواسع الشامل العميق، وهذا فضلاً عن حصر مجال الصراع في هذا النطاق الضيق الذي يخنق الأنفاس! كله اختلال!

لماذا لا تصور حقيقة الواقع إن كنا نريد أن نكون واقعيين؟

لقد كان التفسير المادي للتاريخ محنة الفكر الأوربي في العصر الحديث!

وقد ظل هذا التفسير يهبط بالحياة الإنسانية ويضيّق مجالاتها حتى حصرها في نطاق الاقتصاد والمادة، ثم حصرها في الصراع الطبقي، ثم حصرها في " الحتمية " الاقتصادية التي تلغي وجود الإنسان!

وكانت النتيجة أن الفنون التي التزمت بهذا التفسير، أصبحت خالية من الوجود الحقيقي للإنسان!

لا عواطفه ولا انفعالاته ولا اهتماماته ولا سباحات روحه ولا تأملات فكره ولا حتى نوازع جسده وأشواقه لها حساب في ذلك الفن.. فيما عدا الصراع الطبقي الاقتصادي الدائر في دائرة حتمية " مستقلة عن إرادة الإنسان "!

عالم كرهه يتقزز منه الكيان السليم للإنسان.

وما بنا من اعتراض على تصوير الصراع الاقتصادي والصراع الطبقي. فهو حقيقة من حقائق البشرية في هذا الجيل أو في أي جيل.. ولكننا نقول فيها شبيهاً بما قلنا من قبل عن فنون الجنس.

نقول فيه إنه ينبغي أن يأخذ مكانه الحق ولا زيادة.. ولا يطغى على الصورة فيلوها بلونه المحدود.

ونقول فيه إنه ينبغي أن يؤخذ على مستوى " الإنسان " لا على مستوى الحيوان ولا مستوى الآلات!

وحين يلتزم هذه الشروط يصبح فناً " إنسانياً " جميلاً خليقاً بأن يأخذ مكانه الحق في لوحة الفنون.



والفن الإسلامي المنبثق من تصور الإسلام الواسع الشامل للكون والحياة والإنسان، يفسح المجال للوجدانات البشرية كلها من محبة وكرهية وصراع. ويفسح المجال لمشاعر الجنس، وصور الصراع الاقتصادي والاجتماعي، ولكنه يضعهما في موضعهما من الصورة، ليرسم في بقية اللوحة مشاعر الحب الكبرى ومجالات الصراع الأكبر. فيكون أكثر واقعية من تلك الفنون الواقعية الصغيرة المحدودة، ويكون أصدق تعبيراً عن حقيقة الحياة العميقة الشاملة، وأجمل تصويراً للحياة من سائر الفنون.

الجمال في التصور الإسلامي

الجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود.. إن لم تكن أبرز سماته.
والحس البصير المتفتح يدرك الجمال من أول وهلة وعند أول لقاء..
كيف يدركه؟ كيف يحس به ويقدره؟
هل ثمت "جهاز" في دخل النفس، يحسب المقاييس والأبعاد، والأضواء والظلال،
والخطوط والألوان... ثم يخرج من حسبته بأن هذا جميل وذاك خاوي من الجمال؟
لا شك أن هناك حاسة في باطن النفس تظن للجمال وتحسه وتستجيب له.
ولكنها لا تحسب ولا تقدر. وإنما تدركه بداهة بغير تفكير.. على طريقة الروح في
الإدراك لا على طريقة الذهن ذي الأبعاد والمقاييس.
وقد يتدخل الذهن في "تقويم" الجمال، ووضع شروط له ومقاييس. ولكنه ليس
هو الذي يقدر في الحقيقة. فهو حين يقوم بوضع الشروط والمقاييس يستمدّها في الحقيقة
من البداهة الطليقة التي تدرك الجمال لأول وهلة ودون تفكير.
وتلك من عجائب الله المعجزة في خلقة هذا الكائن البشري.. أن يهب له هذه
الموهبة الفذة؛ التي تتجاوب مع روح الكون العميقة تجاوباً مباشراً، كما تحقق العين
للضوء، وتحقق الأذن للأصوات!
لحظة.. مجرد لحظة.. فإذا الجمال منطبع في الحس، وإذا النفس تتحرك لاستقباله في فرح
وسرور. وكأن روح الإنسان وروح الكون شقيقان متعارفان، حيثما تلاقيا هش كل
منهما للآخر، والتقيا في عناق طويل!
"فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (١٤١).

وإذا كانت البديهة هي الموكلة بالجمال - لا الذهن - فمن العسير أن توضع له
القواعد الحاسمة وترسم له الحدود القاطعة، كالقضايا الذهنية أو الفلسفية الخالصة. وحين
يتعرض الذهن للجمال، فهو - كما قلنا - يستمد مقاييسه من البداهة، فلا تجيء هذه
المقاييس ذهنية خالصة، ولا تجيء قاطعة حاسمة كالحقائق الرياضية؛ ومع ذلك فمن
الممكن - في العموميات على الأقل - أن نصدر أحكاماً شاملة ونضع قواعد عامة، تيسر
لنا الحكم في قضايا الجمال، وإن كانت لا تكفي - وحدها - للحكم على كل حالة
مفردة، حيث لا بد من استخدام البداهة التي تتذوق الجمال!

(١٤١) سورة المؤمنون [١٤].

وعلى أي حال فما دمنا " نتحدث " عن الجمال، ونَصِفُه - وهو أمر غير الإحساس المباشر به - فلا مناص لنا من استخدام لغة الذهن وبعض مقاييسه، لكي " نتفاهم " على أوصاف هذا الجمال.

○ ○ ○

وأول ما يلفت الحس في الجمال أنه ليس " ضرورة " .. وإنما هو عنصر زائد عن الضرورة.

والكون الواسع الذي لا يدرك الحس البشري أوله وآخره، مهما أتيح له من وسائل الرؤية ووسائل النفاذ إلى الأبعاد.. الكون الذي تبعد بعض نجومه عنا بملايين السنين الضوئية.. أي ملايين الملايين من الأميال.. وهو مع ذلك " معنا " في وجود واحد!.. الكون الذي يشمل من العجائب والموافقات ما لا يحلم به خيال بشر ولو رصد خياله لتصور العجائب والموافقات..

هذا الكون لا يعلم سره سوى خالقه. لم خلق؟ كيف خلق؟ متى خلق؟ كم يظل قائماً؟ كيف يصير حاله غداً بعد آماذ متطاولة من الزمان؟

لا يعلم البشر شيئاً من ذلك وإن عرفوا - فيما تكشف لهم العلوم عنه - بعض أسرار تركيب الكون وبعض أسرار طاقاته.

ولكن شيئاً ما، في بنية هذا الكون، يلفت الحس حين يتوجه إليه مستطلعاً متفتحاً لما وراء المواد والأشكال : أنه طليق من الضرورة.

فما الضرورة في خلق هذا الكون الواسع العريض؟!

" إِنَّ اللَّهَ لَعَنِيَّ عَنِ الْعَالَمِينَ " (١٤٢) وليس في " حاجة " إلى هذا الخلق كله من جوامد وأحياء.

إنما الكون صادر عن إرادة الله الحرة الطليقة التي لا تخضع للحاجة ولا الضرورة ولا القيود.

وهو خاضع لناموس ينظم حركته ودورانه، وينسق عناصره وطاقاته. ولكن ذلك الناموس " نظام " وليس " ضرورة "!!.. وإلا فليس هو النظام الوحيد الذي كان يمكن أن يكون عليه الكون. وثمت موافقات " رياضية " شتى ؛ ملايين الملايين من الموافقات ؛ كان يمكن أن تكون نظاماً لهذا الكون لو أرادها الله الخالق المبدع المريد، الفعال لما يريد. فهو قد خلقه من غير ضرورة قاهرة.

(١٤٢) سورة العنكبوت [٦] .

وأعطاه نظامه من غير ضرورة مقيدة لحرية سبحانه.

وهذا " النظام " الذي ليس " ضرورة " عنصر ولا شك من عناصر الجمال في الكون، إن لم يكن هو ذاته الجمال.

والإنسان خليفة الله في الأرض.. الخليفة الذي كرمه الله وفضله، ووعّاه وعلمه، وزوه بمختلف الطاقات.

وهو بهذه الخلافة وهذا التكريم، أجدر مخلوقات الله أن يدرك الجمال في حقيقته الجوهرية التي خلقه بها الله.

وقد لا يدرك الإنسان بذهنه كل أسرار الكون، ولا يصل إلى حقيقة جوهره لو أخذ يدرسه من الظاهر، ويتابع حركته الظاهرة للحس. ولكنه حين تتصل روحه بالله، قمين بأن يصل.. وهو الذرة الفانية الزائلة.. إلى حقيقة الوجود كله.. حقيقة الأزل والأبد التي ليست لها نهاية ولا بدء، ولا زمان ولا مكان.. ذلك حين يرى الله.

والله يدعو خلقه أن يبحثوا عنه في صفحة الكون الواسع.. وأن يتوصل به ويجدوه..

" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " (١٤٣).

○ ○ ○

وأول ما يلفت الحس في الجمال كما أسلفنا أنه " نظام " ولكنه ليس " ضرورة ".

ولهذا النظام - كما يبدو في صفحة الكون - مظاهر متعددة، منها الدقة. والتناسق. والتوازن. والترابط. وخفة الحركة رغم ثقله الأوزان.

الدقة العجيبة المذهلة التي لا تختل قيد شعرة في هذا الفضاء العريض.. الدقة المضبوطة لا باليوم ولا بالساعة، ولا بالدقيقة، ولا بالثانية، ولا بالثالثة.. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع! الذي ينطلق بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية!

فهذا الكون الذي يشتمل على بلايين البلايين من النجوم، كلها متحركة لا تفتقر عن الحركة لحظة واحدة منذ الأزل السحيق الذي لا يدرك عقل البشرية مداه.. هذا

(١٤٣) سورة البقرة [١٦٤] .

الكون لا يصطدم فيه نجم واحد بنجم، ولا يحدث الخطأ في مدار واحد من مداراته التي تعد بالبلايين.

وتلك دقة معجزة لا يقدر عليها غير مبدع الكون، الواحد المفرد الذي ليس له شريك.

وهي دقة جميلة بلا شك.. تبده الحس وتهزه من الأعماق.

والتناسق الذي يبدو جانب صغير منه في مجموعتنا الشمسية بتركيبها الدقيق، والذي ينشأ في أرضنا نهار وليل، وضوء وظل، وشتاء وصيف، وخريف وربيع، وحر وزمهرير، ومد وجزر... ويبدو جانب منه أكبر في منظر السماوات بما تشتمل عليه من نجوم ذات أبعاد مختلفة وأحجام، وذات درجات مختلفة من الإشراق واللمعان، وذات مجموعات متألفة تتحرك بكامل أفرادها في الفضاء العريض.

والتوازن.. الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض - إلا بإذنه.. هذه الأجرام المذهلة الجرم والوزن، التي يعجز العقل عن تصور وزن أبسطها وأصغرها، إلا أرقاماً على الأوراق.. معلقة في الفضاء بغير عمد، موزونة الحركة، تدور في مدارها المرسوم، لا تهتز عنه ولا تخرج على نظامه.. ولو خرجت قيد أنملة لاختل توازنها وانساحت في الفضاء المذهل الرهيب.

والترابط.. الذي يمسك تلك الأجرام بعضها ببعض، برباط وثيق يقول العلم إنه الجاذبية، ويقول الحس إنه قدرة الله في أي ثوب من أثوابها وأي شكل من الأشكال. ترابط فإذا كلها - وهي البلايين التي يعجز عنها الحصر، في فضاء يعجز عنه التصور - أسرة واحدة متكافلة، فيها الصغير والكبير، والشباب والشيوخ، والخامد والمشتعل.. يجذب بعضهم البعض ويحمل بعضهم البعض، في تناسق وتوافق، فلا يقع منهم أحد، سواء الطفل الصغير والشيخ الكبير، وإنهم يدورون دورهم الهائلة متماسكين بأيدي خفية لا تبين، يوصوص بعضهم إلى بعض كما تحقق عيون الأحبة بالحب والحنين.

وخفة الحركة.. التي تبدو في تلك الأجرام الهائلة التي يعجز الخيال نفسه عن تصور كتلتها وثقلها لو قيس بمقاييس الأرض، تتحرك منطلقة في الفضاء بسرعات مذهلة: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب. صنع الله الذي أتقن كل شيء.." وحين استطاع الإنسان أن يطلق قذيفة وزنها أقل من الهباء المنثورة بالنسبة لتلك الأجرام، بسرعة من أبسط السرعات الكونية، أدركته نشوة أخرجه من كيانه وأصابته بالذهول! وهي حركة تتيحها لهذه الأجرام الثقيلة الماردة أهما في حقيقتها عبارة عن طاقة. طاقة متلبسة في المادة. طاقة متحركة في صميمها. متحركة حتى أعماق أعماقها. في أبسط

مكوّناتها المعروفة حتى اليوم. في الذرة الضئيلة التي لا يدركها الحس إلا حين يفرغ ما فيها من الطاقة فإذا هو مذهل عظيم.

○ ○ ○

تلك سمات الجمال في الكون.. وهي ذاتها سمات الجمال في هذه الأرض وفي حياة الإنسان! " مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ " (١٤٤).

الأرض بما فيها من جبال ووديان، ومحيطات وبحار، وجداول وأنهار.. وما في جوها من أبحرة وسحب وأمطار.. وما عليها من نبات وحيوان وطيور وإنسان.. جميلة كلها بديعة الجمال.

هذه النقطة من الطل المتألّفة في ضوء الشمس..

هذا البرعم المتفتح تنطلق منه الحياة..

هذه الورقة النابتة كالطفلة الوديعه تهتز للنسمة الخافقة كما تهتز الطفلة بكل تجربة جديدة في الحياة..

هذه الريشة البديعة في جناح الطائر، منسقة الألوان دقيقة التركيب..

هذا الفرخ الناقف من البيضة، جميلاً في ضعفه، لطيفاً في سداخته..

هذه الأضواء والظلال تقصر وتمتد في حركة دءوب..

هذا الجدول الرقاق.. والنهر المتدفق.. والبحر المتلاطم.. والخضم الموار.

هذه الهدأة في الليل الساكن الغافي النعسان..

والصبح إذا تنفس من هدأته، وتنفس معه الأحياء..

كلها.. كلها جميلة بديعة الجمال..

وكلها جارية على ناموس الجمال في الكون الكبير..

الدقة. والتناسق. والتوازن. والترابط. والحركة والانطلاق..

الدقة التي تبدو في كل شيء.. في مطلع الصبح ومغرب الشمس - بالنسبة للأرض - في موعد مضبوط شديد الانضباط، يحسب بأدق آلات الحساب البشرية فيفوقها في دقة الميعاد. كما تبدو في لون الزهرة الصغيرة المتعددة الألوان التي تعجز الريشة الدقيقة عن محاكاتها بهذه الدقة المعجزة، بينما تنبت هي في سهولة ويسر، حاملة ألوانها على " السليقة

(١٤٤) سورة الملك [٣] .

" بلا كد ولا إرهاق. كما تبدو في ريشة الطائر البديعة التي تحمل المئات من الريش المفرد بل الألوف، كل في مكانه على وجه الدقة، مرتب كأنما رتبته يد ماهرة، وكل يحمل نصيبه من اللون الذي يتكامل في الريشة الكاملة بمنظر بهيج. كما تبدو في الخلية التي لا تكاد ترى، وهي جهاز حي متحرك يحمل كل مقومات وجوده ؛ وفي عدد الكروموسومات التي تحملها - بعدد مضبوط لا يخطئ - وعدد الجينات حاملات الصفات الوراثية، الدقيقة إلى أبعد حدود الوصف. كما تبدو في عدد كرات الدم وعدد خفقات القلب وعدد مرات التنفس وعدد درجات الحرارة الخاصة بكل مخلوق على هذه الأرض.. الخ.. الخ..

والتناسق الذي يبدو في توزيع الألوان والظلال والأضواء والكائنات في رقعة البسيطة.. بصورة تلفت الحس وتستريح لها العين وتمش لها النفس وتهدأ لها الأعصاب.

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ " (١٤٥).

" أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا " (١٤٦).

" وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ " (١٤٧).

" أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ " (١٤٨).

الخ.. الخ..

والتوازن الذي يبدو في اتزان حركة الأرض وثباتها، وفي عدم طغيان ما عليها من الخلائق بعضها على بعض، كل له قدره الموزون الذي يكفيه لأداء دوره على الأرض كما أراده خالقه :

" وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ " (١٤٩).

(١٤٥) سورة فاطر [٢٧ - ٢٨] .

(١٤٦) سورة الفرقان [٤٥] .

(١٤٧) سورة النحل [٨١] .

(١٤٨) سورة النحل [٤٨] .

(١٤٩) سورة الحجر [١٩] .

والإشارة إلى الوزن - أو التوازن - هنا إشارة عجيبة، تشير في الحس اليقظة لهذه الصفة التي يتسم بها خلق الأرض كلها وما عليها، كما تصل الحس المتفتح بالله مباشرة، خالق هذا " الكل شيء " الموزون.

" خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُونَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ " (١٥٠).

" وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا " (١٥١).

الخ.. الخ..

والترابط.. الذي يبدو في اجتماع هذه الخلائق على أصل واحد، ومصير واحد، واشتراكها في نشاط واحد يربط بينها جميعاً.

" وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (١٥٢).

فهنا ارتباط في المنشأ، وارتباط في صفة الحياة التي تجمعهم فيها كلمة " مَنْ " تربط بين العاقل وغير العاقل، ومن يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع.

" وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " (١٥٣).

" وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ " (١٥٤).

وهنا ارتباط في المصير :

" وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " (١٥٥).

" وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " (١٥٦).

فمن في السماوات ومن في الأرض وما في هذه وتلك يشتركون في نشاط واحد هو العبادة لله خالق الجميع. نشاط يشمل الكائنات كلها من جوامد وأحياء.

(١٥٠) سورة لقمان [١٠] .

(١٥١) سورة فصلت [١٠] .

(١٥٢) سورة النور [٤٥] .

(١٥٣) سورة آل عمران [١٨٠] .

(١٥٤) سورة الحجر [٢٣] .

(١٥٥) سورة الرعد [١٥] .

(١٥٦) سورة النحل [٤٩] .

وذلك فوق الترابط " المحسوس " بين الكائنات، الذي يعرفه العلم، من ارتباط الحياة والأحياء على سطح الأرض بوجود الأكسجين والإيدروجين وبقية العناصر بنسب موزونة محددة لو زادت أو نقصت لاختل كل شيء. وارتباط وجود كل حي من الأحياء بوجود الآخر زيادة ونقصاً، وتأثر كل واحد بنشاط الآخر. وما يعرف في العلم باسم " دورة الكربون " في الأرض. يخرج من النبات في صورة غذاء فيتناوله الإنسان والحيوان. ثم يعود هذان فيفرزانه في الهواء فيلتقطه النبات ويعود إلى صياغته غذاء.. وهكذا في دورة رتيبة مضبوطة تربط جميع هذه الكائنات.

الخ.. الخ..

والحركة الحية.. التي تبدو في كل شيء على سطح الأرض. حركة الأحياء من نبات وحيوان وطيور وإنسان. وحركة النهر والبحر والمحيط وحركة الحياة والموت، وما تنقصان من هنا وتزيدان من هناك. وحركة الأضواء والظلال والنهار والليل. الخ.. الخ.

والقرآن يبرز هذه الحركة إبرزاً حتى يصل إلى دقة مبدعة في التصوير في مثل قوله :
 " وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ " (١٥٧)!

فالحركة لا تشمل الأحياء ممن في السماوات والأرض فحسب، ولكن تشمل ظلالهم أيضاً، فتحييها، وتحركها، حتى لا يصبح شيء في الوجود كله غير حي وغير متحرك مع الأحياء!

وكذلك : " والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس " .
 حركة مصوِّرة تبث الحياة في كل " معنى " من معاني الوجود.
 وهذه الحركة جمال فائق فوق كل جمال...

○ ○ ○

تلك مجالي الجمال في الأرض، فإذا انتقلنا إلى الإنسان وجدنا مقاييس الجمال فيه هي ذاتها - أو ينبغي أن تكون - مقاييس الكون كله المتمشية مع ناموس الوجود.
 فحياة الإنسان لا تكون جميلة - بادئ ذي بدء - إلا إذا كانت " نظاماً " طليقاً من " الضرورة " .

(١٥٧) سورة الرعد [١٥] .

نظاماً.. فالفوضى المنفلتة من كل قيد ليست جمالاً، ولا كذلك الحياة في داخل قيود الضرورة.

الفوضى صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون ولا يعترف بها ناموس الوجود. فكل شيء منظم منسق موزون.

والقيد القاهر صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون كذلك ولا يعترف بها ناموس الوجود، لأنه خالٍ من عنصر الضرورة في خلقه وفي نظامه سواء.

وإنما هو النظام.. النظام الدقيق الذي تتوازن فيه القوى وتتناسق الطاقات، ويخرج منها كيان مترابط، حيّ، متحرك، طليق.

حين ينفلت الإنسان من كل قيد.. اجتماعي أو اقتصادي. أو إنساني.. وينطلق يستجيب لكل هوى في نفسه وكل نازعة.. فإنه من ناحية لا يعود إنساناً، لأن الإنسان ذو قوة ضابطة يستخدمها بوعيه وإرادته لتنسيق الحياة الإنسانية وإشاعة التوازن فيها، ذلك التوازن الذي يقتضي ألا تصطدم أهواء الناس، ولا يتفكك المجتمع وينحل نتيجة لشروء كل واحد من أفرادها على هواه. ومن ناحية أخرى يكون خارجاً على ناموس الكون، الذي لا تشرد أفلاكه على هواها، ولا تنفلت مما يربطها بغيرها من الأفلاك من رباط جاذب متين.

وحين يعيش الإنسان حياته في داخل نطاق الضرورة : ضرورة الطعام أو الشراب أو الجنس.. لا يرتفع عنها إلى مستوى " المشاعر النفسية " والعواطف والإدراك والوعي، فإنه من ناحية لا يعود إنساناً، لأن الحيوان وحده هو الذي يعيش ضروراته على هذا النحو، لا يتصرف فيها، ولا يختار موقفه منها، ولا يدرك بوعيه أهدافها، ولا تصاحبها في " نفسه " مشاعر ولا عواطف ولا أفكار. ومن ناحية أخرى يكون خارجاً على ناموس الكون، الذي لا تتحرك أفلاكه على هذا النحو المعين لضرورة قاهرة، وإنما عن اختيار من خالقها، وعن تجاذب حيّ بينها، يشبه " عواطف " الأحياء.

ومن ثم يتعين الجمال في الحياة الإنسانية بصفة عامة : أنه نظام مطلق من الضرورة. هذا " النظام " يقتضي موازنة الكيان البشري كله في داخل النفس وفي واقع الحياة. يقتضي في داخل النفس ألا يصبح الإنسان جسداً وحده أو عقلاً وحده أو روحاً بمفردها. وإنما كياناً واحداً ينظم كل هؤلاء.

فحين تغلب على الإنسان شهوة الجسد الغليظة. أو تأملات العقل المنقطعة عن واقع الأرض. أو سباحات الروح التي تعزل الإنسان عن الواقع وتحوله إلى سلبية لا أثر لها في عالم الحس.. فكل ذلك اختلال يفسد ترابط النفس وتوازنها.. ومن ثم فهو غير جميل.

وحين يتسبب الإنسان في إفساد توازن المجتمع الاقتصادي أو السياسي أو الخلقي، فيشيع الفاحشة الاقتصادية بتركيز الثروة هنا وسلبها من هناك، أو الفاحشة السياسية بإقامة الطغيان في الأرض وإذلال الضعفاء، أو الفاحشة الخلقية بنشر الجريمة وتسييرها والدعوة إليها. فهو في كل حالة من هذه الحالات غير جميل.. لأنه مخالف لناموس الحياة.

والنظرة إلى الجمال في الحياة الإنسانية على هذا المستوى الشامل، المستمد من حقيقة الكون، كفيلة بأن توسع مفهومنا الجمالي ولا تحصره في حدوده الصغيرة المعروفة.

جمال " الطبيعة " جميل، نعم. والإسلام - كما أسلفنا - يوجه إليه النظر ويدعو إلى التمتع بكل ما فيه من جمال.. على ألا يشغل ذلك النفس عن الحياة المثمرة المنتجة وتحقيق الأهجاف العليا من الحياة.

وجمال الأجساد وجمال الجنس، نعم، ما في ذلك شك..

ولا يقول أحد إنه غير جميل..!

ولكن بشروط.. هي نفس الشروط..!

" نظام " طليق من " الضرورة " .

نظام تراعى فيه حقيقة المجتمع وحقيقة النفس المفردة فلا تختل هذه ولا تلك.

لا تختل حقيقة المجتمع بإطلاق الشهوات الباحثة عن جمال الجسد وجمال الجنس، تفسد روابط الأسر وتحل قيود الأخلاق، وتنتهي بالآمة في النهاية إلى البوار. ولا تختل حقيقة النفس فتصبح مستعبدة للشهوات.

تلك تجربة التاريخ لا ينبغي أن نغفلها انسياقاً وراء الأهواء :

" قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " (١٥٨).

كل أمة أطلقت لنفسها شهوة عشق الجمال الجسدي والجمال الجنسي، كانت نتيجتها واحدة في النهاية : تحطمت وغلب عليها غيرها من الأمم القوية المتماسكة التي لم تفسد بعد. كذلك فعلت اليونان القديمة. وروما القديمة. والعالم الإسلامي حين طغت عليه الشهوات. وكذلك فعلت فرنسا في العصر الحديث. وكذلك تصنع بقية الدول الغربية التي تبدو اليوم قوية متماسكة وهي منحلة من الداخل ينخر في كيانها السوس. نسبة الطلاق في أمريكا ٤٠ %! لأن " عشق الجمال " يفسد الاستقرار في داخل الأسرة ويجعل الزوج والزوجة هائمين في البحث عن جمال جديد! وانجلترا، بدافع الاستمتاع بالجمال الجسدي والجنسي أطول فترة ممكنة تؤخر سن الزواج وتحدد النسل، ومن ثم

(١٥٨) سورة آل عمران [١٣٧] .

يتناقض تعدادها تناقصاً مريعاً يهددها بالفناء.. وهكذا.. وهكذا سنة الله في جميع الأمم الخارجة على الناموس!

والطلاقة من الضرورة من جانب آخر تقتضي أن يكون الإحساس بالجمال الجسدي والجمال الجنسي على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان الخاضع لتزوة الضرورة لا يملك التصرف فيها ولا يملك الاختيار.

وفي عالم الحيوان تكون كل أنثى مشاعة لكل ذكر يستطيع أن يحصل عليها، وكل ذكر في شوق لجميع الإناث.. وهذه ضرورة..

ولكن في عالم الإنسان توجد الروابط النفسية والروحية بين الذكر والأنثى : " وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً " (١٥٩).

ويوجد المدى الواسع في " درجات " الجنس وأنواعه، التي يملك الإنسان من بينها الاختيار (١٦٠).

فلكي يحقق الإنسان كيانه - وهو خليفة الله في الأرض - ينبغي أن يكون إحساسه بالجمال الجسدي والجنسي على هذا المستوى الرفيع، الذي لا يجعل الجنس ضرورة، وإنما سلوكاً حراً يتميز فيه إنسان عن إنسان.

وفي هذه الدائرة بحدودها المتمثلة في النظام والطلاقة، يبيح الإسلام الإحساس بجمال الجسد وجمال الجنس.. بنفس الشرط الذي اشترطه في الإحساس بجمال الطبيعة : ألا يشغل النفس عن الحياة المثمرة المنتجة وتحقيق الأهداف العليا من الحياة.

يبيح المتعة الجنسية كلها، في حدودها المشروعة..

" أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ " (١٦١).

والرفث الحركات والأقوال المصاحبة للعمل الجنسي. وعلماء البلاغة يقولون إنه كناية عن العمل. ولكن الحقيقة أوسع من الكناية. فالمقصود ألا يكون العمل الجنسي حركة جسدية خالصة، لا تتمثل فيها غير ضرورة الجنس. وإنما توسع مساحتها، حت تصبح أقوالاً ومداعبات.. وأحاديث الرسول ﷺ وما روته عائشة رضي الله عنها من حاله معها، يؤكد هذا المعنى ويحض على أقوال وأعمال تعبر عن عاطفة وشوق ورغبة في الامتزاج، وهي كلها أمور " إنسانية " ترفع الجنس عن مستوى البهائم المقيد بالحدود.

(١٥٩) سورة الروم [٢١] .

(١٦٠) انظر الفصل السابق " العواطف البشرية في التصور الإسلامي " .

(١٦١) سورة البقرة [١٨٧] .

وذلك هو "الإحسان" في أمور الجنس.. أو هو الجمال.
والإسلام كذلك لا ينهى أن يحب الإنسان وجهاً جميلاً أو جسماً جميلاً ويقدر ما فيه من الجمال وينجذب إليه.. ولكنه لا يبيح ذلك فوضى.. فالطريق إلى الاستمتاع بهذا الجمال هو الطريق المشروع وحده.. لأنه هكذا يقتضي "النظام".
ولكن هذه الإباحة - وميادها واسعة ما عدا الفاحشة - لا تنسي الإسلام سمات الجمال الأخرى التي يرسمها ناموس الوجود في نطاقه الكبير.

لا تنسيه التناسق.. وهو شرط من شروط الجمال في ذلك الناموس.
والتناسق يقتضي تناسق الأهداف الإنسانية ونواحي النشاط.
وحين تنقضي الحياة في تذوق جمال الجسد وجمال الجنس.. أو حين يأخذ هذا التذوق مساحة في رقعة الحياة أكثر مما ينبغي له.. فمتى.. متى تتحقق بقية أهداف الحياة وبقية ألوان الجمال؟

متى يتحقق الجمال الاجتماعي والسياسي والفكري والروحي؟
أليست هذه كلها صنوفاً من "الجمال" بالقياس إلى الإنسان؟!
متى تتحقق العدالة الاجتماعية والسياسية والدولية، التي يتمتع فيها كل فرد بنصيبه المشروع من الرزق، والكرامة، والاستقرار، والاطمئنان؟ ويتمتع كل إنسان بوفرة من الجهد ومن المشاعر تتيح له أن يخرج من قيود الضرورة، ويسعى إلى تحقيق أشواقه العليا، ويحس بما في الحياة من جمال؟

أو ليس يقتضي كل ذلك كفاحاً وكدحاً ومشغلة بالليل والنهار؟
فمتى يتحقق ذلك، وتحقيقه أمر لازم لتنظيم حياة الإنسان؟
وحين تستغرقنا متع الجمال الحسي، فماذا يَفْضُلُ لنا من الطاقة وماذا يفضل لنا من الوقت ومن الاهتمام، نسعى به إلى تحقيق هذا الجمال الأكبر، الذي يَجْمَلُ حياة البشرية عامة، ويشرك خلفاء الله كلهم في طيبات الرزق وطيبات الحياة؟
إنه ليس تحريم الجمال الجنسي وجمال الأجساد.. ولكنه التنظيم والتنسيق والموازنة بين شتى أهداف الحياة.



ومن هنا تصبح الفنون "الجسدية" كلها إسرافاً في التعبير، وخللاً يفسد الجمال الأكبر في حياة الإنسان. الرقص.. والنحت.. والصور العارية.. والشعر المكشوف..

والقصة التي تتحدث عن فورات الجسد.. والموسيقى الصاخبة التي تعبر عن هياج الشوق في الجسد الحيوان.. والسينما العارية التي تعرض خليط من كل هؤلاء.. كلها إسراف من ناحية تجسيمها للجسد، وعرضه معرض الفتنة أو معرض العبادة والتقديس.

"فاللحن" الإنساني لحن متكامل، يعبر عن الإنسان بمجموعه، لا عن جسده وحده، ولا عن طريق الأجساد.

ووالرقص - مثلاً - مهما قيل فيه من تنعيم وتوقيع، لن تعدو حقيقته أنه إبراز لجانب الجسد، وتعبير عن الحياة عن طريق الجسد.. أي أنه فن يفصل قبضة الطين عن نفخة الروح ويعرض جانباً واحداً من الإنسان.

وبقية الفنون "العارية" غنية عن الكلام!

والفن ينبغي له وهو يعبر عن الحياة الإنسانية أن يراعي التناسق والتكامل والترابط في هذه الحياة.

وحين يبرز الجنس وحده أو جمال الجسد وحده، فهو مخل ولا شك بكل هذه الشروط.

فأين يكون في لوحة الفن الجنسي تصوير الحب بمعناه الشامل، الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق: الحب الإلهي، والحب الكوني، والحب الإنساني؟

وأين في هذه اللوحة يكون صراع الخير والشر وتعاقب جولاهما وتداخلهما في واقع الحياة: ينبت الخير من الشر وينبت الشر من الخير: "وتلك الأيام نداولها بين الناس"؟

وأين يكون موقع "القدر" .. تلك القوة المحركة الكبرى التي تنسق لوحة الحياة بما توزعه على الناس والكائنات من أقدار: موت هنا وحياة هناك. وهزيمة ونصر. وآلام وآمال. وسعادة وشقاء. وحلاوة ومرارة. ومغام ومغارم. وإقبال وإدبار. وإعطاء وحرمان؟

وأين يكون موقع الأشواق العليا التي تحس بها البشرية حين تنطلق من القيد.. مثلة في العقيدة والإيمان بالله والإيمان بالغيب والإيمان باليوم الآخر.. وأثر ذلك كله في واقع الأفراد وواقع الحياة؟

الجمال الجنسي جميل. نعم. ولكنه لا ينبغي أن يجاوز مكانه المقدور في لوحة البشرية ولوحة الفنون.

والجمال الأكبر المستمد من ناموس الكون، هو الذي ينبغي أن تمارسه الفنون الإنسانية الرفيعة، التي تتجاوز تجاوباً صحيحاً مع حقيقة الوجود. وذلك هو الجمال الذي يتصوره الإسلام..

القَدَرُ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ

القدر في حس الإنسان حقيقة هائلة، رهيبة مخوفة.. مرتقبة ومتّفاة!
ذلك أنهما تتصل بالقوة التي تدبر الكون وتصرف الحياة.. القوة التي تمنح وتمنع،
وتسعد وتشقي، وتفرح وتُحزن، وتأخذ وتعطي، وتعذب وتُرضي، وتُحرّم وتغدق، وتُهب
الحياة وتأخذ الحياة!

وتتصل في الوقت ذاته بالجهول.. بالغيب المحجوب عن الأبصار..
وتتلفع بالكتمان! لا تفصح عن سرها قبل أن تقع، وقد تقع وهي مع ذلك مغلفة
بالأسرار!

شيء هائل رهيب.. لا جرم يشعر الإنسان إزاءه بالضالة والانحسار!

○ ○ ○

إن آمال الإنسان لكثيرة. وإن مخاوفه لمتعددة.

يأمل الإنسان أن يعيش أبد الدهر!

فإذا أعجزه الخلود في هذه الأرض، وتوالت على حسه طرقات الموت تنذر به بأن
هذا الأمل مستحيل، راح يلتمس الخلود في وسائل أخرى، في الامتداد بالنسل تارة،
ومحاولة الامتداد بالذكر تارة، وتوسيع أفق الحياة تارة لتتسع عَرْضاً إذا استحال اتساعها
بالطول.. وبالهروب تارة من واقع الأرض المحسوس كله، والالتجاء إلى عالم الروح، الخالد
الذي لا يصيبه الفناء..

ويأمل الإنسان أن يعيش القَدَرُ المقسوم له من الحياة سعيداً، خالياً من المتاعب
والآلام والأحزان، هادئاً راضي البال، لا تنوشه المشاغل ولا تفسد هدوءه المنغصات.
ويأمل أن يعيش مطمئناً.. لا تفرعه الأحداث بالأخطار. أخطار الموت والإصابة
والمرض والأذى والحرمان.

ويأمل أن يعيش مستمتعاً بالقوة والجاه والسلطان.. " بالبروز " في أية صورة، أو في
جميع الصور على الإطلاق!
وإنه ليخاف...

يخاف أكبر ما يخاف الموت.. فهو الذي يحرمه رغبته الأولى.. رغبة الحياة.

ويخاف العجز والمرض والضعف والشيخوخة.

ويخاف الفقر.

ويخاف الأذى.

ويخاف الحرمان...

وترتبط آماله ومخاوفه بالغيب..

فهو لا يعلم، ولا يستطيع مهما أُوتِيَ من المقدرة أن يعلم ماذا يكسب غداً ولا بأي أرض يموت! " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ " (١٦٢) بل لا يستطيع أن يعلم غيب اللحظة القادمة الواقفة على الأبواب، بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب! اللحظة التي لا يكاد يفصلها عنه زمن، ومع ذلك تفصلها عن علمه الآماد والآباد!

فهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً في واقع الأمر. وقد يتظاهر لحظة بالقوة. وقد يتبحر لحظة بالسيطرة. وقد يخيّل إلى نفسه أحياناً أنه قادر ومدبر ومالك لما يأتي من الأمور.

ولكنه في حقيقة نفسه، في أعماق أعماقه.. يدرك الحقيقة. يدرك أنه لا يملك القوة ولا يملك التدبير. وأن ضربة من ضربات القدر يمكن أن تأتيه في أية لحظة فلا يبقى شيء مما أُمِّلَ، ولا يقدر على شيء مما يريد..

ضربة تفسد كل تدبيره، أو ضربة تخرجه هو من كل تدبيره، وتسلب منه الحياة!

لذلك يتطلع دائماً إلى القدر.. يرتقبه... ويتقيه!



وحقيقة القدر شديدة الضخامة في حس البشرية منذ عهودها السحيقة.. وستظل كذلك إلى آخر العصور!

فالمفاجأة دائماً عنصر مرهوب..

كل شيء يحدث دون أن يراه الإنسان يتضخم وقعه في حسه، ولو كان أبسط الأشياء. قد يحتمل الإنسان قدراً كبيراً من الألم وهو ناظر إليه، عارف لقدره، مشاهد لحدوثه، ثم لا يحتمل شكة الإبرة البسيطة حين تشكه على غير انتظار!

(١٦٢) سورة لقمان [٣٤] .

ذلك من صميم الفطرة.. جزء من كيائها أصيل.
انظر إلى الطفل حين تفاجئه من ورائه بصيحة، أو لمسة لم يكن لها عنده حساب..
كيف يفزع ويضطرب ويخاف!

ثم انظر إلى الشخص البالغ في ذلك الموقف نفسه.. ليس هناك فارق كبير!
وهذا الخوف من الأشياء المفاجئة - المتأصل في الفطرة - يؤدي لهذه الفطرة مهمة عظيمة، هي حفظ الحياة! فلولاً الخوف من الأخطار لم يحافظ الإنسان على حياته، ولم يحقق من الأهداف ما يحتاج إلى وجوده سليماً موفراً للحياة.
ولكنه - ككل شيء - حين يجاوز قدره المعقول يصبح عنصراً معطلاً عن الحياة!
وأياً كان القدر الذي يمارسه الإنسان من الخوف، فالمفاجأة دائماً عنصر مرهوب بالنسبة إليه، هو يخشى القدر لأنه دائماً يفجؤه بالأحداث.



والقدر في حس البشرية دائماً عنيف!
فالبشر لا يحسونه وهو سائر معهم في التيار. وإنما يحسونه وهو معاكس لهم في الطريق!
" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا " (١٦٣).
" وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ " (١٦٤).

لا يحسونه وهو يهب لهم أمانيتهم، ويمتنعهم، ويحقق رغباتهم.. كما لا يحس الإنسان بالتيار وهو سابح في اتجاهه، بنفس سرعته!
ولكنهم يحسونه وهو يجرهم مما يرغبون. يحسونه وهو يأخذ منهم حياة عزيزة عليهم. أو يصيبهم في ذات أنفسهم بصنوف مختلفة من الألم والعذاب والحرمان.. سواء ما يصيب الأجسام وما يؤلم النفوس.
ويزيد من وقعه في حسهم أنهم لا يفهمونه ولا يدركون أسرارهم.

(١٦٣) سورة الإسراء [٨٣] .

(١٦٤) سورة هود [١٠] .

لماذا احتطف الموت تلك الطفلة البريئة التي ليس لها " ذنب "، والتي كانت وحيدة أبويها، المتعلقين بها، تتمثل فيها بالنسبة إليهما كل معاني الحياة؟

ولماذا احتطف الموت ذلك الرجل وهو العائل الوحيد لأسرته، لا موئل لهم غيره، وهم عديد من زوجة وأطفال وأقرباء؟

لماذا انهزمت الفئة المؤمنة المخلصة التي تقاتل في سبيل الله، لا تبتغي سوى مرضاته، وتركت بهزيمتها الميدان للباطل، ينتفش فيه وحده، ويعلو في الأرض، ويتمكن له السلطان؟

لماذا انتصر الشر على الخير، فيئس الناس من مصير الخير على الأرض، وتهاوت نفوسهم، واندفعوا في طريق هابط، لا يعملون لنصرة الحق ولا يتورعون عن ارتكاب الآثام؟

لماذا رزق هذا الرجل الصالح بولد مجرم يعيث فساداً في الأرض، ويهلك الحرث والنسل؟

لماذا غرقت هذه السفينة واحترقت هذه الطائرة ووقع ذلك الزلزال المدمر العنيف؟

لماذا عاش هذا الطفل وقد مات أبواه في الحادثة وليس له من يرعاه؟

لماذا يظل هذا الشيخ حياً وقد هدّه المرض والعجز والشيخوخة، ويموت ذلك الشاب الصاعد نحو القمة الممتلئ بالحياة؟

وألوف من الأسئلة وألوف من التعجبات.. لا يدرك البشر كنهها ؛ فتتمثل لهم " قسوة القدر " في تصريف الأمور، أو يتمثل لهم كأنه يخبط خبط عشواء.



والفنون البشرية منذ القدم تعالج أمر القدر في الشعر والقصة والأقصوصة والمسرحية.. الخ. وتعالجه - في معظم الأحوال - في ثوبه الفاجع العنيف.

والأدب اليوناني بصفة خاصة يفرد للقدر رقعة فسيحة في لوحته الفنية. لا تخلو مأساة من مآسيه من هذه العقدة التي هي في الواقع عنصر المأساة فيه : وهي موقف البشر العاجز الضعيف أمام القدر، مهما حاولوا تحديه والتغلب عليه، وعنّف ضربات القدر للذين يتحدونه خاصة، ويريدون أن يتصرفوا على أساس أنهم هم المالكون والمدبرون. حتى الآلهة الأسطورية ليست معفاة من ضربات القدر الجبار!

وعناية الأدب اليوناني بحقيقة القدر في حياة الناس وسير الأحداث هي في ذاتها عناية صائبة. فهي كما قلنا حقيقة ضخمة في حس البشر. بل هي كذلك في صميم بنية

الكون. ولكن هذا الأدب مع ذلك لم يستقم في تصويرها.. بل وقع - رغم روعته وضخامته - في أحد الاختلالات الكثيرة التي تسم هذا الفن.

لقد صور العلاقة بين البشر والآلهة - كما ذكرنا من قبل - علاقة مبالغضة ومشاحنة وحرب دائمة لا تفتقر من هذا الجانب ولا ذاك. وصور هؤلاء الآلهة طغاة بغاة تغلب عليهم شهوة السلطان والسيطرة، ومحاولة إخضاع البشر لأحكامهم الجائرة، التي لا معنى لها ولا هدف من ورائها غير هذه الشهوة المتجبرة المحمومة. ثم صور هؤلاء الآلهة نزوات من الغضب ونزوات من العشق المنحرف، يتورع عنها الإنسان العادي فضلاً عن " الآلهة " المتصرفين! ومن ثم جاء " القدر " في آدابهم بهذه الصورة العنيفة القاسية القاصمة، المتحكمة في الناس بلا منطق ولا ضرورة ولا هدف علوي، والتي لا تريح القلب البشري في كل حالة إلى عدالة السماء أو حكمة الأقدار. ثم انحرفوا تصويرياً آخر، فصوروا القدر قوة عمياء لا تعفي هؤلاء الآلهة المتجبرين أنفسهم من ضرباتها كما يضربون هم البشر، وهي تضرب البشر والآلهة على السواء.

وعن هذا التصور المنحرف - برغم ما فيه من روعة الأداء وقوة الإيحاء - التصور الذي يصور حقيقة القدر من الظاهر الصغير المكشوف لمدارك البشر، والذي يصيرون في تصوره مرة ويخطئون مرات، ولكنه لا يصوره من حقيقته الكونية العميقة الشاملة.. عن هذا التصور أخذت كثير من الفنون الغربية - وريثة الأدب اليوناني - فصورت هذا " الصراع " بين البشر والقدر.. يبدو فيه البشر - في معظم الأحوال - في الجانب المعقول المفهوم المفسر المبرر، ويبدو القدر في الجانب الغاشم الذي لا تفسير له ولا تدبير، سوى شهوة التحكم وإذلال البشر!

ثم جاء وقت جنحت فيه بعض الآداب الغربية الحديثة عن معالجة القدر المتلفع بالغيب، المتعلق بإرادة الله - أو الآلهة - واستبدلت به قدراً آخر في صورة محسوسة ملموسة، تمثيلاً مع التحول الذي حدث في الفكر الأوروبي كله في القرنين السابقين، في الانتقال من وراء الطبيعة إلى الطبيعة، ومن المجهول إلى المعلوم، ومما لا تدركه الحواس إلى ما تدركه الحواس.. استبدلت بفكرة الله والغيب المجهول قوى أرضية خالصة، كقوة " الطبيعة " أو قوة " المجتمع " أو قوة " الدولة أو قوة " الطبقة ".. محاولة منها أن تفسر " الله " في صورة معقولة مفهومة مُحَسَّنة، وأن تصغر من قَدْرِهِ في ذات الوقت إلى جانب قوة الإنسان، انتقاماً " لبروميثيوس " القديم الذي غلله زيوس في الأغلال!! ولكنها مع ذلك ظلت محافظة على طبيعة العلاقة بين البشر وهذه القوى، على نفس الصورة التي كانت تشكل علاقة البشر بآلهة اليونان.. صورة الصراع والبغضاء.

فصار " البطل " في الأدب الحديث لا يصارع الآلهة ولا القدر المغيّب في المجهول. وإنما يصارع الطبيعة. أو يصارع المجتمع. أو يصارع الطبقة التي تملك وتحكم.. وكلها

صراعات تحكمها البغضاء والشحناء، ورغبة تلك القوى في سحق البطل وتفتيته.. ثم تكون "المأساة" حين تنجح تلك القوى في التخطيم، كما كانت تنجح آلهة اليونان في سحق المتمردين على سلطانها المهول، أو كما كانت تنجح الأقدار في تخطيم الآلهة والناس سواء!

وفي الوقت ذاته أصغرت هذه الآداب - وهذا الاتجاه الفكري كله - من قيمة الإنسان حين أصغرت من قدر الله.. فقد كان الإنسان - رغم سلبيته المطلقة إزاء الله - يقف على مستوى عال من الإرادة والذاتية والتصرف في قوى المادة وقوى المجتمع وخط سير الحياة، فصار - في المفهوم الحديث - يقف موقف السلبية الخانعة من قوى المادة وقوى الاقتصاد، وقوة المجتمع، كلها تفرض عليه سلطانها وإرادتها، وهو وحده بلا إرادة ولا سلطان!

لقد أرادت هذه المفاهيم أن تلغي الله لترفع الإنسان.. فكانت النتيجة أن ألغت كيان الإنسان حين ألغت إلهه المعبود! لأنه في الحقيقة يستمد وجوده من ذلك الإله! وهذا هو الانحراف الذي يسيطر على هذه المفاهيم كلها، وما ينشأ عنها من آداب، رغم ما لها من روعة وقدرة فائقة في التأثير.

والتصور الإسلامي للقدر واسع شامل محيط.

القدر هو إرادة الله.. السيطرة على الكون والحياة والإنسان. السيطرة على كل دقيقة من الدقائق، وكل تفصيلا من التفصيلات.

لا شيء في الوجود يحدث مصادفة. ولا شيء يحدث جزافاً بلا حساب.

ولا شيء يحدث بلا غاية...

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ.." (١٦٥).

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (١٦٦).

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ" (١٦٧).

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ" (١٦٨).

(١٦٥) سورة آل عمران [١٩٠ - ١٩١] .

(١٦٦) سورة المؤمنون [١١٥] .

(١٦٧) سورة الأنبياء [١٦] .

" خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ " (١٦٩).
 " وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " (١٧٠).

ويقول " العلم " الحديث كلاماً كثيراً في خلق الكون. دقته وانضباطه وترابطه وتناسقه.. وأنه لا يمكن أن يحدث كل ما فيه من موافقات دقيقة بغير غاية ولا خالق مدبر مريد.

يقول جيمس جيتز، العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحدًا شاكًا : " إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله ".

ويقول أ. كريسي موريسون، رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه " العلم يدعو للإيمان " : " إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة. وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الضخمة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون.

" إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم في كل وحدة من وحدات العلم. غير أن تحطيم ذرة دالتون - التي كانت تعتبر أصغر قالب في بناء الكون - إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحياة تبديلاً جوهرياً. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتفتح مجالاً للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة ".

ويعدد هذا العالم وغيره مئات من الموافقات الدقيقة في حلقة الكون، لو اختل أي واحد منها لما انتظم الكون في دورته المنتظمة الدائمة.. ولما ظهرت الحياة على سطح الأرض ولا ارتقت.. لو زادت نسبة الأكسجين في الهواء فاحترق كل حي أو قلت فماتت الأحياء أو خملت.. لو زاد الماء على سطح الأرض أو قل.. لو زادت اليابسة أو قلت.. لو اقترب القمر من الأرض فزادت قوة جذبه وارتفع مد المياه على الأرض أو لو بعد.. لو اقتربت الأرض من الشمس فالتهب كل ما على سطحها من الحياة أو بعدت فمات كل حي.. الخ.

وكلها تشهد بهذه الحقيقة التي تدركها الروح بداهة - من قبل ذلك العلم - أن للكون خالقاً مدبراً يخلق بقدر ما يشاء ويدبر الأمر..

(١٦٨) سورة الحجر [٨٥] .

(١٦٩) سورة التغابن [٣] .

(١٧٠) سورة الجاثية [٢٢] .

تلك أول بديهة من بديهيات " القَدَر " في خلقه الكون.

ثم الله هو الذي يدبر كل أمر في هذا الوجود كله، وفي حياة الإنسان :

" بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ " (١٧١).

" بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (١٧٢).

" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (١٧٣).

ثم إنه يدبر الأمور كلها بالحق :

خلقُ السماوات والأرض بالحق.

وخلق الإنسان بالحق.

وتصويره في أحسن صورة هو بالحق.

ورجعه إلى الله في اليوم الآخر بالحق، ومن أجل الحق..

وهنا مفرق الطريق بين الوثنيات القديمة والحديثة وبين الإسلام..

كل وثنية تؤمن بأن الكون قد خلق مصادفة بلا خالق، أو بلا خالق مدبر..

وكل وثنية تؤمن بأن الإنسان وجد في الأرض مصادفة - بتطور أو بغير تطور...

وكل وثنية تؤمن بأن حياة الإنسان في الأرض لا يحكمها ضابط، أو لا يحكمها ضابط عاقل، أو لا يحكمها ضابط عادل يقدر تصرفاته ويصدرها بالحق..

وكل وثنية تؤمن بأن حياة الإنسان محصورة في نطاق الأرض الضيق، محصورة في الحياة الدنيا، منقطعة عن حقيقة الأزل والأبد، منتهية بلا رجعة ولا جزاء..

كل هذه الوثنيات ضالة منحرفة، منقطعة الصلة بناموس الوجود الأكبر، الذي يحكم الكون والحياة والإنسان..

إن النظر في هذا الناموس الأكبر يفتح البصيرة على " الحق " الشامل الكامل الذي يصرف الأمور.

وقد سبق من قول " العلم " ما يبين ما في خلق الكون من حق.. وأنه ليس مصادفة بلا مدبر عاقل حكيم.

(١٧١) سورة يس [٨٣] .

(١٧٢) سورة الملك [١] .

(١٧٣) سورة آل عمران [٢٦] .

وليس من طبائع الأشياء أن تكون هذه الدقة العجيبة المتناهية موجودة في خلق السماوات والأرض، وغائبة بعد ذلك عن حياة الإنسان!

فالحق الذي شمل هذا الكون الواسع الذي يُذهل الإنسان مجرد تخيله، لن يتوقف عن السريان بالنسبة لتلك النقطة الصغيرة الضئيلة في هذا الكون، ولا بالنسبة لكائن واحد من كائنات هذه النقطة السابحة في الفضاء.

حقاً.. إن الله كرم الإنسان وجعله خليفة له في الأرض. ولكن هذا ليس معناه أنه أخرج حياته من الناموس الأكبر الذي شاء سبحانه أن يحكم الوجود كله.. ناموس الحق. بل كان من التكريم له أن يصله بالناموس الأكبر، فلا يتركه ضائعاً منقطعاً، متفرداً وحده بالتيه والضلال في الكون المهتدي كله بهداية الله..

كان من التكريم له أن يجعل لحياته غاية، ويجعل حاكمها هو الحق، ويجعل كل خطوة من خطواتها وكل تفصيل من تفصيلاتها، مرتبطاً بتلك الغاية ومحكوماً بذلك الحق.

وكان من التكريم له - إذ جعل حياته محكومة بالحق - ألا تنتهي حياته في هذه الأرض، التي لا تكتمل فيها صورة، ولا يتبدى فيها الحق - حين تقتطع عن بقيتها المكمل لها - ولا تنتهي الأمور فيها نهايتها العادلة المستفادة من "الحق".. وإنما جعل هذه الحياة الدنيا اختباراً وبلاء للناس، وفرصة للعمل من كل لون وصنف، ليتم الجزاء العادل عن هذا الاختبار في يوم الجزاء.. يوم تكتمل الصورة ويحق الحق:

"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" (١٧٤).

"وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (١٧٥).

وبذلك تستقر الأمور على ركنيها الحق في حياة الناس..

إن "القدر" الذي يصرف حياة الناس هو إرادة الله. وهو الحق، لأنه قدر الله وإرادته.

وهو لا يجري بلا غاية. فكل ما في الوجود يجري لغاية.

وهو لا يجري بالظلم.. فالظلم محال على الله.

وهو لا ينهي الأمور في هذه الأرض، لأن الأرض ليست نهاية الحياة؛ واقتطاعها وحدها من الصورة يفسد ما فيها من الحق، ويخل بالنسب والموازن.

(١٧٤) سورة الملك [٢] .

(١٧٥) سورة الجاثية [٢٢] .

وتنفس الحياة بهذا التصور الشامل فلا تنقطع عند نهاية الحياة الدنيا، ولا نهاية حياة فرد ولا حياة جيل.. وإنما تمتد من الدنيا للآخرة.. ومن الأرض للسماء.. فسحة للنفس البشرية تعيش فيها على نطاق أوسع، وفسحة للفنون..!



والبشر لا يدركون حقيقة الصورة لأنهم يقطعون رباطاتها، وينظرون إليها أجزاء وتفاريق.

ينظرون إلى حياة فرد بعينه أو حياة جيل.. ويقفون عند الحادث المفرد كأنه "المقطع" الأخير في الصورة.. أو يقفون عند هذه الأرض.. فلا تتبين لهم الملامح، ويظنون خبط عشواء..

لماذا ماتت الطفلة.. ولماذا عاش الشيخ.. ولماذا وقع الزلزال.. ولماذا هزم الحق وانتصر الطغيان؟!

والإسلام يرد الناس عن الوقوف عند تلك الحوادث المجزأة المنقطعة، ويدعوهم إلى لوحة أوسع، يشاهدون فيها سير الحياة :

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا، فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا، قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا، قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا، قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا، فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا، فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيًّا بَغِيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا، فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا، أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ

لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا،
وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لُغْلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ
كَتْرٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَثْرَتُهُمَا رَحْمَةً مِّنْ
رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا" (١٧٦).

قصة موسى مع عبد الله الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه العلم اللدني الذي يتجاوز الحادثة المفردة واللحظة الحاضرة إلى ما وراءها من الحوادث وما وراءها من الأجيال.. ويربط ذلك كله بعلم الله الشامل وأمره النافذ بالحق.

إنها تفتح للقلب البشري مجال التأمل في اللوحة الواسعة، فلا يحصر انتباهه في اللحظة الحاضرة يحاول تفسيرها وحدها مقطعة عن ارتباطاتها اللاهائية بالأشياء والأشخاص والأحداث.

وهي لا تقول له - مع ذلك - إن البشر سيذكرون في كل حالة حكمة الأحداث! فعمر الفرد القصير وعلمه القاصر لن يتيح له الاطلاع على اللوحة بأكملها، وفيها جانب محجوب عنه في عالم الغيب، هو الجانب الذي لم يتحقق بعد في واقع الحياة، والذي يحمل تكملة أحداث اليوم، وما يترتب عليها من نتائج لا تدخل في الحساب!

وإنما تقول له فقط إن هناك حكمة وراء الأحداث! إنها ليست اعتباطاً، بلا غاية ولا ضابط. إنها ليست منفصلة كل منها قائم بذاته لا يترتب عليه شيء. إنها ليست مقطوعة عن علم الله وتدبير الله!

وتقول له : إن هذه الحكمة حق وعدل ولا باطل فيها ولا ظلم! فمن وراء علم البشر القاصر علم الله المحيط، ومن وراء الحادث الذي يبدو ظالماً اليوم - لأنه مقتطع من صورته المتكاملة - يتحقق عدل وخير كثير.

وتقول له : إن الله هو الملجأ لأنه هو العالم بما وراء اللحظة الحاضرة، وبما يمكن أن يترتب على الشر الظاهر من خير حقيقي، أو يترتب على الخير الظاهر من شر حقيقي : "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ" (١٧٧).

ومن ثم يطمئن القلب البشري إلى قدر الله، ويستسلم له ويرضاه!

○ ○ ○

(١٧٦) سورة الكهف [٦٠ - ٨٢] .

(١٧٧) سورة البقرة [٢١٦] .

ذلك هو فارق ما بين الإسلام والوثنية في تصور القدر.

وهو فارق عظيم..

ليس أقل ما يترتب عليه تصحيح التصور وتصحيح المقاييس.

فالإنسان - خليفة الله في الأرض - لا ينبغي له أن يعيش في تصور خاطئ وهو يملك أن يرى الصواب. لا ينبغي أن يكون تفكيره وتصوره محصوراً في دائرة ضيقة منقطعة عن ناموس الحياة الأكبر، وهو يملك طلاقة الفكر وطلاقة التصور والاتصال بالناموس الكبير.

وليس أقل ما يترتب عليه تصحيح المشاعر بعد تصحيح المقاييس.

فحين يستقيم للإنسان تفكيره ؛ حين يجعل تصوره مساوفاً لناموس الحياة لا منقطعاً عنه ولا مصادماً له ؛ حين تنفسح أمامه الصورة فلا يشوهها النظر إلى جزئياتها المتفرقة بلا رابط ؛ حين يرى رقعة الحياة الكبيرة ووجود القصد من ورائها واستقامة الغاية.. حينئذ تستقر نفسه وتنطلق مشاعره سليمة من القلق والاضطراب.

إن القلق العنيف الذي يستولي على النفس حين لا ترى حكمة القدر وغايته ؛ حين تؤمن بأن الوجود بلا غاية والحياة بلا أهداف ؛ حين تؤمن أن الحادث المفرد واللحظة الحاضرة هي القول الأخير في أي أمر ؛ حين تؤمن أن الحياة تنتهي هنا، بانتهاء هذا الفرد أو بانتهاء هذه الأرض.. هذا القلق مدمر محطم مميت..

إنه هو الذي يجعل الحياة نهبه تنهب، وصراعاً وحشياً على لذائذ الحياة..

وهو الذي يشيع في العالم اليوم ما يشيعه من انحلال وتفكك، وحيرة وتخبط، وصراع يوشك أن يصيب العالم بالدمار.

فأما حين تطمئن النفس إلى قدر الله.. والحق الذي خلقت به السماوات والأرض.. والعدل في البلاء والعدل في الجزاء.. فعند ذلك تنطلق من القلق المدمر المشتت، تنطلق تعمل نشيطة في سبيل الخير، لأنها طليقة طلاقة الناموس الذي يحكم الوجود، ويربطه بعضه إلى بعض برباط الجاذبية الرخية الودود، لا برباط التوتر الصارم العنيف!

وذلك موقف المسلم من القدر : التسليم للمغيّب المجهول، والعمل في نطاق الظاهر

المعلوم.

○ ○ ○

إن المسلم الذي يؤمن بالتصور الإسلامي على بصيرة، لا يجزع ولا يقلق ولا يضطرب لما يترقبه من قدر الله، لأنه قد سلم أمره إلى الله، واطمأن إلى إرادته فيه، واطمأن إلى أنه لا يريد له في النهاية إلا الخير. تهديه في ذلك علاقة المودة لله والحب، والرضى المتبادل من الجانبين "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ" (١٧٨) ولا تحكمه قط علاقة البغضاء والشحناء والصراع، التي لو ثت أساطير الإغريق وأفسدت شعورهم بالله. وهو في الوقت ذاته لا يتواكل عليه بحجة أن القدر مكتوب، ولا ينفذ إلا ما أَرَادَهُ الله!.

حقاً. لا ينفذ إلا ما أَرَادَهُ الله. ولكن قدر الله مغيب عن الأبصار. وليس يدري أحد مقدماً ما سيكون. ومن ثم ينبغي العمل.. العمل الدائب الذي لا يفتر: "خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" (١٧٩). "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ" (١٨٠) "وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ" (١٨١).

العمل الدائم في كل لحظة.. ولكن بلا قلق ولا جزع ولا اضطراب.

○ ○ ○

والصراع يحدث في الأرض. ولكنه ليس صراعاً مع القدر! ليس هناك ما يوجب الصراع مع القدر، فقد اطمأنت النفس إليه، ورضيت بحكم الله مطمئنة أنه الخير.. ولو لم يتكشف لصاحبه في حينه، بل لو لم يتكشف لعدة أجيال! وإنما يكون الصراع مع الشر الكائن في الأرض.. ويكون من أجل الخير في سبيل الخير:

"وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" (١٨٢).

(١٧٨) سورة المائدة [١١٩] .

(١٧٩) سورة الملك [٢] .

(١٨٠) سورة آل عمران [١٩٥] .

(١٨١) سورة التوبة [١٠٥] .

(١٨٢) سورة البقرة [٢٥١] .

يصارع الإنسان قوى "المجتمع"، وقوى "الطبقة".. إذا طغت عن حدها ومالت إلى الظلم. ولكنه لا يصارعها وفي حسه أنها "القدر"! ولا أنها البديل من الله! وإنما يصارعها وهو مرتبط بالله، مترقب لقدرة الله، مطمئن إلى حماه. ولا يستعجل نتيجة الصراع..

إن الصورة لا تكتمل في حياة الفرد ولا في حياة جيل.. ولا من الحادث المفرد واللحظة الحاضرة.

وقد يستغرق اكتمال الصورة حوادث متعددة وحيوات أفرد متعددة وحيوات أجيال..

أو قد يستغرق الحياة الدنيا كلها.. ولا يكتمل إلا في الآخرة يوم الجزاء.. ولكنه يكتمل في كل حالة.. فذلك هو ناموس الكون المتكامل الشامل المحيط، القائم بالحق في جميع الأحوال.

وانفساح الحياة على هذا النحو، وانفساح التصور، فوق أنه حقيقة واقعة يشهد بها ناموس الوجود كله، فهو حقيقة "فنية" رائعة حين يراد تصويرها في الفنون.

والأدب اليوناني مثل من الروعة الفنية في تصوير القدر.. ولكنه تصوير ناشئ عن تصور ناقص ومنحرف. تصور يأخذ الصورة من جانب واحد، غير متكاملة الترابط مع بقية الأجزاء.. ويأخذها من جانب انحراف وثني في تصور العلاقة بين البشر والله.

والتصور الإسلامي المستقيم المتكامل حري بأن ينشئ فناً آخر.. فناً يعرض حياة الأفراد والجماعات، والحوادث والأحداث، خلواً من اختلالات الفن اليوناني، ويعرض الصورة على حقيقتها المتمثلة في كل كيان الوجود.

حَقِيقَةُ الْعَقِيدَةِ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ

ما العقيدة؟

لماذا يؤمن الإنسان بوجود إله.. ثم يتجه له بالعبادة.. ويحبه ويخشاه؟
لم تقف البشرية لتسأل نفسها هذا السؤال.. سواء وهي تؤمن بالله الإيمان الحق، أو وهي تعبد على ضلالة.. في صورة وثن أو طوطم (١٨٣).. أو تعبد وتشارك به آلهة أخرى ليقربوهم إلى الله زلفى.
لم تقف لتسأل نفسها هذا السؤال، لأنه كان في حسها بديهية لا تحتاج إلى سؤال..

حتى أصابت أوربا النكسة في الحقبة الأخيرة، فراحت تسأل نفسها منكرة وجود الله، بل منكرة وجود إله على الإطلاق.. زاعمة أن ذلك كله كان أساطير الأولين!
هذه الحقبة ذاتها التي اضطربت فيها الموازين في أوربا، واهتزت القيم، واختلت الأفكار.

الحقبة التي آمنت فيها بحيوانية الإنسان وماديته. وأبت أن تؤمن إلا بما تدركه الحواس.

الحقبة التي أرادت فيها أن "تحرر" الإنسان من عبادة الله.. فأخضعته لجبرية المادة وجبرية الاقتصاد وجبرية التاريخ.. وألغت كيانه الذاتي من الوجود.

○ ○ ○

في فترة من الفترات كانت أوربا مسيحية..

وأياً كانت درجة إيمانها بالمسيحية، ودرجة تغلغل العقيدة الإلهية في النفوس التي درجت على الوثنية رداً طويلاً من الزمن يمتد إلى عشرات القرون.. فقد كانت المسيحية هي الطابع العام للتفكير الأوروبي، وكانت العقيدة في الله هي القاعدة لهذا التفكير.

(١٨٣) الطوطم (Totem) معبود تعبدته القبيلة يكون في الغالب حيواناً معيناً تعتقد القبيلة أن دمائه تجري في كل فرد من أفرادها، وهم يقدسونه فلا يذبحونه إلا في مناسبات دينية خاصة، وعندئذ يشربون دمائه لتجري في عروقهم من جديد. ولكل قبيلة طوطمها الخاص.

ثم حدث تطور كان في ظاهره في صالح الدين، بينما كان عدوًّا للعقيدة في حقيقة الأمر. ذلك هو ازدياد نفوذ الكنيسة، وامتداد سلطانها، حتى أصبح هو المسيطر على كل شؤون الحياة.

لقد صار للكنيسة سلطة لا في داخل نطاقها الروحي وحده - المستفاد من تصور الكنيسة ذاتها للدين - بل صارت الكنيسة سلطة زمنية إلى جانب السلطة الروحية، صارت تعزل الملوك وتوليهم، وتجيّش الجيوش، وتملك الإقطاعيات كأمرء الإقطاع، وفوق ذلك كله تتحكم في الناس بالإتاوات الجشعة، والتهديد بالطرد من ملكوت الله، والإخضاع المذل لرجال الدين.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل قامت الكنيسة تؤلف نظريات "علمية" عن الكون والأفلاك، وشكل الأرض وعمرها، وعمر الإنسان.. الخ. وتلزم الإنسان بالإيمان بها على أنها جزء من العقيدة من لم يؤمن به فهو كافر وخارج على الله.

فلما قام العلم النظري والتجريبي، القائم على أساس البحث والاستقراء والتجربة، والذي ترجع جذوره إلى طرائق العلم الإسلامي ومناهجه في الأندلس كما قال "بريفولت" .. لما قام هذا العلم يثبت خطأ هذه النظريات "المقدسة"، قامت قيامة الكنيسة، اعتزازاً منها بسلطانها، وخوفاً على القطيع البشري الذي تحكمه أن يفلت من بين أيديها، فيذهب عنها نفوذها وهيبتها، وذَهَبُها وفَضَّتُها، وما تتمتع به من استعباد للناس. وراحت في فظاظة ووحشية تقتل العلماء وتحرقهم لأنهم قالوا بكروية الأرض، وأنها ليست مركز الكون. ونال كوبرنيكوس وجاليلو على يديها ما يكفي لتكفير الناس من ذلك السلطان.

وظلت الهوة تتسع بين الكنيسة والعلماء من ناحية، وبين الدين والعلم من ناحية أخرى، والنفور يزداد، حتى كان دارون، الذي يوسم في الفكر الأوربي بالبطولة، لأنه وجه الضربة القاضية للكنيسة، فلم يعد وجودها بعد ذلك إلا لوناً من القصور الذاتي، لا وزن له في حقيقة الأمور (١٨٤).

في هذه الفترة، وعلى هَدْي ذلك الصراع بين الكنيسة والعلم، وترنح الكنيسة تحت معاول الهدم التي تتخذ "الحقائق" العلمية سلاحاً لها ضد "أساطير" الكنيسة.. انفلت الناس من السلطان الجائر الذي كان يخضعهم من قبل ويذلهم. وشعروا أنهم "يتحررون". ولكنهم في ثورتهم الجامحة المنفلتة من القيد، لم يقفوا ليسألوا أنفسهم: هل الكنيسة هي الخاطئة أم الدين هو المخطئ.. بل أخذوها حسبة واحدة مختلطة الأجزاء، ورموا الكنيسة

(١٨٤) انظر كتاب "معركة التقاليد" فصل "جولة مع التاريخ".

والعقيدة في الله معاً من قلوبهم وأفكارهم، وعادوا إلى وثنيتهن اليونانية الرومانية الأولى.. ولكن مع فارق خطير..

ففي تلك الوثنية الأولى كانوا يؤمنون بـ "الدين" ثم تنحرف أفكارهم في تصور طبيعة القوة الخالقة المدبرة، فيتصورونها آلهة متفرقة، ثم يتصورون العلاقة بينها وبين البشر علاقة مشاحنة دائمة وبغضاء..

أما اليوم فهم يقتلعون الدين من أساسه..

لقد "تقدموا"! لم تعد تنطلي عليهم الأساطير!

لا حقيقة إلا ما تدركه الحواس!

و "الدين" و "الله" و "العقيدة" أمور لا تدركها الحواس!

لقد كانت "أزمة ثقة" ..

أزمة أفسدت العلاقة بين الناس وبين كل ما كان يصل إليهم عن طريق الكنيسة ورجالها، سواء أكان حقيقة متزلة أم كان خرافة ابتدعها رجال الدين.

ولكن هذه الأزمة لم تقف عند حدها المعقول، ولم يُفَق منها الأوروبيون من قريب.

فبدلاً من أن ينظفوا الطريق من الأوحال والقاذورات، ويسيروا فيه على نظافة لأن السير فيه جزء من طبيعة الحياة ذاتها، وضرورة لازمة لكيان الإنسان.. بدلاً من ذلك فإنهم أهملوا الطريق كله وجعلوه من وراء ظهورهم، وراحوا يَزُوون وجوههم عنه في ضيق وعناد ونفور.

لقد آثروا أن يقطعوا الجناح الذي يرفرفون به في عالم العقيدة، وعالم الطلاقة، وعالم الروح.. لأن أثقالاً قد علقت بهذا الجناح، أو وخزاتٍ قد أدمته.. ثم.. جثموا على الأرض لا يستطيعون التحليق بأرواحهم في عالم النور.

آثروا أن يقطعوا صلتهم بالسماء، لأن بعض المدلسين قد استغفلوهم رداً من الزمن باسم السماء.. فلم تعد وجوههم تتطلع إلى أعلى، وإنما صارت تنظر إلى تحت.. إلى الطين.. إلى الأوحال. ويقولون هذا هو الواقع.. لأنه هو الذي تدركه الحواس!

وانطلق "العلماء" (١٨٥) يشرعون أسلحتهم لمهاجمة العقيدة وتشويه صورتها وتسخيفها ورميها بكل منكر من القول غليظ.

(١٨٥) وخاصة اليهود - مثل فرويد وماركس - الذين وجدوا في ثورة الناس على الكنيسة فرصة مناسبة لتحطيم المسيحية عدوهم القديم .

فرويد - في حمأة الجنس التي عاش فيها بتصوراته وأفكاره - قال إن العقيدة إفراز جنسي، ينشأ من عقدة أوديب. من كبت الطفل لرغبته الجنسية نحو أمه، بسبب وجود الأب الذي يزاحمه ويطرده من الطريق! (وبهذه المناسبة لم يقل لنا فرويد كيف تنشأ عقدة أوديب في نفوس الأطفال الذين يموت آباؤهم قبل أن يروا النور؟.. وكيف ينشأ الضمير في نفوس هؤلاء الأطفال وكيف ينشأ الدين، وهما الإفراز المباشر لتلك العقيدة اللعينة التي عذبت ذلك "العالم" العظيم!).

وماركس - في حمأة الاقتصاد التي عاش فيها بتصوراته وأفكاره - قال إنها إفراز اقتصادي تنشئه طبيعة المجتمع " الطبقي "، وتستغله الطبقة التي تملك وتحكم، لإخضاع الطبقة المحكومة، والتغريب بها لتنسى حقوقها المسلوبة، تحت تأثير المخدر الذي يمنحها بالتعويض عن حرمان الأرض بحياة أخروية مزعومة (وبهذه المناسبة لم يقل لنا ماركس لماذا وجد الدين في المجتمع " الشيوعي " الأول الذي لم يكن يمارس الملكية الفردية - في ظنه - ولم ينقسم إلى طبقات؟ وما المهمة التي كان يؤمنذ يستغل فيها الدين؟!).

وقال غيرهما من " العلماء " أشباهاً من هذه الانحرافات..

وأخذت الفنون الأوربية - والماركسية خاصة - تجند طاقاتها للتشجيع على العقيدة والزراية بها.. أو في قليل تململها كأنما ليس لها وجود في واقع الحياة ولا خط سير البشرية.. ثم تجيء الفنون المزورة التي تعيش في الشرق العربي اليوم بلا غاية ولا هدف ولا أصالة ولا وعي، فتقلد هذا الأدب المنحرف، بل تزيد إسفافاً عنه، فتمثل الحقيقة الإلهية الكبرى في حقيقة بشرية محدودة فانية. وتمثل الملائ الأعلى وساحة الوجود الكبرى في حديقة أرضية. وتمثل حقيقة البشرية الواسعة المديدة في حياة حارة. وتمثل حقيقة النبوة والرسالة في شخصية حشاشين!!

نكسة مخزية في عالم الإنسان وفي عالم الفنون!

○ ○ ○

العقيدة حقيقة عميقة في كيان هذا الوجود..

كل ما في الوجود مهتد إلى الله، سائر على هداه :

" رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى " (١٨٦).

(١٨٦) سورة طه [٥٠] .

وليست هذه " حقيقة روحية " فحسب، تدركها الروح الواصلة، المتصلة بضمير الوجود، الشاعرة بوحدة الاتجاه ووحدة العبادة، وأن كل شيء يسبح بحمده : " وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ " (١٨٧) " وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ " (١٨٨) وكل شيء يتجه لعبادته : " سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (١٨٩).

ليست حقيقة روحية فحسب، تدركها الروح الواصلة، وإنما هي كذلك " حقيقة علمية ".

فأي شيء في هذا الوجود لا يسير على القانون الذي أراده له الله؟ أي فلك من الأفلاك يجري على مزاجه الخاص، غير مُراعٍ لناموس الخلق؟ أي كائن من الكائنات لا يسير على الفطرة التي فطره عليها الله؟ أي كائن ينشئ له قانوناً خاصاً يضاد قوانين الله؟ ذلك معنى العبادة.. الطاعة للخالق، والعمل بمقتضى إرادته..

إلا الإنسان : المخلوق الذي كرمه الله وفضله، ومنحه الإدراك والوعي، فجعل طاعته لله واعية مُدركة، لا كبقية الطاعات التي يتقدم بها الكون لمولاه.. ومنحه حرية الاختيار بعد أن علمه ووعاه..

عندئذ اختار فريق من بني الإنسان أن يخرجوا على طاعة الله، جزاء التكريم الذي كرمهم به الله!

○ ○ ○

الكون كله يتوجه إلى الله بالطاعة والعبادة..

" ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " (١٩٠).

وما كانت تملك السماء والأرض إلا الطاعة حين يأمرهما الله. فهو الخالق، وهو الذي أودع فيهما الناموس الذي تتحركان به وتأتيان به إلى الله.. ولكن التعبير الجميل الكريم، لا يريد أن يشعر الخلق بالقهر. لا يريد أن يقول : إنهم لا يملكون إلا الطاعة. وإنما يجعل الطاعة منبعثة من كيانهم هم، فكأنما حين يطيعون يستجيبون لفطرتهم الذاتية لا لقهر

(١٨٧) سورة الإسراء [٤٤] .

(١٨٨) سورة الرعد [١٣] .

(١٨٩) سورة الحديد [١] .

(١٩٠) سورة فصلت [١١] .

ينصب عليهم من خارج الفطرة. وهذه حقيقة وتلك. فإنما عند الله تلتقي الحقائق كلها، من كل زوايا الوجود!

وكل شيء يسبح بحمده: " وإن من شيء إلا يسبح بحمده. ولكن لا تفقهون تسبيحهم ".

لا تفقهون تسبيحهم إذا حكمتهم بظاهر الأشياء. بما تدركه الحواس.. فعندئذ سيبدو لكم الكون صامتاً لا يسبح، جامداً لا يحس، ميتاً لا حياة فيه.

ولكن الروح الواصلة تفقه تسبيح كل شيء، لأنها - ككل شيء - تتصل بالله، وتتطلع إلى حمائه، فتلتقي بشقيقاتها من أرواح الكون، على نهج واحد، واصل إلى هناك.

والروح مزية الإنسان العظمى.. إنها المنحة الكبرى في خلقته. المنحة التي نقلته نقلة بعيدة عن سائر الخلائق في الأرض. فرفعت عالمه أن ينحصر في نطاق المادة، أو يتقيد بقيود الحس. وأعطته القدرة على أن ينطلق من كل قيد، فيتصل بالمجهول. يتصل بضمير الكون.. ويتصل بالله.

○ ○ ○

والعقيدة غذاء الروح..

ومن ثم فهي حقيقة بديهية في كيان الإنسان، بقدر ما هي حقيقة بديهية في كيان الكون والحياة.. مع ذلك الفارق الذي يتميز به الإنسان. وهو " الوعي " بكل ما يجيش بخاطره من فكر أو وجدان.

ولا مناص للإنسان، حين يواجه الكون من حوله، وتنفعل به نفسه انفعال الأحياء.. أن يدرك بوعيه كما يدرك بما وراء الوعي أنه لا بد لهذا الوجود من موحد.

ولا مناص له أن يدرك أن هذه الدقة المعجزة التي يتسم بها الكون، وهذا التناسق، وهذا الترابط، وهذا الإبداع، لا يمكن أن يكون اعتباطاً بغير قصد، ومصادفة بغير تدبير. وأن الموجد الذي أوجده لا بد أن يكون عاقلاً مدبراً حكيماً، له غاية من الخلق والإبداع. ولا مناص له حينئذ أن يدرك أن الموجد هو الله. الواحد الأحد الذي لا خالق غيره ولا شريك.

ذلك حين تستقيم الفطرة.

ولكن فطرة الإنسان تنحرف أحياناً فينحجب عنها النور.

تنحرف فلا ترى هذه البديهيات التي تنطق بها فطرة الوجود.

وتروح تخبط في التيه.. وتتصور تصورات شتى ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد كان أشد هذا التصورات انحرافاً تلك النكسة الحيوانية التي أصابت أوروبا في جاهليتها الحديثة، حين أرادت أن تحصر الإنسان في النطاق الحيواني الضيق، نطاق ما تدركه الحواس، وتحجب عنه آفاق الكون الطليقة الفسيحة التي لا تدركها الحواس وحدها وإنما تدركها الروح.

ومع ذلك فـ " العلم " الحديث ذاته، الذي فتن أوروبا حقبة من الزمن عن حقيقة الله، يأبى اليوم أن يساير الفطرة الأوربية المنحرفة التي تريد أن تنكر الله، وتنكر من الحقائق ما لا تدركه الحواس!

العلم لم يعد يعرف " المادة " فقد أطلقها التفجير الذري فأصبحت " طاقة " !
وصار العلماء يعرفون اليوم أن الكون ليس مجموعة مواد، وإنما هو مجموعة طاقات. طاقات متحركة يتجاذب بعضها مع بعض برباط متين. ومن ثم ارتفع ذلك الحاجز البغيض الذي وضعته أوروبا بين " الطبيعة " و " ما وراء الطبيعة " في فترة الانحراف والجمود.

وبقي أن تتفتح بصيرة القوم كما تفتحت أبصارهم، فيعرفوا أن هذه الطاقات حية في حقيقتها، وأن الرباط الذي يربط بينها هو الحب، وأنها كلها مهتدية إلى الله، لأنها تسير وفق الناموس الذي أراده الله.

أما العقيدة فقد أدركت ذلك منذ القدم.. في عهود سحيقة من التاريخ.. قبل أن يصل العلم إلى شيء في هذا السبيل.. لأن الروح المهتدية إلى الله هي أكبر منابع " المعرفة " في هذا الوجود.



والعقيدة في الله هي أضخم الحقائق في حياة الإنسان، كما هي أضخم الحقائق في كيان الوجود.

إنما هي التي تكشف له حقيقته الجوهرية الفذة.

هي التي تكشف له عمق نفسه واقتدار طاقاته.

هي التي تكشف له عن مهمته الخطيرة في كيان الوجود كله.. مهمة الخلافة عن الله.

وعندئذ تكشف له عن حقيقة صلاته بالله، وصلاته بالكون والحياة.. وأخيه الإنسان.

حين تتأصل العقيدة في النفس فإنها تصل بين الإنسان وبين الحقيقة الكبرى - حقيقة الألوهية - بشتى المشاعر، من الحب والرغبة والخوف والطمع والأمل والرجاء. وتصل بين الإنسان والكون والحياة بصلات من التعاطف والمودة والقربى. وتصل بينه وبين أخيه الإنسان برباط من الحب الحيّ المتدفق الفياض. وتربط كيان النفس، فتستقيم على المنهج الواصل، توحد بين طاقاته المتفرقة وأوجه نشاطه المتباينة، فتجعلها طريقاً واحداً ذا غاية واحدة. وتوحد بين الدنيا والآخرة، والعمل والعبادة، والأرض والسماء.

وكل واحد من هذه المشاعر يصلح ميداناً لألوان لا نهاية لها من الفن. هي من الضخامة والشمول والعمق، بحيث تخاطب " الإنسان " في جميع حالاته وأجياله وبيئاته. لأنها تخاطبه في أعماق أعماقه. تخاطبه من حيث هو " إنسان " لا من حيث هو قطعة من هذا الجيل أو هذه البيئة أو ذلك المكان.

ومن ثم فهي فنون " إنسانية " باقية ما بقيت الحياة.



وليس من الضروري أن تكون تعبيراً مباشراً عن مشاعر العقيدة وسبحاتها ووجداناتها. وإن كانت هذه بطبيعة الحال فناً أصيلاً رائعاً يصل إلى القمة من عالم الفن، حين يؤدي بأداء صحيح.

ولكن المهم هو تصوير الحياة من خلال العقيدة، وإبراز حقيقة العقيدة العميقة في كيان الحياة.

إن العقيدة هي التي قادت خطى البشرية في ظلام القرون، وأخرجتها من الحس الحيواني الذي لا يؤمن إلا بالחסوس، إلى الحس الإنساني الذي يؤمن بالغيب والمجهول، ويدرك من التناسق والقصد في هذا الوجود ما يبحث له عن مبدع. وهي التي تربط الكيان البشري بهذا الوجود، كما تربط بين الإنسانية وبين خالقها الذي انبثقت من إرادته برباط وثيق من الحب والتطلع والرجاء.

هي التي أطلقت الإنسان من إसार جسده الجاثم على الأرض فاستطاع أن يخلق بروحه في السماء.

هي التي وسعت له مجال حياته ومجال مشاعره وأفكاره، فحررته من حدود هذه الأرض، وهذه الحياة الدنيا، ومنحته الاتصال بالكون الأكبر، والاتصال بالآخرة وهو بعد في دنياه.

والفن الصحيح لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة.

ينبغي أن يصورها من خلال النفوس الحية التي تعيش فيها وتتأثر بإيحاءاتها. يصور كيف تتأثر هذه النفوس بالعقيدة وكيف يصبح سلوكها وكيف تكون تصرفاتها. وكيف يتحدد موقفها من كل حدث وكل إنسان وكل شيء في هذه الحياة.

كما يصورها من خلال النفوس التي تفرغ من العقيدة، فتتحرف وتضل، وينحصر تفكيرها وتصورها وشعورها في نطق صغير محصور، آسنٍ لأنه محجوب عن الاتصال بالكون المتحرك الكبير.

ويصور البشرية كلها في تاريخها كله على أساس هذه القاعدة الإيمانية وأثرها في واقع الحياة، في حدود الواقع الصادق الذي لا تكتمل صورته في حياة فرد أو حياة جيل، وإنما تكتمل على اللوحة العريضة التي تسع الأفراد والأجيال.

المهم أن تحس دائماً بحقيقة العقيدة، سواء كانت موجودة في النفس ومؤثرة في توجيهها إلى طريق معين وسلوك معين، أم غائبة عنها، مؤثرٌ غيابها في توجيه هذه النفس في طريق الضلال والحيرة والاضطراب.

وهنا يفترق الفن الإسلامي عن الفن الغربي الحديث، والفن العربي المزور الذي ينقل عنه نقل القروود ونقل العبيد.

ففي هذا الفن الأخير لا تحس بوجود العقيدة وأثرها في الحياة. لا تحس أن الحياة مرسومة من خلال العقيدة، سواء من خلال وجودها أو غيابها. بل تجدد تعمداً في إغفال العقيدة وعدم ذكرها في مجال الفن، ولا التعرض لها.. إلا أن يكون التعرض سخرية بالدين والمتدينين!

وقد يكون هذا "واقعاً" بالنسبة لأوروبا، لأنها تعيش اليوم بمعزل عن العقيدة.

ولكنه واقع صغير منحرف ضال.. واقع جيل من الأجيال شردته الأحداث وأخرجته عن صوابه.

والفن الأصيل ليس مأذوناً أن يصور هذا الواقع الصغير المنحرف على أنه الأمر الواقع فحسب! وإنما يصوره على حقيقته: على أنه ضلال وانحراف. فلاشياء - كما قلنا

من قبل (١٩١) - لا تستمد كيائها من مجرد وجودها، وإنما تستمد من وجودها الصحيح وإلا فهي خطأ، ولو بقيت ألف عام.

والفن الأصيل لا يستمد كيانه ولا مقاييسه من الواقع المنحرف لجيل من الأجيال. إنم يستمد كيانه ومقاييسه من حقائق الكون الكبير. ذلك أنه تعبير جميل عن حقيقة الكون وحقيقة وجوده.

ومن ثم ينبغي أن يبرز الفن حقيقة العقيدة بمقدار ما هي حقيقة كونية عميقة شاملة، وينبغي أن يرسم من خلالها كل حقائق الحياة. سواء كانت موجودة وحية ومستولية على النفوس، أو غائبة عنها، تاركة إياها للانحراف والضلال.

وحين يعبر الفن - بوسائله التعبيرية الجمالية الخاصة - عن حقيقة العقيدة في ذلك الإطار الواسع، فإنه لا يعمل على رفعة البشرية وإطلاقها من إसार الضرورة والقيود والانحسار في النطاق المحدود فحسب، بل إنه - من الوجهة الفنية البحتة - يكون فناً "كونياً" واسعاً، لأنه يعبر عن حقيقة الوجود.

(١٩١) فصل " الواقعية في التصور الإسلامي " .

الفن الإسلامي حقيقة ومجالاته

في الفصول السابقة استعرضنا الخطوط العريضة للفن الإسلامي ومجالاته المختلفة، وصارت لدينا - فيما أحسب - فكرة عن حقيقة هذا الفن، والمجالات التي يعمل فيها، والرقعة التي يطل عليها من صفحة الوجود.

رقعة فسيحة تشمل كل حقائق الوجود.

ولقد تبين لنا من خلال استعراض هذه الخطوط العريضة أن الفن الإسلامي ليس هو الفن الذي يتحدث عن حقائق العقيدة مبلورة في صورة فلسفية، ولا هو مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات. وإنما هو شيء أشمل من ذلك وأوسع.. إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود، من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود.

ونريد في هذا الفصل أن نجتمع هذه الخطوط العريضة فنخرج منها بصورة شاملة للفن الإسلامي، حتى إذا عرضنا نماذج من هذا الفن في الفصل القادم، عرضناها على ضوء ما ندركه من خصائص هذا الفن ومفاهيمه.



ليس من الضروري أن يتحدث الفن الإسلامي عن الإسلام : حقائقه، وعقائده، وشخصياته، وأحداثه، وإن كان من الجائز بطبيعة الحال أن يتناول كل هذه الموضوعات.. ولكنه يتناولها، كما يتناول الوجود كله، وكل ما يجري فيه، من زاوية إسلامية، ويستشعرها بحس إسلامي.

قد يتحدث لنا الفنان عن البرعم النابض الذي ينبثق من ضمير الحياة.

قد يتحدث عن الجبل الشامخ الأشم.

قد يتحدث عن نبتة وحيدة في الصحراء.

قد يتحدث عن الليلة القمرية.

قد يتحدث عن طفلة شريفة.

قد يتحدث عن مواعج البشرية.

قد يتحدث عن ضربة من ضربات القدر.

قد يتحدث عن صراع الناس في الأرض.

قد يتحدث عن بطل أسطوري.

قد يتحدث عن ذلك كله فيكون منه إسلامياً، إذا تلقاه في حسه بتصور الإسلام الصحيح وعبر عنه بروح ذلك التصور.

وقد يتحدث عن الرسول ﷺ أو عن غزوة من غزواته، أو عن حقيقة من حقائق العقيدة، فلا يكون منه إسلامياً إذا تحدث عنه بغير هذه الروح، ودون إدراك الحقيقة التصورية الإسلامية.

لو حدثنا عن الرسول ﷺ - مثلاً - على أنه " بطل " من أبطال البشرية. على أنه جماع الخير وممثل الفضائل. على أنه شخصية عبقرية متعددة الجوانب عميقة الغور.. فإلى هنا لا يكون منه إسلامياً مع أنه يتحدث عن رسول الإسلام ذاته، ويتحدث عنه بروح الإعجاب والتقدير!

إنه يتصور الحياة البشرية - فضلاً عن قمة هذه الحياة المتمثلة في النبوة - على أنها حقيقة أرضية منقطعة عن حقائق الكون. ويتصور النبوة على أنها ضخامة بشرية منقطعة عن الحقيقة الكبرى - حقيقة الألوهية.

وليس هذا تصور الإسلام!!

ولكنه حين يصورها على أنها حدث كوني، يلتقي بناموس الوجود الأكبر المهتدي إلى الله بجميع طاقاته وجميع كائناته.. حين يصورها على أنها نور كوني مشع لأنه قبسة من نور الله.. حين يصورها على أنها إشراقة كونية أشعلت الحياة على وجه الأرض وأنارت لها الطريق لكي تسير على النهج، وتتوحد في اتجاهها مع اتجاه الكون الكبير.. حين يصورها على أنها حقيقة واصله بين السماء والأرض، تسير بقدميها على الأرض وترتفع بروحها في السماء. حين يصورها على أنها الصورة المشرقة للخلافة عن الله في الأرض.. فحين ذلك يكون فناً إسلامياً صادق التصوير لحقائق الإسلام.

وحين يصور غزوة بدر - مثلاً - على أنها معركة حدثت في الأرض بين جنود الخير وجنود الشر، وأن جنود الخير على قلتهم قد انتصروا على ضعف عددهم من الناس لأنهم أصحاب عقيدة أو لأنهم على الحق وأعدائهم على الباطل.. فرمما يكون قد دخل مجرد دخول في عالم الإسلام والفن الإسلامي.. ولكنه لم يرق فيه صعداً، ولم يصوره في الرقعة الفسيحة التي يحققها الفن الواصل المنير.

أما حين يوسع رقعتها فيصورها على أنها سنة من سنن الكون : أن النور يطرد الظلمة، والهدى يطرد الضلال. حين يصورها في ساحة القدر العليا.. كيف تدخل قدر الله فقاد الجماعة المسلمة من حيث أراد المسلمون لأنفسهم، من معركة صغيرة في سبيل الغلبة المادية على متاع من متاع الأرض، إلى المعركة الحقيقية الكبرى العميقة في كيان

الوجود، معركة العقيدة، معركة الفرقان بين الحق والباطل إلى آخر الزمان (١٩٢) فانتصروا من حيث لا يشعرون على معنى الشرك كله ومعنى الضلال كله. وتقررت حقيقة العقيدة في هذه الأرض ناصعة جليلة خالدة. وارتفع الإنسان على نفسه. على عالمه المباشر الذي يعيشه بحواسه، إلى العالم الأكبر الذي يعيشه بروحه: "وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُيَسِّلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ" (١٩٣).. حين ذلك يكون فناً إسلامياً عالياً، لأنه ينقل الحادث المفرد واللحظة العابرة إلى دلالتها الكونية في الساحة الخالدة.. فيكون صادق التعبير عن حقائق الوجود وحقائق الإسلام.

وعلى هذا النسق نستطيع أن نتصور حقيقة الفن الإسلامي ومكانه في الفنون.



ومجالات الفن الإسلامي هي كل مجالات الوجود مرسومة من خلال النفس المؤمنة المتفتحة للإيمان.

فحين يتحدث عن الكون.. عن "الطبيعة".. فهو يراها خليفة حية متعاطفة، ذات روح تسبح وتخشع، وتغضب وترضى، وتصادق وتعادي.. تصادق الحق وتغضب على الباطل.. ويرى في كل كائن نوعاً من الحياة والروح، من وراء الأشكال التي قد تبدو جامدة أو ميتة. كما يقول القرآن عن السماء والأرض: "فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ". وكما يقول الرسول ﷺ عن جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه".

وحين يتحدث عن الخلائق "الحية" من حيوان وطيور ونبات، فهو يحس نحوها بالتعاطف والمودة ووشائج القرى التي تصل كل الكائنات بعضها ببعض، وتصل بين الأحياء خاصة في هذه الأرض.

وحين يتحدث عن الإنسان فهو يرى فيه خليفة الله في الأرض. فهو ليس إلهاً ولا رغباً في أن يكون إلهاً أو شبه إله. فذلك كله ليس حقيقة. والحقيقة الواحدة أن للكون إلهاً واحداً هو الله. ولا ينبغي أن يكون فيه أكثر من إله، ولا أشباه إله. والإنسان من جهة

(١٩٢) يعني التعبير القرآني بتقرير هذه الحقيقة الكبيرة في قوله تعالى: "يوم الفرقان يوم التقى الجمعان"
ويبلغ الفن الإسلامي قمته حين يتناولها من هذه الزاوية التي يشير إليها التعبير القرآني.
(١٩٣) سورة الأنفال [٧ - ٨].

أخرى ليس كمية سالبة تتحكم فيها قوى الاقتصاد والمادة ومختلف الجبريات الأرضية. فذلك كله ليس حقيقة. والحقيقة أن الإنسان عنصر إيجابي في هذا الوجود. محسوب حسابه في تصميم الكون، ومسخر له السماوات والأرض من عند الله. والحياة متأثرة بأفعاله سواء في الخير أو الشر. وإرادة الله ماضية عن طريقه ومن خلال وجوده وتصرفاته. وهو كذلك مخلوق ليس بالملك ولا بالشيطان.. وإنما هو إنسان!

وهو مشتمل على قدرات وطاقات ترفعه إلى أعلى حين يعرفها ويحسن استخدامها. ولكنه مشتمل كذلك على منافذ للضعف ومنافذ للغزو، ينفذ منها عدوه الأصيل وهو الشيطان. والمعركة دائمة على أشدها لا تفتر بين الإنسان والشيطان منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. والإنسان الأعلى يقضي حياته - رغم ضعفه البشري - يحاول أن يسد في نفسه منافذ الشيطان. وهو إنسان بقدر هذه المحاولة، وبقدر ما يصطبر عليها أمام شتى المغريات.

وفي ميدان الصراع بين الإنسان والشيطان يجد الفن الإسلامي آفاقاً واسعة وجوانب رائعة، وحقولاً خصبة للإبداع الفني الأصيل.

والإنسان يصور في لحظة القوة ولحظة الضعف. ولكن يُهتف له دائماً من جانب الصعود. فجانب المهبوط موجود من نفسه لا يحتاج إلى هتاف! ولحظة الضعف لا تحتاج إلى تسجيل!

لحظة الجنس الطاغية التي تُفقد الإنسان ضوابطه، فلا يملك نفسه وينحرف في التيار.. هذه اللحظة بكل ما فيها من انفعالات عنيفة ودفعات دافقة، لا تستحق أن يقف عندها الفن يصورها المعجب بها، المهتز لها، المتفنن في تسجيل دقائقها، الحريص على إبراز كل جزئية من جزئياتها، المستمتع بها، الذي يريد أن ينقل هذه المتعة للآخرين (١٩٤). لا تستحق.. لأنها لحظة هبوط وليست لحظة ارتفاع.

لا تستحق أن يقال فيها الشعر وتصفها القصة وتصورها اللوحة المرسومة أو الصور المتحركة. لأنها ليست في سبيل تأكيد حقيقة الإنسان. وإنما هي تؤكد الجانب الأرضي المحدود من الإنسان. وهذا ليس في حاجة إلى تأكيد! فهو حقيقة غليظة جاثمة بكل غلظها على الأرض. حقيقة واضحة مقررة يشترك فيها الحيوان والإنسان. ومن ثم لا يختص بها الفن الإنساني. وإنما الفن الإنساني موكل بتسجيل "الإنسان". تسجيل الخصائص التي تفرد بها هذا الإنسان وتميزها عن سائر الكائنات في الأرض. فإذا سجل لحظة الوجود "الحيواني" فعلى أنها وجود حيواني، لا على أنها قمة يرتفع إليها الإنسان!

(١٩٤) لا يدخل في حسابنا بطبيعة الحال أولئك الذين يريدون أن يفسدوا المجتمع عن عمد ويشيعوا الفاحشة فيه لغرض ملتو خبيث، وإنما نتحدث عن الذين يظنون - مخلصين - أن ذلك فن من الفنون.

لقد يخيّل للإنسان في ساعة الشهوة الجارفة التي يسميها " الحب " خطأ منه، أنه يحقق كيانه الأسمى، ويرتفع على الواقع الصغير واللحظة العابرة فيتصل بآفاق الوجود العليا وحقائق الكون الكبير. وذلك ليس حقيقة.. إلا أن يكون هذا الحب خالياً من الدنس : دنس المخالفة عن نوااميس الحياة. وكل ما يحدثه الحب الشهواني - أحياناً - من " تهيوّات " الرفعة والطلاقة، فهي كتهيوّات المخمورين.. لا تعبر عن الحقيقة. ومن ثم لا تستحق حفاوة الفن، ولا تستحق حفاوة الإسلام!

ولا يحتاج الأمر إلى جدل بشأن ما تشتمل عليه تلك اللحظات الهابطة من لذة وإمتاع! فتلك بديهة من بديهيات التجربة البشرية الحسية الأولية : أن الشهوات كلها مغرية ومحبة للإنسان : " زين للناس حب الشهوات.. " ولكن للإنسان طاقات أعلى وآفاقاً أرحب، يستطيع أن يحس فيها " بجمال " أرفع وأعلى، هو ضبط هذه الشهوات - رغم ما لها في نفسه من إغراء وتزيين - والاكتفاء منها " بالطيب " النظيف.. ثم هناك درجات أعلى، قد لا يصل إليها كل إنسان - ولكنها موجودة رغم هذا في عالم الواقع - وذلك حين لا يقف الإنسان عند " ضبط " هذه الشهوة وهو منجذب إليها في داخل نفسه - وتلك في ذاتها مرتبة رفيعة وعالية - بل يستطيع كذلك أن يحس إحساساً حقيقياً بالنفور من كل متعة هابطة، والتقزز من كل عمل فاحش.. ولا يشعر أنه محروم مع ذلك من المتاع، بل كاسب متعة الشعور بالنظافة والاستعلاء!

وتلك قمة الإنسانية.. القمة التي تحاول التربية الإسلامية أن تصل إليها.. بهدّي من الله ورسوله، والتي يرسم الفن الإسلامي لمحات منها، حين يستطيع الفنان المسلم أن يصل إلى هذا المستوى الرفيع في تجاربه الشعورية الذاتية.

وإنما يعالج الفن الإسلامي موضوع العلاقة بين الجنسين من خلال تصويره لهذه العلاقة.. من خلال تحقيقها لأهداف الحياة العليا.. من خلال رفعها للرجل والمرأة كليهما إلى مستوى الإنسانية.. من خلال حثها كلاً من الرجل والمرأة على إبراز أجمل ما عنده وأرفع ما عنده.. من خلال توسيع دائرة الشوق الجنسي حتى يشمل الأشواق العليا المتصلة بصميم الكون وفطرة الحياة، والتي لا تقف عند اللحظة العابرة واللقاء العارض بل تمتد حتى تشمل الحياة كلها، ونظام الحياة المستمد من الحقيقة الكبرى المسيطرة على كل شيء في هذه الحياة.

وقد يعالجها كذلك من زاوية الهبوط والضعف.. حين تصبح هي شاغل الحياة، ومزلقاً يؤدي إلى الهبوط عن آفاق الحياة العليا. حين تصرف الإنسان عن الاشتغال بالمشكلة الكبرى في حياة الأرض : مشكلة إحقاق الحق والعدل الأزليين، في السياسة والاجتماع والاقتصاد وعالم الفكر وعالم الروح.. مشكلة الصراع مع الشر في جميع

صوره وأشكاله.. مشكلة تحقيق الغاية العليا من وجود الإنسان وخلافته عن الله في الأرض. ولكنه يعالجها حينئذ على أنها هبوط لا على أنها ارتفاع.

فإذا أراد شخص أن يقول : إما لحظة الجنس وإما لا فن على الإطلاق.. فليقل ذلك. ولكن فليعرف أنه - بالمقاييس الكونية والمقاييس "الإنسانية" - شخص منحرف. وأنه لا يستطيع - مهما بدا في نظر نفسه جميلاً ورشيقاً وممتعاً - أن يفرض انحرافه ذلك على سنن الكون والحياة.

والفن - لا شك - أوسع من عالم الجنس لأن الحياة أوسع وأرحب من أن تنحصر في هذا النطاق. وحين "يُحرَّم" الناس من متعة الشهوة في عالم الفن - ولا حرمان في الحقيقة للإنسان المترفع، الذي يتعود حسه على النظافة في كل شأن من شؤون الحياة - فعليهم أن يتعودوا تذوق مستويات أعلى من الجمال : المستويات الفسيحة الرحبية، التي تشمل الحياة في نطاقها الأوسع، والتي تعوض عن الجمال الأصغر الذي تفوته بالجمال الأكبر الذي تسعى إلى تحقيقه.. جمال "الخير" وجمال "الحق" وجمال "العدل".. وجمال إقامة الحياة البشرية على هذه المعاني الجميلة كلها، والنضال المستمر في سبيل هذا الهدف، الذي يتصل - حين يتحقق - بسنن الكون كله والحياة.



ومراعاة "التناسق" ذاته - وهو عنصر من عناصر الجمال الكوني - تقتضي أن تكون رقعة الجنس في مكانها الصحيح من لوحة الفن، التي هي في الواقع تصوير جميل موحٍ للوحة الحياة.

وقد يقال إن الفنان شخص "مختل النسب" بطبعه! وإن الجمال هو هذا الاختلال! وتلك نظرة سطحية منقطعة عن الحقيقة الكبرى.. حقيقة الكون المتناسق في كل حركة من حركاته وكل جزئية من جزئياته، تناسقاً لا يختل - مع حركته الدائمة منذ الأزل، حقباً لا يعرف مداها إلا الله.

نعم إن الفنان كائن ذو حساسية خاصة. فهو لا يحس الأشياء كما يحسها البشر العاديون، ولا بالنسب التي تراها بها العين الآلية المجردة، التي لا "تنفعل" بما تراه.

ولكن ذلك ليس معناه اختلال النسب في حس الفنان!

إنه بتأثير هذه الحساسية المنفعلة بالأشياء - يحس كل شيء أضخم من "حقيقته" الظاهرية التي تراه بها العين الآلية المجردة. ولكن مع احتفاظها بنسبها بعضها إلى بعض، لأن

تكبير اللوحة كلها لا يقتضي الإخلال بجزئياتها، وإنما هو يبرز هذه الجزئيات كلها، ويجعلها - في مجموعها - واضحة قريبة يتملاها الحس بلا عناء.

وتلك هي موهبة الفنان وعبقريته. فالفنان هو العدسة المكبرة التي تكبر حقائق الحياة وتوضحها للرؤية. أو العدسة المقربة التي تقرب المنظر للحس حتى تبدو جزئياته البعيدة المختلطة المبهمة واضحة مفصلة محددة - مع ترابطها وتناسقها. أو هو العدسة " الكاشفة " التي تكشف عن حقائق الأشياء الباطنة التي لا تراها العين الظاهرة.

ولكن هذه العدسة - أياً كان وصفها - حين تقوم بعملها في التكبير أو التقريب أو الكشف - لا تخل بنسب الأشياء بعضها إلى بعض، ولا تفسد ما بينها من تناسق وارتباط.

وإنما أقرب إلى الحق أن يقال إن " بعض " الفنانين قد احتلت النسب في نفوسهم، فهم يرون الحياة كلها من خلال جزئية واحدة من جزئياتها : من خلال الجنس، أو من خلال الصراع الطبقي، أو من خلال التفسير المادي للتاريخ.. وهؤلاء مختلون بوصفهم بشراً وكذلك بوصفهم فنانين. فليس للفن مقياس وحده ينزل به عن مقاييس البشرية الحقيقية، التي هي في مجموعها إحدى الجزئيات المتناسقة في مقياس الكون الكبير.

وعلى الرغم من كل الحقائق الجميلة التي قد يعثر عليها فنان له هذه الاختلالات، فمن المسلم به من بديهيات هذا الكون - وبديهيات الحس البشري - أن الحقيقة الأشمل هي الحقيقة الأجل، وأنه كلما اتسعت رقعة اللوحة وتناسقت جزئياتها كان ذلك أقرب لحقائق الوجود، وأقرب للتصور البشري السليم، الذي كان من نعم الخالق الباهرة أن يجعله متجاوباً مع روح الكون الكبير.

ومن ثم يصبح هذا الفنان المختل فناً صغيراً مهما أوتي من براعة التصوير في الجزئية المفردة التي يتلقى الحياة من خلالها ويصورها من خلالها كذلك. ويكون الفنان الذي يتلقى الحياة ويصورها من خلال مساحة أوسع وجزئيات أكثر عدداً وأكثر ترابطاً.. أعظم من الفنان المختل، بجميع المقاييس.. المقاييس البشرية والمقاييس الكونية على سواء.

ونجى الآن إلى لبس قد يتبادر إلى الذهن من هذا التصور : إن العمل الفني - وخاصة إذا كان قصيدة غنائية أو خاطرة أو أقصوصة، لا قصة، أو كان لحناً موسيقياً أو لوحة مرسومة - لن يتسع لكل حقائق الوجود دفعة واحدة. لن يتسع لها في حس الفنان، ولن يتسع لها في الرقعة المتاحة للتعبير.

ومهما يكن في حس الفنان من شمول وفسحة فلا بد من لحظات " متخصصة " يحس فيها بخاطر مفرد، أو لحة عابرة تلتقط جزئية واحدة من جزئيات الكون أو الحياة..

وهذا كله صحيح. ولا بد من "التخصص" في الالتقاط والتعبير ساعة بعد ساعة، في نفس الفنان ونفس كل بشر في هذا الوجود. فالحس البشري لم يهيا بفطرته للنظرة الشاملة المتكاملة في كل لحظة من لحظات الحياة.

ولكن هذه الحقيقة لا تصرفنا عن أمرين مهمين.

الأمر الأول أن الفنان الكبير - وهو الإنسان الكبير - لا "تفصل" في حسه الجزئيات بعضها عن بعض، حتى وهو يلم في حسه أو في تعبيره بجزئية واحدة من الجزئيات.

ولنتصور مثلاً أنه يلم بجزئية الجنس. أو جزئية الصراع الطبقي.

إن شيئاً من ذلك لا يقوم في حسه منفصلاً عن بقية الوجود. إنه في "هذه" اللحظة يحس بخاطرة من خواطر الجنس.. ولكنها لا تستغرقه بوصفها جنساً منقطعاً عن حقائق الحياة، إلا حين تهبط إلى مستوى الحيوان الذي يعيش حياته جزئيات منفصلة لا يرتبط بعضها ببعض. أما إذا أحسها "عواطف" حب نظيف فيه استعلاء وترفع.. فهو هنا مرتبط بناموس الوجود الأكبر وجماله الشامل، ولو لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الناموس. وهو ليس في حاجة إلى هذا الذكر الصريح في كل مرة ولا في أية مرة، وإنما يكفي أن ينقلنا - بالإيجاء والتأثير - إلى هذا العالم الفسيح، لنذكر أنه غير مقطوع الصلة بجمال الكون الكبير.

وكذلك حين يلم في "هذه" اللحظة الرائعة بالصراع الطبقي. إن هذا الصراع لا يستغرقه بوصفه ظاهرة علمية، ولا بوصفه الحقيقة المفردة التي يتلقى من خلالها كل حقائق الحياة.

ولكنه ليس في حاجة إلى خطبة وعظية ليثبت لنا أنه مدرك لنواميس الكون العليا، وأن الحق والعدل الأزليين يستنكران الظلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي.. وإنما يكفي أن يعطينا هذا الإيجاء - بصورة من الصور - لنذكر اتساع الرقعة في حسه، وعدم انحصارها في "مذهب" فكري معين، أو نافذة واحدة من نوافذ الحياة.

وبهذه الطريقة يلم الفنان الكبير بجزئيات الحياة، المتخصصة في كل مرة، دون أن تكون في تخصصها منقطعة عن حقائق الوجود.

وبطبيعة الحال لا يفتعل الفنان هذه المشاعر افتعالاً لنقول عنه إنه فنان كبير واسع الآفاق! فكل افتعال هو تزوير في الحقيقة البشرية وتزوير في الحقيقة الفنية، سرعان ما ينكشف لحس القارئ البصير، الذي يدرك بفطرته تزوير الافتعال وحقيقة الانفعال.

والأمر الثاني أن الكيان البشري المشتمل على جسم وعقل وروح، ومئات من المشاعر المتباينة والأحاسيس المتشعبة، يحوي قدراً من المرونة يسمح ببروز شعور معين في

إحدى اللحظات يطفو على بقية المشاعر ويغطيها.. ولكن في هذا الكيان في حقيقة الأمر من الترابط والتماسك ما لا يسمح بانفصال جانب عن بقية الجوانب في أثناء بروزه في لحظة معينة، ولا بانفصال شعور واحد عن بقية المشاعر، وإن بدا للنظرة القريبة أن ذلك يحدث في بعض الأحيان.

الذي يحدث بالفعل أن جانباً أو شعوراً يغلب في لحظة على بقية الجوانب أو المشاعر. ولكنه لا ينفصل عنها. إلا إذا أصيب الإنسان باختلال مرضي كانفصام الشخصية أو ازدواجها. أما الكيان النفسي السليم فلا يحدث فيه قط ذلك الانفصال.

والنفس السليمة المتكاملة تتداول هذا البروز والانحسار بجوانبها المتعددة ومشاعرها المتباينة. بحيث تصبح - في مجموعها - شاملة لكيانها كله. لأنها في الحقيقة لا تثبت على بروز معين أو انحسار معين إلا إذا أصيبت بالاختلال.

والفنان الكبير - في مجموعه - يعبر عن مداولات النفس كلها في مختلف حالاتها.. أي يعبر عن وقع الوجود كله في حسه، من مختلف منافذه وبجميع أبعاده.. لا عن جانب واحد من جوانب هذا الوجود.

ويخلص لنا من هذين الأمرين حقيقة متكاملة : هي أن الفنان الكبير لا يعطينا في أية لحظة من لحظاته لمسة " متخصصة " . بمعنى الانقطاع عن حقائق الوجود العليا، وإنما يمنحنا في كل جزئية متخصصة قبسة من الوجود الأكبر، تعمق هذه الجزئية ذاتها في إحساسنا، وتعطيها نكهة جميلة، لأن فيها من شذى الوجود كله بالإضافة إلى شذاها الخاص. وأنه - في مجموعه - لا يعطينا الوجود من خلال جزئية واحدة ثابتة - كجزئية الجنس أو جزئية الصراع الطبقي - إلا أن يصلها في حسه وفي حس القارئ بالوجود الكبير ونواميسه، فيعوضها بذلك عن ضيق المساحة وضآلة القدر. ومع ذلك فهو أضخم في عالم الفن وعالم الإنسانية كلما استطاع أن يعرض لنا الوجود من خلال نوافذه المتعددة ومجاليه المتباينة.. فذلك أقرب إلى إعطاء " حقيقة " الوجود.



وعمقتضى هذا الشمول والتكامل يعرض لنا الفن الإسلامي حياة البشرية من جميع جوانبها وفي جميع لحظاتها، فلا يقف - مثلاً - عند لحظة الجنس يفصصها ويحللها، ويعيدها ويكررها، ويضخم كل جزئية فيها.. بينما يترك بقية اللوحة البشرية خاوية من التعبير.

إنه يعبر عن العلاقة بين الجنسين - بقدرها، وبمواصفاتها التي سبق ذكرها - ثم ينطلق يصور بقية جوانب النفس وجوانب الحياة.

يعبر عن " الحب " في مجاله الأكبر، الذي يشمل الحب الإلهي، والحب الإنساني. وكل لون من ألوان هذا الحب يمكن يستغرق فناً بأكمله، ولا يكون ضيق المساحة كالحب الجنسي، لأنه حقيقة كونية كبيرة تتصل بالناموس الشامل كله، ولا تختص بجزئية بسيطة من ذلك الناموس.

ويعبر على " الكره " في مجاله الأكبر، كره الشر كله والانحراف كله، والجهد ضد هذا الشر بجميع صورته وأشكاله.

ويعبر عن " الصراع " في مجاله الأكبر.. صراع الشيطان وصراع البشر وصراع القوى وصراع القيم وصراع الأشياء. وكل لون من ألوان هذا الصراع يمكن أن يستغرق فناً بأكمله.. على شرط ألا " يتبلور " في صورة مذهب، ولا ينقلب إلى وعظ مذهبي كذلك الذي يمارسه كتاب الصراع الطبقي أحياناً وكتاب التفسير المادي للتاريخ.

إن التعبير عن هذا الصراع هو في الحقيقة تعبير عن واقع البشرية، بكل خيوطه المتشابكة ونسيجه المتباين للألوان. ومن ثم ينبغي أن يعرض من خلال نفوس بشرية لا من خلال " أفكار " ولا " مذاهب " ولا " فلسفات ". وليس هذا تحريماً على اعتناق الأفكار والمذاهب.. بل الأمر على العكس من ذلك. فالفن الإسلامي " يلتزم " تصوراً معيناً للحياة، وللحياة البشرية بصفة خاصة، ويعبر من خلال هذا التصور وحده. ولكن طريقة الفن في التعبير تختلف عن طريقة العلم وطريق البحث الذهني المجرد. فإذا تحدثنا عن الصراع الطبقي أو التطور الاقتصادي في صورة مذهبية خالصة، أو صورة تجريدية، فذلك لا يختلف من الوجهة الفنية عن نظم المواعظ الخلقية في شعر، أو تضمينها بصورتها المباشرة في حوار قصة أو مسرحية.. وهو ليس عملاً فنياً على أية حال. إنما ينبغي أن تبرز هذه المعاني كلها على حقيقتها " البشرية " أي من خلال تأثيرها في نفوس الناس. من خلال المشاعر والانفعالات والتصرفات التلقائية للناس.

والفن الإسلامي يعنى عناية خاصة بحقيقة الشمول والتكامل في النفس البشرية. فلا يجب - مثلاً - أن يُعرض الجانب المادي من الإنسان وحده بمعزل عن الجانب الروحي. ولا يجب أن تعرض الصراعات الاقتصادية والطبقية كأنها الحقيقة الكاملة للحياة البشرية، وتغفل بجانبها القيم المعنوية والروحية والأشواق الإنسانية العليا، لأن ذلك بتر للحقيقة البشرية وتشويه لصورتها..

إنه يجب - وخاصة في الفنون التي تعرض بطبيعتها رقعة واسعة من الحياة كالقصة والمسرحية - أن تعرض الصورة كاملة، بمادياتها ومعنوياتها، وقيمتها الاقتصادية

والاجتماعية والفكرية والروحية، مترابطة متداخلة ممتزجة كما هي في حقيقة الواقع، مؤثرة كلها بعضها في بعض، ومتأثرة كلها بعضها ببعض، مع إبراز القيم الروحية والمعنوية، لأن بروزها ذلك حقيقة كونية متصلة بصميم فطرة الكون، المتجه بروحه إلى الله، السائر على هداه. وحقيقة بشرية متصلة بصميم فطرة الإنسان، الذي لم يصبح "إنساناً" مكرماً إلا بنفخة الروح العلوية في قبضة الطين.

أما الفنون التي تعرض بطبيعتها لمحة من الحياة البشرية في لحظة معينة، كالقصيدة واللوحة، فالإسلام يرحب فيها باللمحة الروحية والأشواق العليا، أكثر مما يرحب بالحقيقة المادية وأشواق الجسد الغليظة.. تمثيلاً مع نظرتة العامة التي ترى الروح أبرز في كيان الوجود وأحق بالإشادة والتسجيل.

وليس معنى ذلك أن الحديث عن الصراع الطبقي في قصيدة أو لوحة أمر غير مباح.. كلا! ولكن معناه فقط أن يعرض الموضوع من خلال عذابات الروح، والقيود الجائرة تغلّ النفس عن تحقيق كيانها الإنساني الكامل، الخلق بخليفة الله في الأرض الذي كرمه الله واجتباها، ورسم له آفاقاً عليا من الحق والعدل ينبغي أن تحكم الحياة. ومعناه ألا نتحدث عن المصانع والإنتاج المادي على أنها - في ذاتها - تحقيق لكيان الإنسان. وإنما نتحدث عنها - إذا لم يكن من ذلك بد - على أنها وسيلة يصعد بها الإنسان فوق عالم الضرورة ليستقبل الكيان الأعلى للحياة.

أما شوق الجسد الفائر فقد سبق الحديث عنه إنه لحظة هبوط لا تستحق التصوير والتسجيل.

أما حين تعبر القصيدة أو اللوحة أو اللحن الموسيقي عن أشواق الروح العليا ورفرفتها الطائرة وسبحاتها الطليقة.. فذلك في نظر الإسلام فن صادق أصيل، لأن هذه هي "اللمحة" المناسبة للتسجيل. اللمحة التي تحقق للإنسان كيانه الأعلى وتكمل له وجوده الأرضي المحدود.

وليس معنى ذلك أن تقتصر هذه الفنون على الرفرافات والسبحات.. وإلا فأين يذهب الألم والمواقع والأحزان.. وثقله الضرورة القاهرة والضغط والصراع ومختلف الوجدانات التي تلم بالإنسان؟

إنما نريد فقط أن نرد لهذه الرفرافات والسبحات قيمتها الفنية وقيمتها الإنسانية في وسط الصراع الطبقي والتفسير المادي للفنون!



ويرسم الإسلام صورة للحياة البشرية من خلال " الواقع " كما يرسمها من خلال التكامل والشمول.

ولكن نظرتة للواقع تختلف عن نظرة المذاهب الواقعية المتفشية الآن في الفنون. الواقع الإنساني في نظر الإسلام هو الواقع الأكبر الذي لا ينحصر في واقع المادة وواقع الحيوان. ولا ينحصر في واقع فرد ولا واقع جيل. ولا ينحصر في لحظة ضعف ولحظة هبوط.

فإن كان هذا كله حقيقة واقعة. فأين بقية الحقائق الواقعة في حياة الإنسان؟ ولماذا ينفرد هذا الواقع الصغير وحده بالتعبير الفني دون سائر الوقائع الجديرة بالتسجيل؟ إن كان الواقع حاضر هذا الجيل فأين تاريخ البشرية الماضي كله، وأين مستقبل البشرية المنظور؟ ولماذا يستولي الحاضر وحده على لوحة الفنون؟

وإن كان الواقع هو التزوع الحيواني وحده في نفس الفرد المعاصر، فأين سائر النوازع وسائر الأشواق، وسائر الطاقات الكامنة في الكيان الإنساني الضخم العجيب الأسرار والتكوين؟

وإن كان الواقع هو الأنانية والخسة والندالة وحدها، فأين المشاعر النبيلة والأشواق الطليقة للكيان الإنساني، وهي تتمثل في مساحات ضخمة من حياة البشرية في تاريخها الغابر وأشواقها في المستقبل؟

وكذلك قصة " الضعف البشري " .. فالضعف البشري سمة من سمات الكائن الإنساني، ولكنها ليست كل سماته. فإلى جانب لحظات الضعف البشري توجد جوانب القوى. وإلى جانب القيد الكابح والثقلة المقعدة يوجد الجناح الرفاف والشوق الطليق. وحياة البشرية ليست كلها " لحظة ضعف ". بل ليست كذلك حياة أي حيوان من الحيوانات الراقية ولا أي طير من الطيور!

فإذا جعلنا لحظة الضعف تشغل مساحة اللوحة الفنية كلها وتحجب بقية اللحظات، فذلك مجافاة " للواقع " وإفساد " للتناسق " الذي ينبغي أن يحكم الفنون.

والإسلام " يعطف " على لحظة الضعف البشري، ولكنه لا يجعل منها بطولة تستحق الإشادة والإعجاب.. والفن الإسلامي يلم بلحظات الضعف، ولكنه لا يملأ بها اللوحة. ولا يقف يمجّد للإنسان ضعفه، ويمثله له أمراً " واجب " الحدوث، أو أمنية المتمني! ذلك أن التصور الإسلامي يقوم ابتداءً على أساس تكريم الإنسان وضخامة دوره في الأرض وعظمة مركزه في الكون. ومن ثم فهو لا يمجّد الضعف البشري - وإن كان لا يحتقر الإنسان من أجله - ثم يهتف له دائماً لينهض من الكبوة وتستقر قدماه على الأرض الصلبة، ويمضي صعداً إلى الأفق السامق الوضيء.

وكذلك موقف الإسلام من " الواقع " في بيئة خاصة أو في جيل من الأجيال.. إنه لا يعتبره الواقع الأبدي، إنما هو مرحلة من مراحل البشرية في طريقها الصاعد.. مرحلة مهتدية إلى النهج صاعدة نحو القمة، أو مرحلة متنكبة منتكسة.. ولكن الطريق صاعد أبداً.. والإسلام حذاء إلى الصعود. والفن الإسلامي أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود. لا بالوعظ المباشر. ولكن بالإيحاء. بما في طاقة الإنسان من مكنونات، وما في الكون من موافقات لاستعدادات الإنسان وطاقاته، وما هو مكلف إياه من مهمة ضخمة في الوجود، محسوب حسابها في تصميم هذا الوجود.

بذلك لا ينحصر عالم الإنسان في لحظة الضعف ولحظة الهبوط. ولا يقف عندها يتطلع إليها المعجب المشوق فيسترسل فيها ولا يفيق!



والفن الإسلامي يوسع رقعة الحياة بوصل ما بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة ؛ وما بين الإنسان والكائنات الأخرى ؛ وما بين الإنسان الفرد والجماعة، وما بين الإنسان الفرد والإنسانية التي تعمّر هذا الكوكب منذ حقبة موعلة في التاريخ، وما تزال تتطلع إلى مستقبل بعيد.

وبهذا الشمول والتعدد تصبح اللوحة الفنية أجمل وأكمل وأمتع. وتصبح أزخر بالحياة والحركة من كل لوحة تعرض جانباً واحداً من الجوانب، وتهمل بقية عناصر الحركة والحياة.

والفنون التي تصر على أن تكون رقعتها هي الأرض وحدها - بمعزل عن السماء - لأنها تستنكف أن يكون للقوى " الغيبية " دخل في حياة الناس، هي فنون ترتكب حماقتين في آن واحد!

الحماقة الأولى أنها تنكر حقيقة واقعة لا سبيل إلى إنكارها مهما بلغ البشر من التبجح والغرور!

حقيقة أن الإنسان لا يقوم وحده! ولا يدبر حياته وحده، ولا يحدد مصيره وحده! أين - في هذه الأرض كلها - ذلك الإنسان الذي يحدد لنفسه أين يولد ومتى يولد؟ أو يحدد لنفسه أين يموت ومتى يموت؟

وأين ذلك الإنسان الذي يحدد لنفسه الصفات التي يكتسبها والصفات التي يرثها من أبويه، فضلاً عن تحديد البيئة التي يولد فيها والظروف التي تتفاعل مع هذه الصفات وتلك البيئة، ليكون من تفاعلها خط سيره في الحياة؟

"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" (١٩٥).
إنها الحاجة مضحكة أن ينكر الإنسان تدخل القوى "الغيبية" في حياته، وأن يزعم أنه يقرر مصير نفسه بمعزل عن الله!

وليست دعوى الإشادة بإيجابية الإنسان وفاعليته - كما بينا من قبل (١٩٦) - إلا ستاراً يخفي به هذا الجيل الشقي من البشرية رغبته في التمرد على الله. وإلا فقد وقع هذا الإنسان - حين انعزل بإيجابيته المزعومة عن الله - في حتميات لا أول لها ولا آخر، كلها مهين، وكلها مذل لكرامة الإنسان!

والحماسة الثانية التي ترتكبها هذه الفنون هي تضيق رقعتها وحرمان نفسها من فرص عديدة لإبراز ألوان من الجمال الفني كانت حرية أن تهتدي إليها وتبرزها لولا هذا الإصرار الأحق على فصل ما بين السماء والأرض من صلات.

فهي أولاً تعرض "الإنسان" في صورة مشوهة مبتورة، إذ تعرضه في جانبه الأرضي وحده، جانب الضرورات القاهرة، والواقع المادي القريب المحسوس، ولا تعرضه - إلى جانب ذلك - في جانبه الروحي العلوي، جانب الأشواق المرفقة، والواقع البعيد الذي تدركه الروح من وراء الماديات والمحسوسات. وبذلك تقص منه جناحيه المرففين، وتتركه جثة جاثمة على الأرض لا تقدر على التحليق.

وهي ثانياً تخلي الصورة من جمال الحركة الخفية التي تدير الأحداث والأشياء والأشخاص، وترتب لها موافقاتها ومفاجأتها، حين تجعل "الأقدار" المسيطرة على هذه الأحداث والأشياء والأشخاص هي الأقدار المكشوفة المعلوم الملموسة المقدرة، من صراع طبقي، أو مشاعر جسدية، أو قيم اجتماعية أو اقتصادية تُعطي لها قوة الحتمية والإجبار!
وذلك بدعوى الواقعية...!

في حين يصرخ الواقع الحقيقي الذي تدركه الفطرة الحقة، في وجه تلك الواقعية الزائفة: أن قوى الأرض كلها لا تملك أن "تلد" إنساناً بعينه في بيئة معينة وظروف معينة، أو تحدد له عمره في تلك البيئة، أو تضمن له ألا يقع له كذا أو كذا من الأحداث!

(١٩٥) سورة لقمان [٣٤] .

(١٩٦) راجع فصل "الواقعية في التصور الإسلامي" .

إن الوجود في " واقع " معين لا يجوز أن ينسبنا أن ذلك الواقع كله - بكل ما يشتمل عليه من سنن " حتمية " - هو جزء من إرادة الله الحرة الطليقة، التي تملك تغيير هذا الواقع، وتملك ألا تنشئه ابتداء، ولا تتركب فيه تلك " الحتميات "!

ومن ثم لا تغني " الأقدار " المكشوفة المعلومة الملموسة المقدرة، عن قدر الله الملمع بالغيب، المحجوب عن الأنظار!

والفن الإسلامي حريص على إبراز هذه الحقيقة..

حريص على إبراز قدر الله من وراء الأحداث والأشياء والأشخاص.
وذلك لجملة أسباب :

السبب الأول : أن هذه حقيقة! حقيقة واقعة لا تتم " واقعية " الفن دون إثباتها وإبرازها ووضعها في مكانها الصحيح من اللوحة الفنية المعبرة عن حقيقة الحياة.

والسبب الثاني : أن تتبع هذه الحقيقة وآثارها في الحياة التي تعرضها الفنون المختلفة، عملية ممتعة في ذاتها، لأنها تستجيب لحقيقة فطرية في داخل النفس : هي حقيقة التطلع الدائم إلى قدر الله المجهول، الذي لا تملك كل قوى الأرض أن تكشف عنه، مهما تلهفت إلى كشف الحجب واجتلاء الأسرار. والفن - ومهمته، أو جزء من مهمته الإمتاع - قمين بأن يستجيب لهذه النزعة الفطرية ويقدم لها غذاءها الذي تشتهي.

والسبب الثالث : أن رسم هذه الحركة الخفية التي تحرك الأحداث والأشياء والأشخاص دون أن تظهر بذاتها للعيان، يعطي اللوحة جمالاً أخاذاً، لأنه يستجيب لنزعة فطرية أخرى في بنية النفس، هي نزعة الإيمان بما لا تدركه الحواس. وهي نزعة عميقة لا تقل أصالة ولا عمقاً عن نزعة الإيمان بما تدركه الحواس! كلاهما خطان متقابلان في النفس البشرية، يعملان معاً، كل في اتجاه (١٩٧). ومن شأن هذه النزعة أن تحب إبراز القوى الخفية، التي تملك السلطان ولكنها لا تبين.

والسبب الأخير : أن هذا يمنح اللوحة سعة هائلة، حين يجعل وراء الأقدار المكشوفة المعلومة المقدرة، التي تسيّر الناس في ظاهر الأمر، قدراً آخر خفياً هو الذي يحرك تلك الأقدار المكشوفة. وبذلك لا ينتهي " المنظر " عند هذه " المقاطع " الحادة البارزة الملموسة، وإنما يأخذ امتداداً آخر.. هو في حقيقته امتداد لا نهائي، لأنه يتصل بالقوة الأزلية الأبدية التي لا بدء لها ولا انتهاء.

(١٩٧) راجع فصل " خطوط متقابلة في النفس البشرية " في الجزء الأول من كتاب " منهج التربية الإسلامية " .

ثم إن إبراز القدر على هذه الصورة يحدث من توه تغيراً حاسماً في " جو " اللوحة المرسومة. فليس يبرز سماها ويوضح معالمها فحسب، بل كذلك يمنح الأشياء والأشخاص والأحداث معنى آخر، و " قوة " أخرى. إنها لا تصبح أشياء وأشخاصاً وأحداثاً مفردة، مقطعة الأوصال، منقطعة عن حقائق الكون الكبرى وناموس الوجود الشامل، وإنما تصبح لتوها - بلمسة واحدة سحرية - أشياء وأشخاصاً وأحداثاً ذات دلالة كونية، وذات وجود عميق لا يزول، لأنها اتصلت بالقوة الكبرى الكائنة وراء ظواهر الأشياء.. قوة الخالق المدبر المريد.

ومن ثم يطمع هذا الفن في " الخلود "!



والفن الإسلامي حريص على أن يلفت الحس إلى الناموس الأكبر الذي يحكم الكون والحياة والإنسان. إنه يأخذ من الإسلام شموله وسعته وتعبيره عن فطرة الكون. ولذلك لا يجب أن يعرض الحياة مقطعة الأوصال مفرقة الأجزاء، فتفقد معناها الشامل ومغزاها العميق. وإنما يعرضها كما هي في الحقيقة متصلة متناسقة مترابطة، محكومة كلها بقانون واحد كبير.

وقد وصل العلم إلى شيء من أسرار هذا القانون الشامل الذي يجمع في طياته الوجود، على هدى الطاقة الذرية وما تحويه من إمكانات. ولكن الفن الغربي المعاصر ما يزال متأثراً في أغلبه بروح العلم في النصف الأول من هذا القرن، حين كانت سمتة الغالبة هي العزل والإفراد والتخصيص، لا التجميع والتنسيق والكشف عن القوانين العامة من وراء القوانين الجزئية المشتتة الاتجاهات!

لذلك ما يزال هذا الفن يعرض الحياة البشرية في عزلة عن ناموس الكون الشامل. ثم يعرضها هي ذاتها أجزاء وتفاريق. فهي أحياناً لحظة جنس منقطعة عن اشتباكات الحياة الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية، وتارة هي صراع طبقي، أو " حتمية " من الحتميات التي تحكم - في نظر أصحابها - الحياة، دون النظر إلى كيان النفس الشامل، الذي يتسع لكثير من المشاعر وكثير من أوجه النشاط كلها في آن.

ولكن الفن الإسلامي المعبر عن روح الإسلام الشاملة لا يجب هذا التمزيق المشوه لكيان البشر وكيان الحياة. بل يجب أن يعرض الحياة البشرية في شمولها المتكامل الذي يشمل كل جوانب النفس الإنسانية الفاعلة في هذا الوجود، المنفعلة به، المتصلة دائماً بما وراء حواجز الحس القريبة، الواصلة بفطرتها إلى فطرة الوجود الأكبر.

وتصوير الحياة البشرية على هذا النطاق الواسع الذي لا يقف عند حدود الأرض القريبة، وإنما يتعداها إلى ناموس الوجود الأكبر، ويصلها بالله خالق الحياة والأحياء، يضيف عليها ولا شك جمالاً لا تعرفه معظم الفنون الحديثة التي تقطع صلة الأرض بالسماء، وصلة الإنسان بالله، في الوقت الذي لن يفقدها هذا الشمول وسعة الأفق شيئاً من دقة تفصيلاتها وروعة تحليلاتها وعمق نفاذها إلى الجزئيات الصغيرة. وإنما هو يمنح هذه التفصيلات والتحليلات نفاذاً أعمق حين يصلها بالمعنى الكبير الشامل الذي يشمل جميع الوجود.



وفي سبيل هذه الصورة الشاملة الواسعة للحياة البشرية يهتم الفن الإسلامي بإبراز دور العقيدة في حياة الإنسان، مع الاحتياط الكامل من أن تصبح خطابة وعظية أو بلورة فلسفية تبعد بالفن عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص.

وليس من الضروري أن تُذكر العقيدة صراحة أو يذكر الدين، وإنما ترسم الحياة - كما أسلفنا - من خلال العقيدة وأثرها في النفوس.

فالإحساس بجمال الكون وروعته عبادة.

والإحساس بالارتباط الحي مع الكائنات عبادة.

والتوجه للناس بالحب والعطف والرعاية عبادة.

والجهاد في سبيل الحق والخير عبادة.

والتسليم لقدر الله عبادة.

والتطلع إلى الله في المحن والأزمات عبادة.

وتحمل الألم والاصطبار عليه عبادة.

وشكر المنعم على نعمه عبادة.

وغلظ الإحساس والعزلة عن الكون وتقطع الروابط الحية مع الأحياء، والحد على الناس، والقعود عن الكفاح في سبيل الحق والخير، والتحدي الأحمق لقدر الله، والهلع في المحن والأزمات والبطر بالنعم... كلها دلالات على انقطاع الصلة بالله وجفاف القلب من نداوة العقيدة. والفنان يملك أن يبرز دور العقيدة في هذه الملامح المختلفة إيجاباً وسلباً، كما يستطيع أن يرسم تقلب النفس البشرية بين مختلف المشاعر والأوضاع، دون أن يحتاج إلى كلمة وعظ واحدة أو بلورة فلسفية للعقيدة والدين.

ولكنه - حين يرسم هذه الملامح النفسية كلها من خلال العقيدة، وبطريقة الفن لا بطريقة الوعظ - يكسب الحياة البشرية سعة مؤكدة، فضلاً عن إعطاء هذه الحياة معنى وهدفاً وأصالة وعمقاً، حين يكلها إلى قيم ومعايير أكبر من حياة الأفراد، بل أكبر من حياة الإنسان كله، لأنها معايير الكون كله المتجه إلى الله بالعبادة، والذي يمارس - في هذه العبادة - التناسق والتعاطف والطلاقة والحركة الموزونة التي لا تصادم فيها ولا انحراف.



والفن الإسلامي موكل " بالجمال " .. يتتبعه في كل شيء وكل معنى في هذا الوجود.

الجمال بمعناه الواسع الذي لا يقف عند حدود الحس، ولا ينحصر في قالب محدود. جمال الكون بنجومه وشموسه وأقماره وما بينها من تجاذب وارتباط. وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأهوار وأضواء وظلال، وجوامد وأحياء. وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير وطلاقة وارتفاع. وجمال القيم والأوضاع والنظم والأفكار والمبادئ والتنظيمات. كل ذلك ألوان من الجمال يحتفي بها الفن الإسلامي ويجعلها مادة أصيلة للتعبير. بل هو يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية، سواء بالسلب أو بالإيجاب. فهو حين يعرض للاحتلالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو النفسية أو الخلقية.. يعرضها على أنها " قبح " ينافي حقيقة الجمال التي ينبغي أن تكون راسخة في حياة البشر، لأنها راسخة في بنية الكون كله والحياة. الظلم الاجتماعي قبح لأنه ينافي جمال العدل. والحققد النفسي قبح لأنه ينافي جمال الحب. والانحلال الخلقي قبح لأنه ينافي جمال التسامي والارتفاع. وهكذا كل ما يعرض لحياة البشر من انحراف واختلال. هو قبح لأنه خروج عن الجمال الواجب الذي يتسق مع إرادة الله في خلقه الكون.

وتصوير الجمال في هذا المعنى الواسع والنطاق الشامل، قمين بأن يرفع النفس البشرية من حدود الحس القريية ومن قيمها المحدودة الضيقة، إلى عالم أوسع وأفسح، ومجالات شعورية أرفع وأعلى.. تحقق للإنسان معنى التكريم الذي أراده الله حين قال : "

ولقد كرمنا بني آدم... " وتجعل للفن هدفاً.. هدفاً أعلى من دغدغة الغرائز واستثارة الميول الحسية الهابطة. هدفاً توجيهاً يؤدي فعله في النفس دون أن تحس، ودون أن ينفّرهما الوعظ المكشوف في غير مجال الوعظ.. هدفاً تتقبله النفس راضية مستجيبة، لأنه يدخل إليها من طريق " الجمال "، وهو طريق قريب إلى الفطرة حبيب إلى الشعور.



وبعد فتلك أبرز صفات الفن الإسلامي...

وعلى ضوء هذه السمات نستطيع أن نستعرض " نماذج من الفن الإسلامي "، في القرآن والشعر والقصة، وغيرها من الفنون " الكلامية " التي نملك الحديث عنها في هذا الكتاب. وقد استبعدنا الحديث عن الفنون الأخرى المتخصصة التي تحتاج إلى خبرة المتخصصين!

وقد استبعدنا كذلك النحت والرقص بوصفهما فنين يعبران عن طريق الجسد وحده، فيخلان بشرط من شروط الفن الإسلامي.

أما السينما.. ففي اعتقادي أنها آخر فن يمكن أن يدخل في نطاق الفن الإسلامي، لا لأن السينما في ذاتها محرمة، ولكن لأنها بصورتها الحالية، الهابطة العارية المنحلة، بعيدة جداً عن الجو الإسلامي، ولكنها - ككل فن آخر - تستطيع أن تكون إسلامية حتى تتبع مفاهيم الفن الإسلامي التي وضعتها من قبل في فصول الكتاب.

القرآن والفن الإسلامي

الفن الإسلامي في حاجة شديدة لأن يراجع القرآن!

فهو الذخيرة الموحية لهذا الفن، كما هو الذخيرة الموحية للحياة!

وقد قلت في مقدمة الكتاب إن القرآن - بتأثيره الساحر في نفوس العرب - كان واحداً من أسباب انصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفني فترة من الوقت، لأنه أغناهم - مؤقتاً - عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال!

ولكن العرب حين عادوا إلى التعبير بعد تلك الفترة المؤقتة لم يلجئوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيجاءاتهم، وأغراض تعبيرهم وطرائقه، وإنما عادوا إلى الجاهلية كاملة في مجال التعبير: أغراضه وطرائقه على السواء.

وتلك حقيقة تاريخية مؤسفة، ضيعت على الفن العربي فرصة الإفادة من أكبر رصيد فني يملكه المسلمون. بل أكبر رصيد تملكه البشرية كلها حين تتفتح له بصيرتها، وتتلقي وحيه بحس مرهف مفتوح.

وأياً ما كانت أسباب هذا الانصراف في الماضي، فما تزال الفرصة قائمة للإفادة من هذا الرصيد الضخم، وإقامة فن إنساني سامق رفيع، على أساس من التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان.

وقد كانت الفصول السابقة من الكتاب كلها دراسة لهذا التصور مأخوذة من القرآن.

وهذا التصور هو الذخيرة التي يستمد منها الفن موضوعاته ومجالاته، ثم تعمل البراعة الفنية عملها، فتخرج من تلك المفاهيم في شتى مجالاتها فنوناً جميلة رائعة، بمقدار ما تطبق التلقي، وبمقدار ما تتفتح بصيرتها لارتباطات الكون والوجود.



والقرآن - أولاً - يعرض تصوراً شاملاً للكون والحياة والإنسان، لا يعرضه كتاب آخر في الأرض يمثل هذا الشمول والإحاطة، ويمثل هذه السهولة والوضوح. وهذا التصور كما قلنا هو الذخيرة الموضوعية للفن.

وهو - ثانياً - يضم نماذج من الأغراض الفنية والأداء الفني، لا تتمثل بمثل هذه الوفرة المعجزة في كتاب!

ومن ثم فهو - من ناحيتيه هاتين - دستور كامل لأي منهج فني يريد أن يعبر عن الحياة، بتصور إسلامي أولاً، وكذلك على مستوى كوني.

والقرآن كتاب دين..

ولكن "الدين" في المفهوم الإسلامي أمر شامل محيط.

إنه ليس عبادات معينة ينقطع لها الناس فترة من الزمن عن تيار الحياة.

وإنما الدين هو المنهج الشامل للحياة.. حياة المشاعر وحياة الأفكار وحياة السلوك وحياة الوجدان.

والفن - من ناحية أخرى - هو التعبير الجميل الموحى عن هذه الحياة.

ومن ثم يلتقي الدين والفن التقاء كاملاً في الحس المسلم، حين يكون الفن قائماً على التصور الإيماني للوجود وللمشاعر والأفكار والسلوك والوجدان.

وقد بينا في فصول الكتاب السابقة أن "التزام" الفن بالمفاهيم الإسلامية لا يضيق رقعته ولا يضيق حدوده. بل هو على العكس من ذلك يوسع الرقعة ويوسع الحدود، حتى تشمل الكون كله والحياة كلها والإنسان.. في أشمل نطاق يمكن أن يحيط في حس الإنسان.

كل ما في الأمر أنه "ينظفه" ..

وإذا كانت النظافة قيماً من جانب، فهي فسحة من جانب آخر، لأنها تطلق النفس من قيود الضرورة القاهرة، إلى عالم الطلاقة والحرية والجمال والإشراق (١٩٨).

ومع ذلك فالإسلام - كما مر بنا في فصول الكتاب - يعمل حساب الضرورة القاهرة كما يعمل حساب الحرية والانطلاق. ويوازن بين الضرورات والأشواق.

والفن الإسلامي كذلك، لا يجانب الفطرة، ولا يتجاهل الواقع، ولكنه يعرض الحياة من خلال الواقع الكبير الذي يشمل الضرورة ويشمل الأشواق.



والقرآن هو المرجع الذي ينبغي أن ترجع إليه الفنون الإسلامية، التي هي - بالمعنى الذي شرحناه في الكتاب - فنون إنسانية رفيعة سامقة، تصل إلى آخر حدود ما يستطيع أن يصل إليه الإنسان من عمق ورفعة واتساع؛ وفنون كونية يتسق مدارها مع مدار

(١٩٨) انظر فصل "القيد والحرية" من كتاب "في النفس والمجتمع".

الكون، ويتسق جمالها مع جمال الكون، وتقوم موازينها على قواعد التناسق الكوني الدقيق الجميل.

وقد كان أول تفتحي للقرآن - في مجال الفن - على كتاب " التصوير الفني في القرآن " وكتاب " مشاهد القيامة في القرآن ".

وظللت أقرأ القرآن بعد ذلك وفي حسي الجانب الجمالي منه واضحاً بارزاً ملموساً لا أملك ألا ألتفت إليه، حتى وأنا أدرس القرآن - في اتجاهي الخاص - من الجانب النفسي والتربوي بصفة خاصة.

ولكني أذكر أن كلمة واحدة معينة في إحدى آيات القرآن هزت نفسي أكثر من أي شيء آخر في مجال التوجيه الفني والجمالي في هذا الكتاب المعجز العجيب :

" وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " (١٩٩).

الحديث هنا عن الأنعام، ولكن السياق لا يكتفي بذكر " فوائد " الأنعام : " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ". وإنما يشير كذلك إلى الجمال الذي تنطوي عليه تلك الأنعام " حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ " (٢٠٠).

لقد فتحت لي هذه اللفظة المفردة آفاقاً مشرقة ومنافذ عدة، ظللت أخرج فيها فترة من الزمن ليست بالقصيرة، حتى انتهت بي إلى كتابة هذا الكتاب!

إن الكتاب الذي يوجه الحس البشري إلى الجمال، لا في " المصاييح " التي تزين السماء فحسب، ولا في " الحقائق " ذات البهجة، ولا في " الجبال " و " الأنهار " ولا في " الضحى " الرائق و " الليل " الساجي.. وإنما في " الأنعام " كذلك..

والكتاب الذي يعبر عن توجيهه لجمال الأنعام في هذه الصورة.. الصورة المطلقة الطليقة : " ولكم فيها جمال... " لا الصورة الحسية القريبة المحدودة، من مثل : وإن هذه الأنعام لجميلة، أو : وإنكم لترون جمال الأنعام.. ثم يضيف هذا الجمال " لكم " .. " ولكم فيها جمال.. ".

هذا الكتاب لا يمكن بحال أن يكون معادياً للفن! وقصة العداء بين الإسلام والفن قصة لا يمكن أن يكون لها أساس من الصحة على الإطلاق!

إن الآيات التي وجهت للشعراء العرب في الجاهلية لم توجه ضد الشعر في ذاته. ولا وجهت ضد الشعراء على إطلاقهم. وإنما ضد نوع معين من الشعراء :

(١٩٩) سورة النحل [٦] .

(٢٠٠) سورة النحل [٦] .

"وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا.." (٢٠١)

صحيح أن سياق الآيات يوحي بأن الشعراء الملعونين هم الأصل، والمستثنون هم القلة. ولكن ذلك من ناحية كان يصدق على الشعراء الموجودين في الجزيرة العربية يومئذ - وقد يصدق على كثير من الشعراء في كل وقت - ولكنه من ناحية أخرى لا يلعب الشعر كشعر، ولا يطلق اللعنة على الشعراء عامة، وإنما يصمم سلوكاً نفسياً معيناً يتبعه أولئك الشعراء، فمن خلص منه فلا تشرب عليه، ولا على فنه الذي يعبر فيه عن مفاهيمه الإيمانية.

الملعون إذن هو الكفر. والمطلوب هو الإيمان.

ولا على المؤمنين - حين يكونون شعراء - أن يقولوا الشعر في حدود تصورهم الإيماني ومفاهيمهم الإيمانية، وهم آمنون من اللعنة، بل مثابون على قولهم بما ينال المؤمنون من الثواب.

○ ○ ○

وهذا الكتاب الذي يوجه الحس البشري إلى "الجمال" بلفظه الصريح لا يترك فرصة دون توجيه هذا الحس إلى الجمال بكل الوسائل "الفنية" التي تطيقها الألفاظ.

وهو يوجه الحس لا إلى جمال واحد، ولكن إلى كل لون من ألوان الجمال.

الجمال في الطبيعة، والجمال في الأحياء، والجمال في النفوس والمشاعر والتصرفات والسلوك.

وسوف نستعرض فيما يلي نماذج من القرآن تتمثل فيها بعض أغراض التعبير الفنية وبعض طرائقه. ولكننا نريد قبل استعراض النماذج أن نشير إلى معنى الإفادة من القرآن في عالم الفنون.

ليس المقصود هو "تقليد" القرآن في طريقة معالجته لموضوعاته.

فالغرض الديني الواضح والأصيل في القرآن، هو الذي يحكم كل موضوعاته وتوجيهاته وتعبيراته.

ولكنه - مع وفائه بالغرض الديني كاملاً - يحمل خصائص فنية تصل إلى حد الإبداع والإعجاز (٢٠٢).

(٢٠١) سورة الشعراء [٢٢٤ - ٢٢٧].

(٢٠٢) انظر بالتفصيل كتاب "التصوير الفني في القرآن".

وذلك إلى جانب المفاهيم التي يعرضها عن الكون والحياة والإنسان.
 وحين نحاول الإفادة من القرآن في مجال الفن، فسنلجأ إلى الناحيتين معاً: المفاهيم وطرائق الأداء، ولكن لا لتقليدها كما ذكرنا، وإنما لالتقاط "التوجيه" الذي تحمله، والنسج على منواله فيما ننشئ من الفنون.

فحين نجد - كما يظهر لنا من النماذج التي سنستعرضها - أن القرآن يحتفي بمشاهد الطبيعة إلى حد يلفت النظر.. فإننا نكون إسلاميين في فننا وقرآنيين حين يتشبع حسنا بهذه الحفاوة، ونحس بالتجاوب الحي مع الطبيعة، بوصفها مشاهد جميلة متناسقة خارجة من يد المبدع العظيم، ثم نحاول التعبير عن هذا التجاوب في صورة حية موحية جميلة.

وحين نجد القرآن يستخدم القصة للتربية، ويضمنها كل توجيهاته التمشية مع مفاهيمه عن الكون والحياة والإنسان، فإننا نكون إسلاميين في فننا وقرآنيين، حين ننشئ القصة الهادفة، ونستخدمها للتوجيه - الفني لا الوعظي - ونجعل هذا التوجيه في سبيل رفعة الإنسان وطلاقة لا في سبيل هبوطه وانحلاله والتصاقه بطين الأرض، مع عدم الإخلال "بالواقعية" التي تحملها الفكرة الإسلامية ويحملها القرآن: واقعية الواقع الكبير الذي يشمل الضرورات ويشمل الأشواق، ويوازن بين الضرورات والأشواق، ويعطف على لحظة المبوط، ولكنه يحاول أن يصعد منها إلى لحظة الرشد والإفاقة والانطلاق.

وحين نجد القرآن يستخدم في التعبير طريقة التصوير، فإننا نكون إسلاميين في فننا وقرآنيين حين نتخذ هذه الطريقة في تعبيرنا الفني عن المشاعر والخلجات والحركات والتصرفات، لإحياء الصورة وتجسيمها وخلع الحياة عليها حتى تصل إلى الوجدان حية متحركة عميقة التأثير (٢٠٣).

والفن الإسلامي مع ذلك ليس "مقيداً" بالموضوعات القرآنية، ولا بأغراض التعبير القرآنية ولا طرائق التعبير.

فله أن يختار من الموضوعات والأغراض والطرائق ما يشاء.

ولكنه مقيّد بقيد واحد: أن ينبثق من التصور الإسلامي للوجود الكبير، أو - على الأقل - ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان، ولا ينحرف عن هذه المفاهيم.

والمسألة هنا ليست مسألة "الدين" بمفهومه الضيق، ولا مسألة "العقيدة" بمعناها التقليدي.

(٢٠٣) انظر كتاب "التصوير الفني في القرآن".

إنها مسألة أن التصور الإسلامي كما يعرضه القرآن، هو - كما رأينا فيما سبق من فصول الكتاب - التصور الصحيح المتمشي مع فطرة الكون كله والوجود، والذي تنطق به الفطرة البشرية ذاتها حين تهتدي إلى الناموس، والذي يصح أن يقال فيه إن مقاييس الجمال فيه هي مقاييس كونية، تستند إلى التناسق الملحوظ في الكون الكبير. وأي تصور آخر يصطدم به أو يعارضه، هو تصور منحرف عن الناموس الأكبر الذي يشمل الوجود.

وليس من حق الفن أن ينحرف عن ذلك الناموس، لأنه بذلك يخرج عن "الجمال الفني، الذي يتسق مع الجمال الكوني الكامن في فطرة الوجود.

تماماً كما لا يجوز للنجم أن يخرج عن مساره ويصطدم بغيره من الأفلاك..

والنجم - بعد ذلك - طليق في مساره الصحيح، خفيف الحركة رشيق الانطلاق.

وهكذا نفهم التزام الفن الإسلامي بمفاهيم القرآن وطريقة القرآن.

ولكنه بعد حرّ في اختيار موضوعه، حر في طريقة أدائه، حر في اختيار النسب والأبعاد والأضواء والظلال في كل لوحة مفردة يرسمها، ما دام لا يخرج على النسب العامة التي ترسمها مفاهيم القرآن الكونية الكبيرة.

والآن فيإلى النماذج الفنية في القرآن...

أولاً

مَشَاهِدُ الطَّبِيعَةِ فِي الْقُرْآنِ

يعجب الإنسان حين يستعرض مشاهد الطبيعة في القرآن، كيف خلا الشعر العربي الإسلامي من وصف الطبيعة إلا في النادر، وفي وصف لا يكاد يتعمق الطبيعة إلا قليلاً، ولا يكاد يصل بينها وبين الوجدان البشري إلا في الأقل!

هذا مع أن احتفال القرآن بالطبيعة أمر بارز يلفت النظر ويلفت الحس، ولا يمكن أن يقرأ القرآن قارئ دون أن تلفته هذه الظاهرة في ثناياه!

والقرآن - كما قلنا في مقدمة هذا الفصل - كتاب دين، ولكن على المفهوم الإسلامي للدين، الذي يشمل كل جوانب الحياة.

وهو كتاب تربية... (٢٠٤)

يستخدم للتربية كل وسيلة يمكن أن ينفذ بها إلى منافذ النفس المختلفة ومسارها الخفية.

و "الجمال" من أوسع المنافذ إلى النفس.. تهش له بفطرتها، وتلتقي روحها بروحه في أخوة واستجابة واشتياق.

وجمال الطبيعة من أروع ألوان الجمال التي تهش لها النفس، وتستجيب لها في فرحة وانطلاق.

ولكن الإلف والعادة يفسدان التطلع إلى ذلك الجمال الفذ، فتتبدل الحواس لما ترى وما تسمع، وتمر بكل شيء كأنما لا وجود له، وتنسى بحكم التعود أنه رائع وأنه جميل! وعندئذ لا بد من إيقاظ النفس من سباتها لتتفتح و "تستنشق الحياة!" وتلك مهمة الفنون.

ولكن القرآن - وهو منهج حياة، وهو كتاب تربية وكتاب دين - يهيمه كذلك أن يوقظ النفس من تبلدها لتتفتح وتستنشق الحياة!

فإن الإنسان حين تدرك حسه هذه البلادة ينحصر في دائرة ضيقة رتيبة خاملة لا تنبض فيها الحياة. ومن شأن ذلك أن يفسد نفسه جميعها. فالنفس المتبلدة لا تجيش لحمل أمانة الخلافة في الأرض: لا تنزع إلى الخير، ولا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر، ولا

(٢٠٤) لنظر كتاب "منهج التربية الإسلامية".

تبني ولا تنمي ولا تحوّر ولا تبدل في هذه الأرض، لأن ذلك كله حركة جياشة فعالة مُريدة. والحركة لا تنشأ من التبدل، والجيشان لا ينبع من الخمول!

فمن أجل خير هذه النفس وصلاتها، من أجل رفعة الحياة البشرية وترقيتها، يسعى القرآن إلى تحريك هذه الحواس المتبلدة لتنفع بالحياة في أعماقها، وتتجاوز تجاوباً حياً مع الأشياء والأحياء.

وهنا يلتقي الدين - بمفهومه الإسلامي - مع الفن، ويلتقيان في أروع صورة في ثنايا القرآن!



والقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلافة المبدعة.. في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس، ويوقظها من إلفها وعادتها فتفتتح للكون كأنه جديد.

وحين يحدث هذا التفتح، فإنه يحدث أعجب الأثر في الكيان البشري.

إنه يشبه - مع الفارق - ذلك النشاط الحي الذي يحس به الإنسان في أعضائه حين يخرج من الغرفة المقفلة الفاسدة الهواء، فيتلقى النسيم المنعش على صفحة وجهه ويستنشقه إلى أعماقه. إنه يتجدد.. يتجدد حقيقة.. حساً ومعنى.. وينطلق في خفة نشيط الحركات.

والتفتح النفسي يشبه ذلك الأثر، ولكنه أعمق وأشمل وأروع. إنه يهز الكيان النفسي كله ويوقظه وينشطه ويجدد حياته. كل فكرة تمر به جديدة. وكل إحساس يخطر له جديد. وكل تجربة يمر بها فهي حياة.. حياة تطلق شحنة من النشاط وطاقة من الإشعاع. وما أعجب كل شيء يحدث لأول مرة! إنه تجربة نفسية رائعة حياة.. كأنها لمسة رقيقة تلمس طرف عصب مكشوف، فيتفزز ويتأثر، وينقل اللمسة إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها.. إنها عملية جميلة ممتعة.. تملأ الحياة ثراء وسعة ومتاعاً متجدداً على الدوام.

ولو استطاع الإنسان أن يعيش كل شيء كأنما يحدث لأول مرة..! إذن لاستطاع أن يحس بالشباب الدائم الذي لا يدب إليه العجز ولا الشيخوخة ولا الفناء!

ولكنها عملية عسيرة. فمطالب العيش الدائمة، وزحمة الحياة، وقصر العمر، ووفرة المشكلات، كلها تستنفد الطاقة وتستنفد الاهتمام.

ومع ذلك فالقرآن يصنع هذه العجبة!

إن أسلوبه الساحر، وجوه المشرق، وروحه الصافية، لتنتقل الإنسان نقلاً من إلفه وعادته، وتهزه ليستيقظ ؛ تلمس - برفق - أعصابه المكشوفة! فتعطيه الشحنة كاملة، ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها.. ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة، ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب.

والإنسان يعيش في القرآن مع الكون في لقاء دائم جميل حبيب. لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح.. نشيطة طليقة تسبح لله.

والقرآن في ذاته كتاب جميل ممتع، لا ينتهي منه قارئه حتى يحب أن يعود إليه من جديد. ومن ثم كان اللقاء متجدداً في داخل النفس وفي صفحة الكون، لا ينفد، ولا يُسأم، ولا يزول (٢٠٥).



ونأخذ بعض الأمثلة لمشاهد الطبيعة في القرآن :

" إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (٢٠٦)

مثل من أمثلة كثيرة في القرآن..

توجيه للقلب البشري إلى آيات الله في الكون : الله فالق الحب والنوى. وفالق الإصباح. ومخرج الحي من الميت والميت من الحي.. والليل والنهار.. والشمس والقمر.. والبر والبحر.. النخل والأعنان.. والزيتون والرمان.. إنه حشد هائل من مجالي الطبيعة الحية.. الحية بكل ما فيها ومن فيها. فما يترك التعبير شيئاً منها جامداً لا يتحرك ولا تدب فيه الحياة! وقدرة الله القادرة التي خلقت هذه الآيات كلها هي التي تبث فيها الحياة على هذا النحو المدهش، وبالألفاظ المجردة لا بالريشة ولا بالألوان! (٢٠٧)

(٢٠٥) الجزء الأول من كتاب " منهج التربية الإسلامية " فصل " تربية الروح " .

(٢٠٦) سورة الأنعام [٩٥ - ٩٩] .

(٢٠٧) انظر كتاب " التصوير الفني في القرآن " .

الحركة الحية هي الظاهرة الملموسة في المشهد كله.
 الحركة في الحب والنوى وهو يفلق في باطن الأرض ليخرج منه نبات حي..
 والحركة الدائبة في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي. وهي حركة
 حين يتدبرها الحس المتفتح تملأ النفس من أقطارها، وتشمل رقعة هائلة من الكون الذي لا
 تني الحياة فيه تخرج من الموات، والموات يخرج من الحياة.
 وحركة النهار والليل والشمس والقمر والنجوم.
 وحركة النسل التي أخرجت البشرية من نفس واحدة، وما تزال دائبة في المستودع
 والمستقر.

وحركة الماء النازل من السماء فيخرج منه نبات كل شيء.
 ثم حركة " التنوع " في النخل والأعشاب والزيتون والرمان.. تنوع بالأصناف
 المختلفة، ثم باختلاف كل صنف على حدة " مشتبهاً وغير متشابه ".
 وتنوع بطريقة التعبير!

لكأني ألمح في تنوع نسق التعبير في كل مرة أمراً مقصوداً لإيقاظ الحس، حتى لا
 يستقيم لرتابة العرض وهو يستعرض آيات الله في الكون!
 إنه لا يقول هنا : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، كما يقول في
 مواضع أخرى! وإنما يقول : " يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي ". فييده
 الحس بتغيير النسق قبل أن يسترسل مع رتابة التعبير فلا يتفتح تفتحاً كاملاً للآيات
 المحشودات!

ثم لا يقول : فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً!
 وإنما يقول : " فالق الإصباح وجعل الليل سكناً! "
 تنوع آخر لكي لا يستقيم الحس للنسق الرتيب!
 ولا يقول هو الذي أنشأكم من نفس واحدة وجعل لنشأتكم مستقراً ومستودعاً)
 كناية عن دور الذكر والأنثى في كل نسل جديد (فَيُتَبَعُ الْفَعْلُ " أنشأكم " فعلاً آخر
 مشابهاً له، وإنما يتبعه باسم : " فمستقر "!

ثم يقول : " فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً " فلا يتبع الماضي ماضياً
 مثله! " ولا ننسى هنا الموافقة التصويرية بين قوله : " فأخرجنا به نبات كل شيء،
 فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً " ثم قوله : " متراكباً " بعد ذلك، بعد أن تهيأ الحس
 بالتكرار المتوالي للفظ الإخراج، لاستقبال شيء " متراكب " بعضه وراء بعض أو فوق
 بعض! "

ثم يقول : " مشتبهاً وغير متشابه " فينوع في اللفظين المتشابهين..
هل ترى كل ذلك مصادفة!

أم هو أمر مقصود هنا للتنويع بكل وسائل التنويع، وهو يستعرض أنواعاً مختلفة من الحياة في صفحة الكون، ويريد أن يلفت الحس للقدرة القادرة التي تخلق كل هذه الأنواع، وينسق في اللوحة المعجبة بين تعدد النماذج والأنماط في المشهد وفي التعبير عنه سواء.

ألا إنه لون من الإعجاز في التصوير والتعبير!

هذا ولا يجوز أن ننسى في هذا المقام تلك اللفتة العجيبة في قوله : " انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ".

إن الأشياء التي يستعرضها هنا أشياء تشتهى وتؤكل : النبات والخضر والحب والنخل والأعشاب والزيتون والرمان.. ولكنه لا يقول هنا كما يقول في مواضع أخرى : " كلوا من ثمره إذا أثمر " وإنما يقول : " انظروا " ! انظروا إلى الثمر إذا أثمر والينع إذا أينع! انظروا إلى " الجمال " ! انظروا بعيون مفتوحة وحس مستشرف لتملي الجمال. انظروا واستمتعوا بالنظر.. ولا يقول هنا كلوا.. لأن المعرض معرض الجمال الميثوث في الطبيعة، والقدرة القادرة التي تبدع الجمال!

○ ○ ○

والاستعراض يطول لو مضينا نستعرض كل مشاهد الطبيعة في القرآن. فما تكاد سورة تخلو من مشهد أو عدة مشاهد، في اتجاهات شتى وبطرق للعرض متباينة. وإنما نكتفي بنماذج متفرقة تعطينا " عينات " فنية مختلفة.

فإذا كانت مشاهد الطبيعة حشدت حشداً في الآيات السابقة لعرض آيات القدرة الإلهية التي تبدع " الأنواع " المختلفة من الكائنات، واستخدم لبيان التنويع أداة فنية معينة هي تنويع السياق ليساعد على استكناه التنويع في الطبيعة، فهذا مثل آخر من التنويع يستخدم أداة أخرى :

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ " (٢٠٨)

إن الحس يوجه هنا إلى ظاهرة معينة في قدرة الله هي تنويع " الألوان " في الخليقة. ولكنه لا يوجه إلى ذلك في صورة لفظية تجريدية. وإنما ترسم له - في تلك الألفاظ القليلة

(٢٠٨) سورة فاطر [٢٧ - ٢٨] .

المعدودة - لوحة واسعة فيها مخلوقات الأرض جميعاً من جماد ونبات وحيوان وإنسان! النبات مختلف ألوانه.. وهذا ركن من اللوحة الواسعة، أو وحدة من وحداتها، متناثرة على رقعة اللوحة تناثرها في الطبيعة الواسعة. والجبال ذات قمم بيض وحمر وسود.. وهذه وحدة أخرى من وحدات اللوحة تنتشر فيها الألوان هنا وهناك لتنسجم مع ألوان النبات المتباينة في الأرض. ثم.. ناس مختلفة الألوان، ودواب وأنعام مختلف ألوانها كذلك..

والتنوع والاختلاف هو محور الصورة.. ولكنه هنا يرسم بطريقة مخالفة للوحة السابقة. عنصرها توزيع الأشياء والأحياء والألوان على الرقعة وتثبيتها في مكانها، وكانت هناك عنصرها الحركة في مختلف الاتجاهات.



وهنا حركة من نوع آخر :

"وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ، سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، وَأَيَّةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ" (٢٠٩).

لوحة واسعة شاملة تشبه في بعض سماتها اللوحة الأولى. ففيها الليل والنهار، والشمس والقمر، وفيها نبات الأرض المختلف الأنواع. وفيها البر والبحر. ثم يزيد عليها العيون المفجرة في الأرض، والإشارة إلى "الأزواج" المختلفة، وتزيد عليها كذلك الفلك المواخر في البحر.

ولكن المسألة ليست مسألة هذه الزيادة في جزئيات الصورة. فحتى الجزئيات المشتركة لا تؤدي وظيفة واحدة هنا وهناك!

"الحركة" هنا من نوع آخر غير الحركة هناك.

هناك كانت الحركة - سواء خفية أو ظاهرة - حركة لطيفة وثيدة رتيبة هادئة.

(٢٠٩) سورة يس [٣٣ - ٤٤] .

ففلق الحب والنوى - وهو الحركة الوحيدة التي في لفظها شيء من العنف - تتم في ببطء شديد وخفاء واستتار. وخروج الحي من الميت والميت من الحي حركة كذلك وثيدة خفية مستترة. وانفلاق الصبح يتم في ببطء خفي حتى يظهر النور الهادي في آخر الأمر. وهناك الليل سكن. والشمس والقمر حسبان. حسبان لا حركة! والحسبان حركة رتيبة متتابعة تتم في ببطء وثيد. والنجوم التي يهتدي بها الناس في "ظلمات البر والبحر، تتحرك ولكن حركة وثيدة خفية مستترة. وظلمات البر والبحر - وهي خفاء مستتر - تناسب ظلمات باطن الأرض الذي ينفلق فيه الحب والنوى. وحركة النسل في المستقر والمستودع حركة كذلك بطيئة وثيدة، وحركة تتم في خفاء واستتار، فالنطف المخفية في الأصلاب والأجنة المخفية في الأرحام كلتاها تتحرك ولكن في خفاء عن العيون وفي ببطء وثيد مديد. ثم النبات المختلف يقال فيه: انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه.. والإثمار حركة لطيفة وثيدة تتم في خفاء حتى تظهر آخر الأمر في هدوء.. والنظر ذاته هادئ وديع!

أما الحركة في هذه اللوحة فمن مستوى آخر، وهي ذات "نغمة" أعلى وأحد!

فهنا العيون مفعّرة.. والتفجير حركة عنيفة، والخيال يتصور الماء الذي يخرج من العيون المتفجرة منطلقاً في سرعة وتحدّر. ثم الأزواج.. "كلها!" إنها لفظة جامعة ولكن في حسم يشبه العنف! والخفاء هنا: "سبحان الذي خلق لأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون" ليس خفاء هيناً ليناً كظلام الليل الذي ينفلق منه الصبح، ولا ظلام الأرض التي ينفلق منها الحب والنوى. ولكنه خفاء حاسم قاطع! ثم الليل ليس "سكناً" كما كان هناك.. ولكنه هنا يشارك في حركة عنيفة تتم في كيانه.. هي حركة "سلخ" النهار منه! "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون!" والسلخ حركة يعرف الحس عنفها وشدتها، والجهد الذي تتطلبه لفصل ما ينسلخ مما يسلم منه! ثم بعدها "فإذا هم مظلمون" هكذا في مفاجأة "بإذا" وفي حسم ظاهر! والشمس والقمر ليسا حسباناً هادئاً وثيداً كما كانا هناك. بل هما في حركة شديدة كبيرة دائبة: "الشمس تجري" وحتى كلمة مستقر "تجري لمستقر لها" لا تسكن الحركة في الحس. فإنما تلقي في النفس ظل الشيء المندفع، الذي يستقر - حين يستقر - في شدة وعنف! والقمر في منازل تغير شكله تغييراً واضحاً - لا خفياً - "حتى عاد كالعرجون القديم"، ثم حركة السباق الهائلة بين تلك الأجرام السماوية: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر" وكذلك بين هذين المخلوقين المتداولين: "ولا الليل سابق النهار". والفلك "مشحون" وحركة الشحن معروفة تلقي ظلاً معيناً في النفس فيه كثير من الشدة والجهد. وأخيراً: "وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقدون!" وهنا تتمثل حركة الإغراق العنيفة وما توحيه من تشبث عنيف من جانب المغرّقين. ومع أن عملية الإغراق لا تتم فعلاً، فإن

حركتها تتم كاملة في الخيال، ويُسمع جلبة "الصريخ" بالفعل وإن كان في الصورة منفي الحدوث!

○ ○ ○

وازن بين تلك الحركات العنيفة كلها وحركة الظل في الآية :
 " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا " (٢١٠).

إنها حركة يبلغ من لطفها أن تكاد لا تتحرك! ويزيد من لطفها والإيجاء ببطئها الشديد كلمة "ساكنًا" مع أنها لا تتم في واقع الأمر : "ولو شاء لجعله ساكنًا"! فمع أنه سبحانه لم يشأ أن يجعله ساكنًا، إلا أن وجود اللفظة يلقي ظلها في النفس، وهذا بعض المقصود من إيرادها. وظلها هو تبطئ حركة الظل حتى لتشبه السكون. وتلك حقيقة "طبيعية" فحركة الظل وثيدة جداً لا تكاد تظهر. ولكن التعبير يجسم هذا البطء ويعطيه "مساحة" في الخيال، لم يكن ليكتسبها لو كان الوصف تجريدياً بحتاً بغير تصوير ولا تخيل (٢١١). وكذلك تتم صورة البطء بتكملة الحركة في الاتجاه الآخر : "ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً". ولكن لفظة معينة هنا تعطي المشهد كله معنى عميقاً عجيباً يغير "نغمة" اللوحة كلها، ويعطيها روحاً جديدة لا يتيسر بياها بالألفاظ! إنها كلمة "إلينا". "ثم قبضناه إلينا...". هذه الكلمة تخرج اللوحة من نطاق الأرض المحدود الذي كانت فيه، فإذا فيها أمر آخر غير هذه الأرض.. إنه يد الله سبحانه تمتد لتقبض الظل "إلينا". إلى الله سبحانه الذي لا يتحدد بمكان ولا حيز ولا نطاق! إن الظل "المتجسم" هنا في الأرض لم يعد كائنًا أرضياً محدود النطاق.. ولكنه صار.. صار ماذا؟ صار شيئاً كونياً غيبياً مبدؤه هنا في الأرض.. ونهايته عند الله الذي ليس له انتهاء!

وهذا كله يتناسب مع سياق الآية الذي ترد فيه مشاهد الطبيعة في صورة الرحمة الإلهية على الناس :

" أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْفَاسِي كَثِيرًا " (٢١٢).

(٢١٠) سورة الفرقان [٤٥ - ٤٦] .

(٢١١) يراجع كتاب "التصوير الفني في القرآن" .

(٢١٢) سورة الفرقان [٤٥ - ٤٩] .

وهو جو كله رحمة وعطف وود وإيناس.

○ ○ ○

وهذه اللوحة في البحر :

"هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَأَن نُّنَجِّيَنَّهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" (٢١٣).

إنها قصة كاملة في لوحة! قصة تشمل مشاهد الطبيعة وخلجات النفوس متداخلة متشابكة ؛ يصعب انتزاع جزئياتها بعضها من بعض! فهذا هو الفلك يجري أولاً في ريح رخاء، والنفوس فرحة راضية مستبشرة، ثم تجيء الريح العاصف والموج من كل مكان. وهنا يرسم الذعر في القسمات ووجيب القلوب، متناسقاً مع الريح العاصف والموج المضطرب، ومختلطاً بهما كذلك، ثم تسكن الريح وتنتهي " الأزمة " في البحر، وتنتهي كذلك من النفوس.. ويمضي كل في حال سبيله، غير عابئ بما كان قبل لحظات!

دقة عجيبة في التصوير، وإحياء لمشاهد الطبيعة، ومزج لها بمشاعر النفوس، يجعلها حية في الحس، حتى وهي تقسو أحياناً فتصيب النفوس بالهلع والاضطراب!

○ ○ ○

تلك أمثلة غيرها كثير في القرآن..

ولكن الذي يلفت النظر حقاً ليس هو مجرد ذكر الطبيعة في القرآن.

وإنما الذي يلفت النظر هو أنه لا يكاد يوجد غرض من أغراض التعبير في القرآن لم تستخدم فيه الطبيعة لإحيائه في النفس وتوسيع مساحته في الحس!

فهو لا يكتفي بتوجيه النظر إلى مجالي الطبيعة المباشرة كالأمثلة التي بينا، والتي ترد لها مشابه كثيرة جداً في القرآن. وإنما يعبر بمشاهد الطبيعة عن " المعاني " النفسية والفكرية والاجتماعية، التي لا يخطر في بال بشر أن يستخدم الطبيعة للتعبير عنها وتوضيحها!

(٢١٣) سورة يونس [٢٢ - ٢٣] .

فالإنفاق عن مخادعة ورياء، والإنفاق عن صدق وإخلاص، لا يصفهما باللفظ المباشر المجرد، وإنما يرسم لهما لوحيتين من مناظر الطبيعة الحية المتحركة :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " (٢١٤)

فيتحول المعنى المجرد إلى معنى حي متحرك، حين تشترك فيه الطبيعة برسم هذه المناظر المتتابعة.

ويرسم للكفر هذه اللوحات :

" أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ، مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فُهِمٌ لَا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا " (٢١٥)

" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ " (٢١٦).

إنها صورة عجيبة تهرز النفس من أعماقها، وتستدرج الخيال يتتبع تفصيلاتها المتحركة المتتالية. فالصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.. منظر العاصفة مكتملاً بكل ما فيه من رعب وفزع. يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت.. الموقف واضح بتفصيلاته. والخيال يتملاه كأنما يشاهده على شاشة الصور المتحركة في

(٢١٤) سورة البقرة [٢٦٤ - ٢٦٦] .

(٢١٥) سورة البقرة [١٦ - ٢٠] .

(٢١٦) سورة النور [٣٩ - ٤٠] .

أروع " لقطاتها " المثيرة.. كلما أضاء لهم البرق مشوا خطوة، مدعورين مفجؤين، فإذا أظلم عليهم وقفوا حيث هم في حيرتهم مبلسين.

أو.. كسراب بقية.. المنظر ممتد على آخر البصر حيث يخال السراب. كآمال الذين كفروا ممتدة إلى ما لا نهاية. وهي كلها خداع! " حتى إذا جاءه " .. والخيال يسير معه هذا " المشوار " الطويل الجاهد حتى يصل إلى مكان السراب : " لم يجده شيئاً ! " روعة المفاجأة، حتى والإنسان يعلم من قبل أنه لا شيء هناك! ثم المفاجأة المذهلة الكبرى.. " ووجد الله عنده " .. " فوفاه حسابه " والخيال يتخيل منظر المفاجأة المرعب الم هول.. ولا يملك الإنسان من نفسه من هزة التأثير الهائل العميق.

" أو كظلمات في بحر لحي.. "

إنها أروع لوحة من لوحات " الظلام " في مشاهد الطبيعة يمكن أن ترسمها ريشة أو آلة مصورة. ومع أن المشهد لم يكن معروضاً هنا لذاته، وإنما لتصوير حالة الظلام النفسي الذي يورثه الكفر للنفوس، فإنه أمدنا بلوحة طبيعية رائعة يتملأها الحس والخيال، ويعمل فيها " الفن " بحرية وانطلاق!

والحق والباطل يرسم لهما هذه الصورة من مشاهد الطبيعة :

" أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثْنٍ كَذَلِكَ يُضْرَبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يُضْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ " (٢١٧).

والكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ " (٢١٨)



بل تصل الحفاوة بمشاهد الطبيعة إلى حد استخدامها في مجال التنزيه المطلق والتجريد الكامل، فيرسم هذه اللوحة العجسية، لوحة " النور " في مقابل لوحة " الظلام " هناك :

(٢١٧) سورة الرعد [١٧] .

(٢١٨) سورة إبراهيم [٢٤ - ٢٦] .

" اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (٢١٩).

تلك ظاهرة تلفت النظر في القرآن. وهي ظاهرة يلتقي فيها الفن والدين التقاء كاملاً كأنهما متطابقان، ويعمل فيها الإعجاز الفني جنباً إلى جنب مع التوجيه الديني المطلوب من وراء تلك الصور الجميلة الحية المتحركة التي توظف الحس للجمال، لتوظفه آيات الله في صفحة الوجود.

فإذا وازنا بين هذه الوفرة العجيبة من مشاهد الطبيعة في القرآن - كتاب الدين - وبين ندرتها العجيبة في الشعر العربي - وهو كتاب الفن! - أدركنا - في هذا الجانب كما في الجوانب الأخرى - مدى الخسارة التي أصابت الفن العربي من عدم استمداده من الرصيد القرآني المذخور، ومدى ما كان يمكن أن يكون عليه من الثراء الفني، لو أنه اتجه إلى هذا الرصيد الغني الذي يستمد منه الوحي والتوجيه!

(٢١٩) سورة النور [٣٥] .

ثانياً

القصة في القرآن

القصة في القرآن ذات هدف ديني بحت. فهي مسوقة للموعظة والترية والتوجيه. ولكنها مع ذلك تفي بكل مطالب الفن القصصي الخالص (٢٢٠).

وحين نتحدث عن الاستفادة من القرآن في مجال الفن القصصي، لا نقصد بطبيعة الحال أن يلتزم الفن الإسلامي بالقصص التي وردت في القرآن، سواء في الموضوع أو في طريقة الأداء. ولكننا نقصد أن يلتقط "التوجيه" الذي تحمله تلك القصص بمدلوله الواسع لا بمعناه الحرفي، ويعمل في محيط هذا التوجيه على نطاق واسع دون أن يتقيد بقيود موضوعي أو فني.. ملتزماً فقط بأن يستمد تصوره للحياة والأحداث والأشياء من التصور الإسلامي، أو على الأقل لا يصادم في النهاية شيئاً من المفاهيم الإيمانية.. فلا يحسن الشر ولا يقبح الخير، ولا يدعو إلى المنكر، ولا يبارك لحظة الضعف ويجعل منها بطولة، ولا يقبع داخل الواقع الصغير الذي تحكمه الضرورة القاهرة، ويهمل الواقع الكبير الذي يتسع للضرورة كما يتسع للانطلاق من الضرورة. وعليه كذلك ألا يفصل بين الأرض والسماء لأن هذا الانفصال ليس حقيقة. ولا بين الإنسان والله، فذلك أيضاً ليس حقيقة. وأن يوسع اللوحة التي تجري عليها أحداثه وأشخاصه، فلا تقف فيها الحادثة عند دلالتها المفردة، ولا الشخص عند كيانه الفرد، وإنما تشير الحادثة إلى السّنة الشاملة، ويشير الشخص إلى "الإنسان" من وراء الظروف والملابسات. وترسم يد القدر من وراء الأشخاص والأحداث، على أنها القوة الموجهة المريدة التي تسير كل شيء بمقتضى الناموس الأكبر الذي يحكم الوجود.

إنه فن "ملتزم". ولكن ليس بالمعنى الضيق للالتزام. فهو لا يلتزم "بمذهب" معين؛ ولا هو كذلك فن وعظمي يدعو إلى فكرة معينة بطريق الوعظ والدعاية المباشرة. وإنما هو "ملتزم" فقط بمجارية الناموس الكوني في جماله وتناسقه وتوازنه وطلاقة من الضرورة. ويهدف إلى إنشاء إنسان صالح، إنسان يتوافق مع ناموس الكون، ولا يشذ عنه بطريق الانحراف. ويتخذ وسيلته إلى ذلك عرض "الجمال" و"القبح" بمعناهما الواسع ومجالهما الشاملة: في المشاعر والأفكار والتصرفات والسلوك، بحيث تشتاقي النفس في النهاية إلى الجمال وتنفر من القبح، دون أن تحس "ضغطاً" في هذا الاتجاه أو ذاك.

(٢٢٠) أنظر فصل "القصة في القرآن" في كتاب "التصوير الفني في القرآن".

ومن هنا يخرج من مجال الفن الإسلامي كل القصص " الجنسية " التي لا تهدف إلى شيء سوى إثارة الغريزة، والتي تصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس مسعور. فليس ذلك حقيقة. وكل القصص التي تزين الفاحشة - أية فاحشة : نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو خلقية - وتبينها في صورة جميلة. فليس ذلك حقيقة. وكل القصص التي تعرض نقائص الإنسان في صورة علمية بادرة على أنها هي وحدها حقيقة الإنسان الأصيلة العميقة. فليس ذلك حقيقة. وكل القصص التي تقلب القيم فتصور انتصار الشر على الخير على أنه سنة كونية. فليس ذلك حقيقة (وإن بدا في فترة معينة من الزمن أنه حقيقة!) وكذلك كل القصص التي تهدف إلى شيء! فليس حقيقة أن هناك شيئاً بلا هدف في هذا الوجود!

ثم يبقى بعد ذلك مجال واسع جداً لتصوير الحياة البشرية في شتى حالاتها ومجالاتها، وتصوير النفس البشرية في شتى انفعالاتها وتقلباتها، وتصوير القيم الإنسانية في شتى مستوياتها ودلالاتها.. مقيسة كلها بنواميس الوجود، وبفكرة " الجمال " الأصيلة العميقة في بنية الكون والحياة والإنسان. مجال تلقي فيه " الحقيقة " الكونية " بالجمال " الكوني، بلا تعارض ولا اصطدام، لأنه لا تعارض في فطرة الكون بين الحقيقة والجمال!



وقد استخدم القرآن - في أغراضه الدينية البحتة - كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأمكانها وأشخاصها وحوادثها. والقصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج. والقصة المضروبة للتمثيل، والتي لا تمثل واقعة بذاتها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة وأي عصر من العصور.

من النوع الأول كل قصص الأنبياء. وقصص المكذابين بالرسالات وما أصابهم من هذا التكذيب. وهي قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصص : موسى وفرعون. عيسى وبني إسرائيل. صالح وثمود. هود وعاد. شعيب ومدين. لوط وقريته. نوح وقومه.. الخ.

ومن النوع الثاني قصة ابني آدم :

" وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَكِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ

فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ " (٢٢١)

ومن النوع الأخير قصة صاحب الجنتين :

" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا، كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنْهَا مُنْقَلَبًا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِمَّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِيَّهُ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا " (٢٢٢).

○ ○ ○

وقد كان أمراً طبيعياً أن تكون القصة في القرآن " موجهة " خاضعة للأغراض الدينية التي جاءت لتحقيقها. فليس القرآن كتاب قصص في أصله. وإنما هو - كما قلنا - كتاب تربية وتوجيه، وإنشاء حياة إنسانية كاملة. ولكن الدقة في الأداء، وبروز القواعد الفنية فيه، تجعل القصة - مع خضوعها للغرض الديني - طليقة من الوجهة الفنية، وتتيح لنا أن نتحدث فيها عن بعض السمات والخصائص الفنية البحتة من حيث دلالتها في منهج الفن الإسلامي.

○ ○ ○

من السمات البارزة في قصص القرآن أنها قصص " نظيفة ".

(٢٢١) سورة المائدة [٢٧ - ٣١] .

(٢٢٢) سورة الكهف [٣٢ - ٤٣] .

وليس المقصود بالنظافة أنها تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء! فالقرآن يعرض تلك النفس في جميع حالاتها : حالة القوة وحالة الضعف. حالة الارتفاع وحالة الهبوط. وحالة التأرجح بين القوة والضعف والارتفاع والهبوط. كما يرسم الدوافع المختلفة التي تتناوش نفوس البشر في الأرض، فتدفعهم حيناً إلى اللصوق بالطين، وتتيح لهم حيناً فرصة الرفرفة والانطلاق.

ولكن منشأ النظافة أنه حين يلم بلحظة " الضعف البشري " لا يصنع منها بطولة تستحق الإعجاب والتصفيق! إنه يعرضها عرضاً " واقعياً " خالصاً، ولكنه لا يقف عندها طويلاً، وإنما يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة. لحظة التغلب على الضعف البشري، لأنها الجديرة بتسليط الأنوار عليها. وهي في حقيقتها " الإنسان " الذي كرمه الله وفضله على كثير من الخلق، وعهد إليه بالخلافة الراشدة في هذه الأرض.

فهو إذ يعرض الفتنة التي وقع فيها سليمان أو داود أو يوسف أو موسى.. يعرض لحظة الضعف كما هي بلا " رتوش ". إنها فتنة. إنها ضعف. إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية. ولكنها - على واقعيتها - لا تستحق الاحتفال، إلا من جانب واحد.. هو أن الإنسان يفيء منها إلى نفسه، ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها، وينيب إلى الله.

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ " (٢٢٣).

" وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ، وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ " (٢٢٤).

" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ.. قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا

(٢٢٣) سورة ص [٢١ - ٢٤] .

(٢٢٤) سورة ص [٣٠ - ٣٥] .

تَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (٢٢٥).

"وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَمِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ، فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ" (٢٢٦).

تلك وأمثالها لحظات "ضعف بشري" يعرضها القرآن دون مداراة على أصحابها. ولكنه لا يصنع منها بطولة. لأنها في الحقيقة ليست كذلك!

كما أن هناك سمة بارزة أخرى في القصص القرآني وهو عرض قصص "الفاحشة". إنه لا يعرضها لإثارة تلهذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة كما تصنع المذاهب "الواقعية" و "الطبيعية" في المذاهب الحديثة الضالة. فلحظة الجنس - منحرفة أو غير منحرفة - لا تستأهل الوقوف الطويل عندها. فإنها ليست هي الحياة، إنما هي وسيلة من وسائل الحياة. إنه عارض يعرض في الحياة ويُقضى. يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق. يفسح المجال للتصور الإيماني الكبير للكون والحياة والإنسان. لملء المشاعر بذلك التصور، وإطلاق النفس في واقع الحياة تحاول أن تحقق من كماله ما تقدر عليه: من إقامة مجتمع نظيف. من تربية نفوس مستقيمة. من إقامة الحق والعدل في الأرض. من تمتيع الناس بحقوقهم، وتحميل الحياة لهم بحيث تستحق أن تعاش، في غير فتنة بها ولا انحراف. وتلك كلها أهداف ضخمة تشغل الحس البشري، وتشغل هم الإنسان الرفيع الذي ينبغي أن يعمر وجه الأرض. ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس الوقوف الطويل عندها، وتفصيلها، وإعادتها، والتفنن في عرضها، لأن ذلك إسراف في المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية، وتحويل للوسيلة حتى تصبح غاية. وهي ليست كذلك ولا ينبغي أن تكون.

(٢٢٥) سورة يوسف [٢٤، ٣٤].

(٢٢٦) سورة القصص [١٥ - ٢٢].

تلك قاعدة مرعية في كل قصص القرآن عن " الفاحشة ". وهي كذلك ينبغي أن تكون مرعية في كل القصص الإسلامي. إن الإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية - نظيفة أو غير نظيفة - ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف. ولكنه يعرضها كما ينبغي أن تعرض. لحظة ضعف لا لحظة بطولة. ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يظل دائراً في حلقتها المرتكسة على الدوام (٢٢٧).

أما الخصائص الفنية ففي فصل " القصة في القرآن " في كتاب " التصوير الفني في القرآن " حديث مفصل عنها لا أجد بأساً من تلخيصه في هذه السطور :
أولى هذه الخصائص الفنية تنوع طريقة العرض :

فمرة يذكر ملخصاً لقصة يسبقها، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها.

ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة من أولها وتسير بتفصيل خطواتها.
ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجأتها الخاصة ما يغني.

ومرة يحيل القصة تمثيلية. فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها.

وثانية هذه الخصائص تنوع طريقة المفاجأة :

فمرة يكتفئ سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معاً في آن واحد.
ومرة يكشف السر للنظارة ويترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين، وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين!

ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة.

ومرة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرها في الوقت ذاته.

وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد و " قصص المناظر، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة

(٢٢٧) عن كتاب " منهج التربية الإسلامية " .

يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب.

والخصيصة الرابعة هي التصوير. إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري، لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى.

وهذا التصوير في مشاهد القصة ألوان: لون يبدو في قوة العرض والإحياء. ولون يبدو في تخيل العواطف والانفعالات. ولون يبدو في رسم الشخصيات. وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيسمى باسمه. ولكن الواقع أن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً. والآن نستعرض نموذجاً من نماذج القصة في القرآن، لنرى بعض هذه الخصائص والسمات.

قصة آدم

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (٢٢٨).

○ ○ ○

(٢٢٨) سورة البقرة [٣٠ - ٣٩] .

تلك قصة آدم.. قصة البشرية كلها من المنشأ إلى المصير.. قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه.

" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة "

فالإنسان ليس نباتاً شيطانياً، خرج إلى الوجود حيثما اتفق، بلا قصد من خلقه ولا غاية.. وليس هو كذلك " حلقة " من حلقات التطور، أوصلتها الحلقة السابقة إلى مكانها، ثم تركتها لحظها في خط التطور العشوائي المتشعب الذي تلعب المصادفة فيه دورها على غير نظام معلوم!

وإنما هو من خلق الله، عن قصد منه سبحانه وتدبير :

" إني جاعل في الأرض خليفة "

فهي إرادته العليا التي " جعلت " الإنسان إنساناً، وهي إرادته العليا كذلك التي " جعلت " لهذا الإنسان مهمة معينة.. مهمة الخلافة عن الله في الأرض.

مولد الإنسان تحتفل به السماوات!

هذا هو الملاء الأعلى من الملائكة يُعلن بالنبأ العظيم، يعلنه الله سبحانه وتعالى بذاته :

" وإذ قال ربك للملائكة.. "

ومنذ اللحظة الأولى تحدد له مهمته في إعلان ووضوح. فهو مخلوق مُمَيَّز الوضع منذ أول لحظة، متفرد في ظروف وجوده وخلقته، لا كغيره من المخلوقات! " خليفة "!!

والملائكة يحارون في أمر هذا المخلوق، ويدهشون لقرار الله سبحانه في أمره - وهم الذين يقابلون أمر الله كله بالتسليم المطلق والترحيب - ولكن كأنما يحسون بعظم النبأ وخطورته، ويحسون بعظم النتائج التي ستنتج من وجود هذا الإنسان وخطورتها.. ولعلمهم قد رأوا " عينات " سابقة تنذر بما ذكروه من سفك الدماء والإفساد في الأرض، أو ربما كُشِفَ لهم عن علم ذلك، فهم مشفقون من وجود هذا المخلوق الخطر الذي سيغير صورة الحياة على وجه الأرض!

ولكن الله العليم الحكيم يرد عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون. فعلمه الشامل المحيط، الذي يعلم بدء كل شيء ومنتهاه، لأنه هو خالق كل شيء من بدئه لمنتهاه.. هذا العلم الشامل يعرف حقيقة الدور المعد لهذا الكائن الجديد، الذي يعلن الله سبحانه بذاته نبأ مولده في العالمين : " قال : إني أعلم ما لا تعلمون ".

" وعلم آدم الأسماء كلها "

إنها المزية الموهوبة لهذا المخلوق.. إنها الموهبة التي يزود بها منذ مولده ليستعين بها على أداء دوره في الأرض. إنها " المعرفة " زاد الإنسان الأكبر في هذه الحياة.

وحين يكشف الله للملائكة عن هذه الموهبة التي ميز بها ذلك المخلوق.. لا يملكون أنفسهم أن يسبحوا لله العليم القادر، الذي يخلق ما لا يعلمون.
 " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا " .

سجدوا للقدرة المعجزة المتمثلة في خلق الإنسان. إنه بصورته التي خلق عليها، بمواهبه التي أعطيت له، بدوره الذي يهيأ له.. معجزة تستحق السجود للخالق العظيم.
 وكل خلق الله معجز. وكله عظيم. والحياة ذاتها من أكبر معجزات الخلق.
 والملائكة يسبحون الله ليلهم ونهارهم ولا يفتررون. ويسجدون لله في كل حين. ولكن النبأ العظيم هنا يُبرزُ إبرازاً، وتعطى له أهمية واضحة، و " تحشد " له وسائل الاحتفال حشداً لتبرز قيمته كلها منذ البدء.

وذلك " فن " .. يجيء لخدمة الغرض الديني هنا، ولكنه في ذاته يحمل كل خصائص الفن الخالص، لأن الدين والفن في الإسلام كلاهما يعبر عن الحقيقة الكبرى.
 " إلا إبليس " !

إنه وحده قد أكلت الغيرة قلبه من هذا الوافد الجديد، الذي تدل النذر كلها على عظمة دوره المقسوم له في هذا الكون! فلولا عظمة هذا الدور ما كان هذا الاحتفال الذي يُجمَعُ الملائكة الأعلى لتلقي أنبائه مباشرة من الله العلي العظيم!
 " أبى واستكبر وكان من الكافرين " .
 " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة " .

لقد خلق لآدم من جنسه زوجاً، لم يجيء ذكرها بالتفصيل هنا - وفصل في أماكن أخرى - ولكن الإشارة واضحة.
 وقيل لآدم وزوجه اسكنا الجنة..

والإنسان منذ مولده مخلوق للأرض! " إني جاعل في الأرض خليفة " . فهو لم يخلق ليبقى في الجنة، التي شهدت مولده. ولم تكن إرادة الله له أن يبقى في الجنة، ولا أن يكون دوره النشيط فيها. ومع ذلك تناح له هذه الفرصة القصيرة ليتذوق طعم الجنة ويعلم كم فيها من نعيم. ويعلم كم يستحق هذا النعيم! إن الجنة بالنسبة له ليست خيالاً طائراً، ولا شوقاً مبهماً، ولا أمنية حائرة. وإنما هي حقيقة يشهدها بنفسه قبل أن يهبط إلى الأرض لدوره المقسوم.. لتظل ذكرها في نفسه حية نابضة، وحينه إليها مشاعر واضحة، وسعيه للعودة إليها حقيقة واقعة (٢٢٩).
 " وكلا منها رغداً حيث شئتما " .

(٢٢٩) انظر تفسير هذه الآيات في الجزء الأول من " في ظلال القرآن " .

النعيم كله مباح.. " رغداً "... فهو ميسر وقريب المنال.

ولكن الدور الذي يهيأ له هذا المخلوق العظيم الوزن في السماوات، يحتاج أن تكون له قوة ضابطة، يستطيع أن يمتنع بها عن بعض ألوان النعيم، حين تقتضي ظروف الأرض ذلك الامتناع. ولا بد من تربية هذه القدرة بالتجربة العملية. فالتربية النظرية لا غناء فيها حتى توضع على محك التجربة. والتدريب لا يكون إلا بالممارسة الفعلية.

" ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين "

أي شجرة هي؟ ولماذا " هذه " الشجرة؟ ذلك علمه عند الله. ولكن يستوي أن تكون آية شجرة. فالقصد هو التدريب على الامتناع. هو تربية القوة الضابطة. فإن أكلا من هذه الشجرة فقد أخفقا في التجربة وسقطا في الامتحان. وكانا عندئذ " من الظالمين ". ظالمين لأنفسيهما، إذ يعزفان عن تزويد نفسيهما بالقدرة اللازمة للدور العظيم، ويعرضان نفسيهما لدخول المعركة من غير سلاح.

" فأزلهما الشيطان عنها "

وفي مواضع أخرى ترد صيغة الإغراء التي فتن بها الشيطان آدم وزوجه. فمرة ترد هذه الصيغة: " قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى " (٢٣٠) ومرة ترد في هذه الصورة: " وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ " (٢٣١). إنها إذن " شهوة " الخلود هي التي استزل بها الشيطان آدم وزوجه فأكلا من الشجرة.. أو شهوة " الملك " .. القوة والسيطرة والسلطان.

إذن.. لقد صارت هذه الشجرة " شهوة " ..

وهذا المخلوق العظيم الذي يتلقى المأى الأعلى نبأ مولده من الله سبحانه مباشرة، وتحتفل به السماوات كل هذا الاحتفال، والذي يعدّ لدوره الضخم، ويزوّد بإمكانيات ذلك الدور.. إنه - على هذا كله - يحمل نقطة ضعفه التي يستزل منها الشيطان، عدوه اللئيم الذي أكلت قلبه الغيرة منه.

يضعف إزاء الشهوات.

يستوي أن تكون شهوة علم، أو شهوة قوة، أو شهوة سلطان، أو شهوة ملك، أو شهوة جنس، أو شهوة خلود.

إنها " شهوة " حين تركبه فلا يملك نفسه منها.. لا يملك الامتناع عنها حين يريد الامتناع. وعندئذ يتدخل عدوه الواقف له بالمرصاد، فيقوده من خطاهمه في طريق

(٢٣٠) سورة طه [١٢٠] .

(٢٣١) سورة الأعراف [٢٠] .

الشهوات. وعندئذ يبعد به عن الدور المعدّ له. دور الخلافة عن الله. فهو مشغول بشهوته. عاجز عن ضبط نفسه إزاءها. عاجز عن الارتفاع عنها. عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلى.. إلى الله.

" فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه ".

أخرجهما من نعيم الجنة حسّيه ومعنويه سواء. أخرجهما من مستوى الرفعة الكريمة التي يمارسان فيها أجمل ما في كيانهما من إشراق.

ولكنما كان ذلك هو الموعد المضروب لهما أن يهبطا إلى الأرض، ليؤديا دورهما الأصيل :

" وقلنا اهبطوا. بعضكم لبعض عدو. ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ".

ولكن لم يكن بد من التجربة قبل الهبوط.. ليعرف الإنسان - من تجربته الذاتية - لماذا هبط من النعيم. ليعرف أن الذي يهبط به هو شهواته. نقطة الضعف المركبة فيه. وأنه يرتفع حين يضبط هذه الشهوات. حين يمتنع إذ يريد الامتناع، أو يقتضي الأمر الامتناع. وأنه يهبط حين لا يضبط هذه الشهوة. حين لا يملك القدرة على الامتناع..

وإذ يعرف ذلك تدركه رحمة الله.

" فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ".

إنه لا يهبط إلى الأرض منبوذاً محتقراً مطروداً من رحمة الله. كلا! فالله قد خلقه ليؤدي دوره في الأرض. ومركز خلافته وميدانها هو الأرض. وهو قد جاءها ليؤدي المطلوب منه، المقسوم له منذ الأزل. وإنما كان الغضب عليه للحظة الضعف التي أصابته، فكان الرضا عنه حين عرف ميزان نفسه، وأدرك متى يهبط، وكيف السبيل إلى الارتفاع.

" إنه هو التواب الرحيم ".

" قلنا اهبطوا منها جميعاً. فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ".

لقد اكتسب الإنسان التجربة المناسبة لدوره الخطير. إنه خليفة الله في الأرض، المزود بوسائل الخلافة ومواهبها، والمشمول كذلك على نقطة ضعف ينفذ منها الشيطان عدوه الحاقد اللئيم. ومن ثم كانت تلك التجربة التي تكشف له نفسه على حقيقتها ليحترس. ليغطي نقطة الضعف ويقويها بعد أن لمسها بنفسه حقيقة واقعة. وليحترس من العدو الواقف بالمرصاد، بعد أن لمس بنفسه قدرته على الخديعة، والمنفذ الذي يتاح له الولوج منه إلى نفس الإنسان.

ومن ثم تصبح هذه التجربة ذاتها - على مرارتها - جزءاً من مقومات الخلافة في الأرض. جزءاً من " القوة النفسية " الممنوحة للإنسان. جزءاً من الزاد الذي يزود به لأداء الدور. وهي فوق ذلك عبرة لكل بني آدم، الذين يشهدون في أنفسهم ذات التجربة، والذين يعرفون قصة أبيهم آدم فيتوقون للعودة إلى الجنة التي أخرج منها أبوهم القديم. وهم عائدون..

عائدون بعد أن وُيدوا الدور الي خلقوا لأجله من الأصل. دور الخلافة عن الله في الأرض..

عائدون بشرط :

" فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " .

إن الله بعد أن زود الإنسان بالتجربة الكاشفة، والقوة النفسية المستمدة من التجربة، لم يتركه وحده وهو يقوم بدوره على الأرض. لم يتركه لنفسه وفيها ما فيها من ضعف. ولم يتركه لعدوه الواقف له بالمرصاد، دون أن يهديه السبيل إلى مناجزة ذلك العدو، والسبيل لتقوية ما في النفس من ضعف، والسبيل إلى القيام بالخلافة كما ينبغي لخليفة الله.

إنه يمدد بالهدى..

يمده بالدستور الذي ينظم حياته على الأرض، ويرفع من شأنها، ويوجهها وجهة الخير.

يمده بالنصائح والتوجيهات والتحذيرات في كل خطوة من خطواته. ويزوده بالمعرفة النافعة التي تعينه على تخطي العقبات، والتي تيسر له المهمة الشاقة، وتكشف له عن طاقات نفسه الحقيقية، وما تستطيع أن تكون عليه من رفعة وعظمة واقتدار، لو سار بها على النهج القويم.. في طريق الله.

فمن تبع هذا الهدى.. من سار على هذا النهج.. من عمل بهذا الدستور.. فهو ناجٍ من المهالك، ناجٍ من العدو. ناجٍ من عثرات الطريق. " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " وموعدهم الجنة في آخر المطاف، يعودون إليها بموجب وعد الله الثابت، أن يعيد إلى النعيم المفقود من تبع هداه.

أما المكذبون الكافرون.. أما الذين يصرون على المخالفة، ولا يتوبون لله التواب الرحيم.. أما الذين يفتحون للشيطان منافذه في نفوسهم، ويسيروا في طريق الشهوات.. أما هؤلاء فقد حقت عليهم عقوبة الطرد الأبدي من النعيم الموعود. و " أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " .

تلك قصة البشرية.. بدأها آدم، وما تزال تتكرر في حياة البشر على صورة من الصور على ممر الأجيال.

والقرآن يعرضها بطبيعة الحال لهدف ديني بحث، هو التحذير من نزغات الشيطان، والحض على اتباع هدى الله، والترغيب في الطاعة والترهيب من العصيان. وذلك إلى جانب بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان، وإشعار هذا الإنسان بقيمته في نظام هذا الوجود، وبكرامته على الله سبحانه، وبتكاليف هذه النظرة وهذا التكريم.

ولكن هذا الهدف الديني البحث تستخدم له هنا الوسائل الفنية بدلاً من إلقائه موعظة مباشرة. فتستخدم له القصة، وتستخدم في القصة كل وسائل التشويق والعرض التي تستخدم في الفن الخالص.

وتلك ذخيرة فنية صالحة للاقتداء بها من ناحيتين : ناحية استمداد النظرة إلى الإنسان من خلال هذه النظرة الإلهية إليه، وهي تمثل حقيقته كما خلقها الله. وناحية تناول الفني للموعظة التي توجه الناس إلى الخير والكرامة والنظافة.. " فالموعظة " المطلوبة، أو " التوجيه " الخلفي المطلوب، يمكن أن يصاغ في قصة فنية، فيؤدي هدفه أبلغ أداء، دون أن تظهر فيه الموعظة بصورة مباشرة، ودون أن يكون التوجيه أوامر ونواهي مجردة، خالية من " الكساء " الحي الذي يوسع مساحتها في الحس، ويجعلها أبلغ وصولاً إلى أعماق النفس.

ثم إن هذه القصة تحمل إيجاءات شتى في " الموضوع " الفني ينبغي أن يتيقظ لها الفن الإسلامي وهو يحاول الاستفادة من القرآن في مجال الفن.

فالإيجاء الأول أن الإنسان كائن فذ متفرد في خلقته ومواهبه، وأنه مخلوق لهدف جاد، هو الخلافة عن الله في الأرض.

ومن ثم ينبغي أن يكون القصص - والفن كله - جاداً في عرضه للحياة البشرية.

ولا نقصد " بالجد " أن نلغي الفنون " الهزلية " (الكوميديّة) من الحساب! كلا فالملمهة يمكن أن تكون جادة جداً في الموضوع الذي تتناوله بالسخرية والإضحاك.

ولا نقصد أن يفقد الفن نداوته وطلاوته وعدوبته، ليصبح نصائح وقواعد خلقية وإرشادات!

إنما نقصد بالجد هنا أن نؤمن بجديّة الحياة وأهميتها، وعظم الدور الذي يقوم به الكائن الإنساني في هذا الوجود، وارتباطه بإرادة الله العليا، وسريان قدر الله في الأرض عن طريق أعماله ومشاعره وأفكاره : " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .." فلا نرسم الحياة تفاهة وانحلالاً وفراغاً من القيم والأهداف (إلا أن نريد هذا العرض عن قصد لنتنقده ونُفَرِّ منه) ولا نرسمها ذات أهداف واطية قريية كأهداف الحيوان..

فذلك يخالف " القصد " العلوي من خلق هذا الكائن البشري، والاحتفال به يوم مولده في المأى الأعلى بكل هذا التكريم والتفخيم والإعلان.

ولا علينا بعد ذلك أن تكون الصورة التي نعالج بها القصة مأساة أو ملهية .. فالملهية يمكن أن تكون حادة - كما قلنا - وهي تعرض اختلالات البشرية وتسخر بها، لأنها تتخذ السخرية والهزل وسيلة فنية لتضخيم الاختلال وإبرازه، ليتبدى من وراء ذلك ما ينبغي أن تكون عليه البشرية من رفعة واستقامة وتوازن واتساق. ولا علينا كذلك من إعطاء الفن كل ما نملك من نداوة وعدوبة وطلاوة فهذه كلها عنصر أصيل في الفن لا يستطيع الاستغناء عنه.

إنما المهم أن نحس من خلال هذا الفن أن الحياة شيء له قيمته الحقيقية، والإنسان كائن ذو مكانة ورفعة وقصد وأهداف.



والإيحاء الثاني هو " نقطة الضعف " في الكائن البشري، وطريقة عرضها وإبرازها. إن القرآن - وكذلك ينبغي أن تفعل الفنون الإسلامية - يعرضها على أنها نقطة ضعف. " وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً " (٢٣٢). " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا " (٢٣٣) " وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى " (٢٣٤) وهذه في ذاتها حقيقة. فهذا المخلوق الفذ الفريد الذي تسجد له الملائكة يضعف إزاء شهواته فيهبط إلى الحضيض.. ولا يرتفع إلا حين يقدر على ضبط ما ركب في طبيعته من شهوات.

والفن الصادق في التعبير عن الحياة، وعن " الواقع "، وعن نواميس الكون الكبرى، ينبغي أن يعرض هذه الحقيقة كما هي بلا تزوير. ينبغي أن يعرضها على أنها نقطة ضعف ألت بآدم - وتلم من بعده بكل أبناء آدم - ثم استطاع أن يستعلي عليها، وكذلك يستطيع بنوه.

أما الآداب الأوروبية المنحرفة الضالة فإنها تعرضها على أنها مفخرة آدم وبطولة! إن لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق فيها آدم كيانه وأصبح سيد نفسه! وهي اللحظة التي أصبح فيها القوة المسيطرة الفعالة. ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التي كان فيها آدم، فإنها لا تساوي شيئاً إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيته، واختياره مصيره بنفسه، بحرية، بعيداً عن وصاية الله!

(٢٣٢) سورة طه [١١٥] .

(٢٣٣) سورة البقرة [٣٦] .

(٢٣٤) سورة طه [١٢١] .

كذلك تعرضها الآداب الأوربية المنقطعة عن هدى الله، المتأثرة في صميمها بما رسب في كيانها من أساطير اليونان القديمة التي تصور الصراع الدائم بين البشر والآلهة، وتتمنى انتصار البشر على الآلهة، الظالمين الطغاة!

وهي آداب ذات إيجاء خبيث لا يخفى. فهي توحى للناس بعصيان ربهم والإغراق في الشهوات لكي يحققوا ذواتهم! كأنما الطريق الوحيد لإثبات الذات هو الشهوات والعصيان! وكأنما الطاعة لله هي انعدام الشخصية وزوال الكيان!

إنها نظرة - فوق ما فيها من مرض وانحراف - فجحة تعيش في مستوى الأطفال!

فالطفل وحده هو الذي يظن أنه يثبت وجوده حين يعصي، ويلغي كيانه إذا أطاع! ولكنه حين يكبر وينضج، حين يفهم الحياة في عمقها وحقيقتها، يعرف أن هناك طريقين لا طريقاً واحداً لإثبات الذات : طريق الطاعة وطريق العصيان. طريق الهدى وطريق الضلال. وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعناد مع الحق، إلا في حالة الضعف والمرض والهبوط. أما في حالته السوية، حالة الصحة والارتفاع، فإنه يجد ذاته في مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصعود. ويحقق كيانه بقدر ما يستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيرة المهدية إلى الله.. أي بقدر ما يستطيع أن يضبط من شهواته ليقدر على الصعود.

هذه حقيقة البشرية على الأرض. وهي الحقيقة التي ترمز لها قصة آدم في القرآن. وهكذا ينبغي أن تعالجها الفنون كلها، لتكون واقعية صادقة التعبير عن ناموس الحياة.

لحظة العصيان هي لحظة الضعف والهبوط لا لحظة القوة والارتفاع.. لحظة تقع لبني آدم في أية لحظة وفي كل لحظة، ولكنها تظل كما هي في حقيقتها : لحظة هبوط، ويظل التوجيه الواجب هو الإفاقة منها، والتحول إلى طريق الارتفاع.

والضعف البشري ليس هو البطولة التي تستحق التشجيع والتسجيل، وإنما البطولة الحقة هي محاولة البشر الدائمة للخلاص من نقطة الضعف، والانطلاق من ضغط الضرورات.

○ ○ ○

ولن نستعرض هنا كل القصص القرآني، فذلك وحده يحتاج إلى كتاب! وإنما نكتفي بهذا النموذج الذي يحمل هذا الحشد من الإيجاءات الموضوعية والفنية سواء.

و حين يستمتع الإنسان بهذا " الفن " في قصص القرآن، يدركه الأسف ولا شك، على أن الأدب العربي قد خلا تقريباً - إلى ما قبيل العصر الحديث - مما يمكن أن يسمى قصة فنية حقيقية، مع وجود هذا الذخر الفني كله في كتاب العرب المسلمين، الذي يتلونه آناء الليل وأطراف النهار! وأنه حين وجد هذا الفن لم يستمد من هذا الأصل الكبير، إنما استمد من التصورات الغربية مادته وإيجاءاته، كما استمد طرائق الأداء. وطرائق الأداء لا ضير من استمدادها من هناك. أما التصورات والإيجاءات فقد كان استمدادها من النبع الأصل أجدى علينا وعلى البشرية، وأكمل وأجمل، وأكثر اتساقاً مع جمال الكون وجمال الحياة.

إنها خسارة كبيرة أن العرب لم يتوجهوا إلى القرآن يستمدون منه وحيهم الفني. وإذا كنا لمسنا هذه الخسارة من قبل في ندرة فن " الطبيعة " في الشعر العربي، فنحن نلمسها هنا أشد، في خلو الأدب العربي من القصة المستفيدة بتوجيه القرآن الموضوعي أو الفني على حد سواء!

وكم كان هذا الأدب يملك أن يسبق الآداب العالمية كلها في هذا الفن، ويظل مبرزاً فيه، لو فتح بصيرته لتلك الذخيرة الضخمة التي يحويها هذا الكتاب!

ثالثاً

مَشَاهِدُ الْقِيَامَةِ فِي الْقُرْآنِ

ليس من همتنا في هذا الكتاب أن نستعرض كل فنون التعبير الفني ولا موضوعاته في القرآن. وإنما نختار فقط نماذج من الموضوعات تشير إلى تلك الثروة الفنية الضخمة ولا تحصرها. وقد تحدثنا من قبل عن مشاهد الطبيعة ثم عن القصة. وهنا نتحدث - بغير تطويل - عن مشاهد القيامة في القرآن، وهي من أوسع أبواب الفن فيه. ومن أكثرها وروداً في ثنايا القرآن.

وقد استفاد من هذه المشاهد شاعران عالميان، أحدهما عربي وهو أبو العلاء المعري في " رسالة الغفران " والآخر هو " دانتي " الشاعر الإيطالي الذي عاش في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي وبداية القرن الرابع عشر، وذلك في " الكوميديا الإلهية "، التي يغلب على الظن أنه استمدّها وتأثر فيها برسالة الغفران.. وإن كانت المصادر الأدبية الأوروبية تستنكف أن تعترف اعترافاً واضحاً بهذا الأمر.

ولكن الموضوع من ناحية، وطريقة العرض الفني من ناحية أخرى، أكبر وأوسع من أن يقتصر عليهما هذان العمالان الأدبيان، وما يزالان يصلحان للإيجاء الفني في شتى الاتجاهات، لو أرادت الفنون المختلفة من شعر وقصة ومسرحية وموسيقى وتصوير.. أن تتخذ منهما مادة فنية خصبة رائعة الخيال.

و " الموضوع " في مشاهد القيامة موضوع ديني قبل كل شيء.. ولكنه ذو دلالات فكرية وخلقية وجمالية.. فهو أصفى تصور عرفته البشرية لفكرة الجزاء الأخروي عن أعمال البشر في الحياة الدنيا. ولكن " الفكرة " فيه لا تقف عند حد الجزاء، التي وصلت إلى شيء قريب منها أفكار الفراعنة في " كتاب الموتى " (٢٣٥).

إن من أبرز سمات هذه الفكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالاً وثيقاً بحيث تكون الآخرة هي " الامتداد " للدنيا، أو النهاية الطبيعية الحتمية لها، بلا فواصل حاجزة تفصل بين هذه وتلك. وهذه السمة بالذات لا يعرضها القرآن باللفظ المجرد، ولا بطريقة التجريد الذهني الفلسفي، وإنما يستخدم لذلك وسيلة عجيبة من وسائل العرض الفني - سنذكر نموذجاً منها - تنقل الحس نقلاً مباشراً من الدنيا للآخرة بلا انقطاع ولا فاصل،

(٢٣٥) يعتقد البعض أن بين الرسل الذين أشار إليهم القرآن دون أن يسميهم، من أرسل إلى مصر وبشر فيها بدين الله. ثم تحول شيء من هذا الدين إلى أساطير كما حدث في كثير من بقاع الأرض.

حتى يقر في النفس أنها رحلة واحدة، أولها هنا في الأرض وآخرها هناك في العالم الآخر.. ولكنها منذ البدء موحدة الهدف موحدة الاتجاه!

ومن سماتها التي تدخل في باب " الفلسفة " إذ تتناول التصور " الكمالي " و " الجمالي " للحياة، أن الآخرة - بصورتها من ثواب وعقاب - ليس نهاية الرحلة فحسب، ولكنها " التطور " النهائي لها كذلك.

" فالنفس " البشرية تولد في صورتها الحسية الجسيمة على الأرض، ثم تخوض التجربة الكبرى، تجربة الحياة، وتتطور في أثناء هذه التجربة تطورات مختلفة بعضها صاعد وبعضها هابط، وبعضها يتأرجح بين الصعود والهبوط.. حتى إذا تمت التجربة الأرضية كان التطور كذلك قد تم، وأخذت النفس صورتها النهائية الصاعدة أو الهابطة، وكان الجزء - بصورتيه - هو التطور النهائي للحياة بما يناسب تطور النفس وينسجم مع سماتها الأخيرة.

فالذين آمنوا، وحاضوا بتجربة الحياة محاولين أن يترفعوا ويحققوا أفضل ما في إنسانيتهم، يصلون في النهاية مثلاً إلى أن يقال عنهم : " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ (٢٣٦) " كأنما هذا هو التطور الأخير لنفوسهم، نتيجة المجاهدة الطويلة للارتفاع على هذا " الغل " في الحياة الدنيا. وتشف نفوسهم، نتيجة هذه المجاهدة المستمرة فيقال عنهم في الآخرة : " سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٢٣٧) ". كأنما الود هو قمة الجزء الإلهي لهم على هذه المحاولة الدائبة في الحياة الدنيا للوصول إلى الشفافية الطليقة من وراء قيد الضرورة الصفيق!

فإذ كان القرآن يرسم للنعيم صوراً حسية (وهي ليست حسية خالصة، فقد ذكرنا في المثاليين السابقين كيف يصل النعيم إلى قمة الشفافية الروحية والنورانية الرائقة) فذلك لأن " الإنسان " في الآخرة هو إنسان هذه الدنيا، متطوراً في صورته النهائية التي اكتسبها من التجربة، ولكنه ليس منقطعاً عن صورته الأرضية تمام الانقطاع.

وبهذا تصبح الآخرة هي " اكتمال " الحياة الدنيا، ولا تصبح شيئاً مخالفاً لها في طبيعتها، منقطع الصلة بها. ويحس الإنسان بنفسه أنه " هو " هنا وهناك، وأن الذي سيتلقى النعيم أو يذوق العذاب ليس شخصاً آخر منقطعاً ومختلفاً عنه، وإنما هو ذاته في صورته النهائية التي تطور إليها نتيجة مسلكه في أثناء تجربة الحياة.

وبصرف النظر عن الجانب الديني من هذه الحقيقة الكبيرة، فإنه من الوجهة النفسية البحتة، ومن الوجهة الفنية والجمالية، تصور مريح للنفس، وجميل في حد ذاته، أن يكون

(٢٣٦) سورة الأعراف [٤٣] .

(٢٣٧) سورة مريم [٩٦] .

المستقر الأخير بعد التجربة المرة الكادحة الشاقة، امتداداً لنفس ذاتها التي ذقت التجربة، لا لأحد غريب عليها، مقطوع الصلة بها.

وهذه المعاني كلها موضوع خصب للتصور الفني، يستطيع أن ينشئ منه عشرات الصور والأشكال والموضوعات، فضلاً عن الاستفادة من طريقة العرض القرآني المعجزة، في إحياء هذه المشاهد، وهز النفس بما هزاً عنيفاً، ليبلغ التأثير فيها إلى الأعماق!

وليس لي أن أنشئ شيئاً جديداً في هذا الباب، فسأكتفي بعرض هذا النموذج من كتاب "مشاهد القيامة في القرآن" ففيه الغناء كل الغناء!

سورة الأعراف

"يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَنِينَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ، قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَهُمْ غَذَاءًا ضَعِيفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَا تَعْلَمُونَ، وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ، إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ، لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذِنَ مَوْدُنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعُودُنَهَا عَوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ، وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ، أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا

يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ " (٢٣٨).



ربما كانت هذه أطول مشاهد القيامة وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع، وهي تحيي في السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء الشيطان له ولزوجه، وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة، وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته - على نحو ما أثبتنا في أول الآيات المنقولة هنا - ثم يأخذ في عرض مشاهد القيامة، فإذا الذي يقع فيها مصداق لما ينبئ به هؤلاء الرسل ؛ وإذا الذين يطيعون الشيطان فيكذبون قد حرموا العودة إلى الجنة، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا، قد ردوا إلى الجنة ونودوا من الملائكة الأعلى، " أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون ". فكأنما هي أوبة المهاجرين وعودة المغتربين إلى دار النعيم.

وفي هذا السياق بين القصة السابقة ومشاهد القيامة اللاحقة من التناسق الفني ما فيه. فهي قصة تبدأ في الجنة على مشهد من الملائكة يوم أن خلق آدم وزوجه وأسكنها الجنة ففتنهما الشيطان عن الطاعة وأخرجهما من النعيم - كما جاء في قصة آدم في السورة - وتنتهي كذلك في الجنة على مشهد من الملائكة في اليوم الآخر، فيتصل البدء بالنهاية، ويضمن بينهما فترة الحياة الدنيا فيما لا يتجاوز صفحتين من كتاب، حافلتين بالمشاهد، ومنها مشهد الاحتضار، وهو يتسق في الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق.

إنها ملحمة رائعة لا ينقصها الشعر، فهي مصوغة في قالب الفني الذي يتضاءل أمامه الشعر، وتجتمع له كل عناصر الجمال.

والآن نأخذ في استعراض هذه الملحمة ومشاهدها العجيبة :

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار - وهو برزخ بين الدنيا والآخرة - احتضار الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآياته، وقد حضرهم رسل ربهم يتوفونهم ويقبضون أرواحهم. فدار بين هؤلاء وأولئك حوار : " أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ " أين اهتكم التي اعتصمتم بها في الدنيا وفتنتم بها عن الإيمان بالخالق الأعلى؟ أين هي الآن في

(٢٣٨) سورة الأعراف [٣٥ - ٥١] .

اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يحفظ عليكم الحياة؟ ويكون الجواب هو الجواب الوحيد الذي لا معدى عنه ولا مغالطة فيه : " قالوا : ضلوا عنا " " وغابوا، فنحن لا نعرف لهم مقراً، وهم لا يسلكون إلينا طريقاً. ألا ما أضيع عبادة لا تهتدي إليهم أهلتهم، ولا تسعفهم في مثل هذه اللحظة الحاسمة! وما أخيب آلهة لا تهتدي إلى عبادها في مثل هذا الأوان! واليوم إذن لا جدال ولا محال " وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ".

فإذا انتهى مشهد الاحتضار فنحن أمام المشهد التالي له في النار - فالزمان بين الاحتضار والبعث يطوى هنا طياً، وكأنما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار! - " قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار " انضموا إلى زملائكم من الجن والإنس، أليس إبليس هو الذي عصى ربه وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه، وهو الذي أغوى العصاة من أبنائه؟ فليدخلوا جميعاً سابقين ولا حقين في نار الجحيم.

ولقد كانت هذه الأمم في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها، ويملي متبوعها لتابعها، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها، وكيف يكون التنازع فيها : " كلما دخلت أمة لعنت أختها ". فما أبأسها من عاقبة تلك التي يلعن فيها الأخ أخاه! " حتى إذا أداركوا فيها جميعاً " وتلاحق آخرهم بأولهم، واجتمع قاصيهم بدانيهم، بدأ الخصام والجدال : " قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا، فآثم عذاباً ضعفاً من النار ". وهكذا تبدأ المهزلة الأليمة ويتكشف المشهد عن الأصفياء وهم متناكرون أعداء، يتهم بعضهم بعضاً، ويطلب له من " ربنا " شر الجزاء. من " ربنا " الذي كانوا من قبل ينكرونه، وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء! فيكون الجواب طمأنة للداعين باستجابة الدعاء، ولكنها طمأنة ساحرة واستجابة أليمة : " قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون " فاطمئنوا، فأنتم وهم ستنالون هذا الضعف الذي تطلبون!.. وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين حينما سمعوا جواب الدعاء، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة يقولون : لستم بأفضل منا فتنجوا، ولسنا أولاكم بالعذاب، فكلنا فيه سواء : " وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ".

وهذا ينتهي ذلك الجانب الساخر الأليم، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل أبداً - وذلك قبل عرض الجانب الآخر الذي يصور المؤمنين في جنات النعيم - " إن الذين كذبوا بآياتنا، واستكبروا عنها، لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ". ودونك فقف بخيالك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب.

مشهد الحبل الغليظ تجاه ثقب الإبرة الصغير! (٢٣٩) فحين تجد ذلك الحبل الغليظ يلج في هذا الثقب الصغير، فانتظر حينئذ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أما الآن - وإلى أن يلج الحبل في سم الخياط - فهم في النار التي تداركوا فيها جميعاً وتلاعنوا " وكذلك نجزي المجرمين ". وإليك صورهم فيها : " لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش " فالنار فراش لهم، يدعون للسخرية مهاداً - وما هو ممهد ولا لين ولا مريح - والنار غطاء لهم يغشاهم من فوقهم. " وكذلك نجزي الظالمين ".

والآن فانظر إلى الجانب الآخر : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات " ما بال هؤلاء؟ " أولئك أصحاب الجنة فيها خالدون " أصحابها وملاكها، فقد أورثوها جزاء ما عصوا الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة.

وإذا كان أولئك الكافرون المكذبون يتلاعنون في النار ويتخاصمون وتغلي في صدورهم الأحقاد بعد أن كانوا أصفياء أولياء، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متصافون يرف عليهم السلام والولاء : " ونزعنا ما في صدورهم من غل " وإذا كان أولئك يصطلون النار من فوقهم ومن تحتهم فهؤلاء " تجري من تحتهم الأنهار " وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنازع والخصام فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف " وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق ". وإذا كان أولئك ينادون : " فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون " زيادة في الإيلام والتحقير، فهؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم : " ونودوا : أن تكون الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ".

ثم يستمر العرض فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق. لقد استقر أصحاب الجنة في الجنة واستقر أصحاب النار في النار. وإذا الأولون ينادون الآخرين من هناك " أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ " - وفي هذا السؤال من التهمك المر ما فيه، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتتحقق الوعد سواء، ولكنه سؤال! - ويحيي الجواب من هناك : " نعم! " حيث لا مجال لنكران أو محال. وعندئذ ينتهي الجدل ويغلق الحوار " فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين ".

ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة - ساحة العرض الفسيحة - فإذا مشهد آخر، مشهد " الأعراف " الفاصلة بين الجن والنار، وكأنما هي " نقطة مرور " يفرز فيها أهل الجنة وأهل النار، ويوجه كل إلى مستقره هنا أو هناك. وعليها رجال يعرفون هؤلاء

(٢٣٩) " بعض المفسرين يفسر الجمل هنا بأنه الحيوان المعروف. ولكن الذي يدرس طريقة التصوير في القرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو في المنظر، يلحظ التنافر بين الجمل والإبرة، كما يلحظ التناسق إذا كان الجمل هو الحبل الغليظ أمام ثقب الإبرة الذي يدخل منه الخيط الدقيق. والاستحالة متوافرة في المعنيين، ولكن المعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير الأخير " .

وهؤلاء بسيماهم، فيوجهونهم إلى حيث هم ذاهبون. ويشيعون كلاً منهم بما يستحق من تحقير أو تكريم!...

وهؤلاء هم يتوجهون إلى أهل الجنة بالترحيب والسلام، ويتوجهون إلى أهل النار بالتبكي والإيلام " هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ " انظروا أين هم الآن؟ إنهم في الجنة يتلقون السلام!

وأخيراً ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من النار ملؤه الرجاء والذلة والاستجداء : " ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ! " وها نحن أولاء نتلفت إلى الجانب الآخر ننتظر الجواب، فإذا هو المعذرة والتذكير : " قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين !"

وحين ينتهي الاستعراض الكبير على هذا النحو المؤثر يجيء التعقيب متناسقاً مع الابتداء : تذكيراً بهذا اليوم الذي مرت مشاهدته، وتحذيراً من تكذيب آيات الله التي جاء بها الرسل إلى بني آدم انتظاراً لتأويل هذه الآيات. فما تأويلها إلا وقوعها على النحو الذي عرضت به. وحينئذ لا فسحة ولا شفيح : " هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل؟ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " (٢٤٠).



والآن وقد انتهينا من استعراض هذه المشاهد الخالابة، واستعراض تلك الألوان الثلاثة من الفن في القرآن، التي استعرضناها على سبيل المثال لا الحصر، نحس مدى الشراء والامتلاء في هذا الكتاب المعجز، ومدى ما يمكن أن يستوحيه الفن منه، في جميع أغراضه، لا في الأغراض " الدينية " وحدها، وإن كان الدين بمفهومه الإسلامي القرآني، لا ينزل عن الحياة لأنه يشمل كل الحياة.

إنها ثروة لا تنفد في كل منحى من مناحي الفن، ومجال للاستيحاء الدائم، ورصيد لفن إنساني رفيع سامق يحمل كل خصائص الفن الجمالية.. ويقود البشرية دائماً نحو النور والكمال.

(٢٤٠) " مشاهد القيامة في القرآن " ص ٨٦ - ٩٢ من الطبعة الرابعة .

فِي الطَّرِيقِ إِلَى أَدَبِ إِحْلَامِي

الأدب الإسلامي - في صورته المتكاملة التي استعرضنا أسسها من قبل - شيء لم يوجد بعد في الإنتاج البشري!

ولكن هذا لا ينفي وجود بواكير متفرقة من هذا الأدب، تنبئ بأنه قد ولد بالفعل، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج.

وهذا وحده شيء ليس بالقليل..

فحين يطمئن الإنسان إلى هذه البواكير، وإلى دلالتها على النضج المقبل، يستطيع أن يتطلع إلى اليوم الذي يتكامل فيه هذا الأدب - والفنون الأخرى كذلك - فتعطي الإنسانية كلها ذلك القبس المشرق الذي لم تهتد إليه بعد، وإن كانت قد وفقت إلى لمحات منه بين الحين والحين؛ وتعطيها ذلك الطعم المتكامل الذي افتقدته منذ مولدها ولم تصل إليه في تمامه، وإن كانت قد ذوقت بعض نكهاته متفرقة هنا وهناك: "القبس الكوني" الذي يعبر عن معنى الوجود كله.. و"الطعم الإنساني" الذي يعبر عن كل وجود الإنسان.

والأمر في حاجة إلى مسلمين.. فنانيين!

مسلمين يعيشون الإسلام في حسهم حقيقة واقعة، ويتلقون الحياة كلها بحس إسلامي، ومن خلال التصور الإسلامي، فنانيين في ذات الوقت، يعبرون عن هذه الحقيقة الواقعة في حسهم بصورة جميلة موحية، تتحقق فيها شروط الفن ومقاييس الجمال التعبيري.

والعنصران لازمان معاً في ذات الوقت.

فليس يكفي أن يكون الإنسان مسلماً لكي ينشئ فناً إسلامياً تتحقق فيه شروط الفن.

وليس يكفي بطبيعة الحال أن يكون فناناً - أي فنان - ليصل إلى التعبير عن الفن الإسلامي.

○ ○ ○

الإسلام وحده لا يكفي لإنشاء فن إسلامي..

فقد يستطيع مسلم صادق الإيمان وهب المقدرة على التعبير، أن ينشئ " أفكاراً " إسلامية عن الله. أو الكون. أو الحياة. أو الإنسان. أو كلها جميعاً.. وقد يستطيع أن " يجرد " من حياته وتجاربه الإسلامية صوراً فلسفية ومفاهيم عامة عن الإسلام. وهذا كله إنتاج له وزنه ولا شك في عالم الفكر وعالم الفلسفة وعالم التجريد.. ولكنه إنتاج لا صلة له بالفن..

فالفن ليس " فكرة " ولا " فلسفة " ولا " مفاهيم مجردة " كالتى تعنى بها " البحوث " الفكرية في شتى الميادين.

وإنما هو " الانفعال الذاتي الخاص " بالأشياء والأشخاص والأحداث. الانفعال الذي تتلقاه كل نفس مفردة على طريقته الخاصة في التلقي، وتنفع به في أعماقها، و " تعانيه " معاناة كاملة بكل جزئياته وتفصيلاته، ثم تخرج من هذه المعاناة المشتبكة بوشائج النفس، النافذة إلى حناياها ودروها، المختلطة برصيدها الخاص من المشاعر والتجارب والاتجاهات والميول.. تخرج منها بتجربة شعورية معينة، أو " بإفراز " معين، يحمل السمات الذاتية لصاحبه، ويحب صاحبه أن ينقله إلى " نفوس " الآخرين في صورة جميلة يتوافر لها التأثير والإمتاع.

والفن " رؤية " للواقع من خلال ذلك الانفعال الذاتي الخاص بالأشياء والأشخاص والأحداث، و " تفسير " لهذا الواقع في ذلك الضوء الخاص، تفسيراً شعورياً - لا فلسفياً فكرياً - كما أنه هو " رؤيا " للمستقبل، وللمجهول، وللماضي كذلك بنفس الشروط. والفن الإسلامي - من ثم - ينبغي أن يصدر عن فنان مسلم، أي " إنسان " تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة، والواقع بمعناه الكبير، وزود بالقدرة على جمال التعبير ؛ وهو في الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عانها، في صورة جميلة موحية.

وهذا هو الذي لم يتيسر من قبل في الأدب العربي - لسبب من الأسباب - والذي توجد منه اليوم بواكير متفرقة تنبئ بأنه قد ولد بالفعل، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج.

ولكنه - بهذا المعنى - ليس وفقاً على المسلمين وحدهم من الفنانين! صحيح أن المسلم الحق (٢٤١) - بطبيعة إسلامه - يجد الطريق أمامه ميسراً - حين يوهب الموهبة الفنية - لأنه يعيش المفاهيم الإسلامية بالفعل، وينفعل بالأشياء

(٢٤١) انظر في شرح مفهوم الإسلام كتاب : " هل نحن مسلمون ؟ " .

والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم، دون جهد مبذول منه ولا افتعال، بل دون قصد واعٍ منه إلى هذا الانفعال!

وصحيح - من ناحية أخرى - أن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعي المباشر لحقيقة إسلامه، ولأن الإنسان لا يصل إلى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الإسلام وبمفهوم الإسلام.

ومع ذلك فإن التصور " الفني " الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو تصور كوني إنساني.. مفتوح للبشرية كلها، لأنه يخاطب " الإنسان " من حيث هو إنسان، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان. ومن ثم يستطيع أي " إنسان " أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله - بمقدار ما تطبق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب - فيلتقي مع الفن الإسلامي بذلك المقدار.

ومن أجل ذلك لم نقصر النماذج التي أخذناها من " بواكير " الأدب الإسلامي على المسلمين من الفنانين، بل اخترنا إلى جانبها نماذج من فنانين غير مسلمين، لأنها تلتقي - التقاء جزئياً على الأقل - مع التصور الإسلامي، وتصلح بذلك أن تسير مع المنهج الإسلامي للفن في هذه الحدود.

ثم يبقى لدينا وراء ذلك نتاج عالمي ضخم - رائع في كثير من الأحيان - لا يلتقي بالتصور الإسلامي، ولا يسير مع المنهج الإسلامي للفنون. فما موقفنا منه؟ وما رأينا فيه؟ إننا لن ننبذه كله بطبيعة الحال، ولن نمتنع عن قراءته ودراسته والاستمتاع بما فيه من جمال جزئي.. على أن يظل في مفهومنا أنه جمال جزئي! وأنه - بكل ما فيه من جمال وروعة - يقوم ابتداء على قاعدة أدنى وأصغر من القاعدة التي ينبغي أن ينشأ عليها الفن الإسلامي.. الكوني الإنساني.. الشامل المتكامل، الذي يشمل كل الوجود وكل الإنسان. وسنجد كذلك فناً " محايداً " لا يحمل سمات معينة تقربه من المنهج الإسلامي، ولا يحمل كذلك سمات تصطدم بهذا المنهج وتسير منه في اتجاه مضاد.

وقد يكون في هذه الفنون كذلك لون من الجمال..

ولكنها لن تكون - على وجه التأكيد - من روائع الفن!

فالفن " الكبير " بطبيعته - يحمل بالضرورة تصوراً معيناً للكون والحياة والإنسان، وارتباطات بعضها ببعض، وارتباطاتها بالله خالق الجميع. ومن ثم يتحدد مكانه تلقائياً من منهج الفن الإسلامي : إما أن يلتقي معه التقاء كاملاً أو جزئياً، وإما أن يتعارض معه ويصادمه.

ولذلك لا نحفل كثيراً بهذه الفنون " المحايدة " وإن كنا كذلك لا نسقطها من الحساب!
ونأخذ - بعد - في ذكر بعض الأمثلة من " بواكير " الأدب الإسلامي تنير الطريق!

أولاً : من الشعر

(١) محمد إقبال

إقبال فيلسوف مسلم مفكر.. وله في عالم الفلسفة والفكر إنتاج ليس بالقليل.
ولكنه كذلك شاعر..

وفي غير قليل من شعره يمتزج الشعر بالفلسفة، وتلمس بصورة واضحة أنه يصوغ أفكاره - أو بالأحرى تجاربه الفلسفية - في شعر! ولكنه حتى عندئذ لا يعطيك تجربة فلسفية ذهنية، وإنما يعطيك تجربة "عاناها" في شعوره وانفعل بها وجدانه وجاشت بها نفسه، فعبّر عنها في نسق منغم موزون، ولم يعبر عنها بالنثر - كما يصنع في الأحوال الأخرى - لأنها ليست تجربة ذهنية يعبر عنها بالنثر.

ثم إن له - إلى جانب ذلك - شعراً خالصاً.. تحرر من جفاف الفكر ومن قيد الذهن.. وانطلق في خفة وطلاقة يعبر عن حرارة الوجدان.

وهو في معظم حالاته يعبر عن تصور مسلم، وإن شاب هذا التصور أحياناً أخلاط من تصورات صوفية هندية وغير هندية، تخرج به قليلاً أو كثيراً عن التصور المستقيم للإسلام.

وأشد ما يروعه من الفكرة الإسلامية الصافية، وأشد ما تنفعل به نفسه كذلك، هو "الحركة الحية" .. الحركة الحية في كل شيء في هذا الوجود.

إنه لا يوجد شيء ساكن على الإطلاق، لا في الحياة ولا في غير الأحياء. كل شيء حي. وكل شيء متحرك. وكل شيء يقتحم السكون لكي يوجد. لأنه "طاقة" والطاقة لا تطبق السكون. وإن أراد شيء لنفسه السكون فقد أراد الموت، وقد خرج بذلك عن الناموس!

وشيء آخر من الفكرة الإسلامية الصافية يروعه كذلك وتنفعل به نفسه، هو "النفس الإنسانية".

الإنسان - في حس إقبال - طاقة كونية ضخمة تتمثل فيها كل طاقات الوجود. إنها قبس من النور. قبس من القدرة الخالقة - وذلك معنى أن الإنسان خليفة الله في الأرض. وهو بذلك أثمن ما في الوجود كله، وأقدر ما في الوجود كله.. وذلك حين يستمد من الله. فهكذا خلقت الروح الإنسانية. أو "النفس" .. بحيث تستمد من قوة الأزل والأبد، فتشرق و "تشتعل" وتصبح طاقة كونية مريدة فاعلة.

و " الاشتعال " مسألة حيوية جداً بالنسبة لإقبال!

إنه لا يطبق أن يتصور الحياة إلا اشتعالاً في صورة من صور الاشتعال!
إنه لينفر من كل شيء خامد أو ميت أو غير مشتعل، لأنه يتصوره كافرًا بحقيقة الحياة وحقيقة الوجود!

ولكنه لا يتصور ذلك كله حقائق مجردة في عالم الفلسفة والفكر.. وإنما هو يعيش هذه المشاعر في داخل نفسه، و " يعانيتها " كما قلنا معاناة شعورية حقيقية، ويكتب الشعر من خلال هذه المعاناة..

ولا ريب أن حياته في الفترة المضطربة الجياشة من تاريخ الهند، وهي تكافح الاستعمار، والمسلمون فيها يعانون ألواناً كثيرة من المظالم، ويناضلون ليثبتوا وجودهم ويحققوا كيانهم الذاتي، و " تشتعل " في وجدانهم الرغبة القوية في أن يجدوا لأنفسهم كيانا مستقلاً واضح الوجود.. لا ريب في أن هذا كله يمكن أن يكون قد شكّل نفسه هذا التشكيل الخاص، وجعل " الحركة الحية " و " الاشتعال " و " الكيان الفاعل المريد " في نظره هي حقيقة الوجود.

ولكن هذه كلها - من جانب آخر - حقائق إسلامية دائمة بصرف النظر عن هذه الفترة بعينها من حياة الشاعر أو البيئة التي عاش فيها.. ولم تملك العقيدة الإسلامية نفساً من النفوس في أي وقت إلا استحال فيها إلى حركة حية فاعلة مريدة.. هكذا منذ محمد بن عبد الله ﷺ إلى اليوم وغداً.. لأنها هكذا في حقيقتها. ولأنها تصل القلب بالله وبالكون.. فيتحرك.. و " يشتعل "!

ومن هنا فإقبال في هذه المشاعر مسلم - بصرف النظر عن ظروفه الخاصة - وهو كذلك مسلم في هذه الظروف الخاصة، لأن العقيدة الإسلامية تلتقي مع الفطرة الإنسانية في جميع حالاتها وجميع ظروفها، وتكيفها في كل حالة بمقتضى حقيقة الإسلام.

وهذان نموذجان من شعر إقبال، من ديوان ييام مشرق (٢٤٢) أو (رسالة المشرق) تتجلى فيها هذه المعاني واضحة شديدة الوضوح، إلى جانب المعاني الأخرى الكثيرة التي يفيض بها شعر إقبال :

من قصيدة طويلة عنوانها " شقائق الطور " منظومة في رباعيات :

٢٠ - وكم ذا في الوجود من الحبور! أرى الذرات في شوق الظهور

(٢٤٢) ترجمة المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام .

فيبسم للحياة من السرور

ويصدع غصنه برعوم زهر

○ ○ ○

خلق أنلني لحة قلق الحياة
أذقني ليلة حرق الحياة

٢١ - تقول فراشة من قبل
رمادي فاذرهُ سحراً ولكن

○ ○ ○

وتجهل سرّ نفسك يا جهول
لينبت من قرارتك النخيل

٢٤ - أراك بسر أفلاك تجول
فوجه - كالنواة - إليك عيناً

○ ○ ○

ضعيف عندها جرس الحياة
حياة الخلد في نصّب تواتي

٦٠ - دع الشيطان لا تركز إليها
عليك البحر صارع فيه موجاً

○ ○ ○

بطينتنا فؤاد فيه نار
مقيم في زجاجتنا شرار

٨٤ - ثوت في صدرنا همم كبار
من الخمر التي فينا أضاءت

○ ○ ○

يقلبه صباحك والمساء
يسويه بمبرده القضاء

١٠١ - لنا كون لإزميل ونحت
مثال من تراب لم يكمل

١٠٨ - ترى رمز الحياة بكل كَمٍّ مجاز فيه يا قلبي الحقيقة
بترب مظلم ينمو ولكن له عين إلى شمس الخليفة

○ ○ ○

١٠٩ - يضيء على المروج وكل سَهَبٍ وكاس الورد فيه نور حُبٍّ
وما تغشى الورى ظلمات ليل فحرقة السراج لكل قلب

○ ○ ○

١١٢ - بقلبي سر جثمان وروح فلا فرعُ إذا أجلي أتاني
فإما غاب عن عينيَّ كون فباق ألف كون في جناني

○ ○ ○

١١٤ - مزاج الزهر أعرف في يقين وريح الورد في خلدِ الغصون
وحبيني إلى الأطيار أني عرفت لها مقامات اللحون

○ ○ ○

١٢٦ - أفق ما القلب بالأنفاس يحيا ولا هو رهن ما يبقى ويفنى
أخا الأوهام لا ترهب حِمَاماً فإن نَفْسُ مضى فالقلب يبقى

○ ○ ○

١٣٩ - أثرت بنغمتي كل النوادي ومن شرر الحياة جعلت زادي
أضياء القلب من عقلي ولكن جعلت عيار عقلي في فؤادي

٨٢ - أيا طفل السجايا اسمع عتابي إسلام وفخر بانتساب ؟
فإن تعتر بالأنساب عُربُ فإن جزاءها هجرُ الصّحاب

○ ○ ○

٨٣ - أفغان وتاتار وترك وفي مرج ومن غصن نمونا
حرام بيننا تفريق لون ربيع واحد فينا زهونا

○ ○ ○

١٦١ - رأيك لا تزال أسير طين إلى ترك وأفغان تُرد
أنا بشر بلا لون وريح وللتوران أو للهند بُعد

ففي الرباعية الأولى (رقم ٢٠) يعبر عن فرحة الكائنات " بالوجود ". فوجودها ذاته يشير في كيانها الفرحة والسرور. وهي تواقّة لأن " توجد " وأن تُظهر وجودها في عالم العيان بعد إذ هي طاقة في طي الكتمان. وتكافح في سبيل ذلك بما هو مرصود في كيانها من " الإرادة " و " الفاعلية ". فبرعم الزهر " يصدع " غصنه.. يشقه شقاً.. ليظهر إلى الوجود.. وفي اللحظة التي يوجد فيها بالفعل، يتسم من السرور.. للحياة والوجود.

وفي رباعية (٢١) يعبر عن طريقة إحساسه بالحياة ومعناها : إنه القلق.. إنه الحرق.. هذه هي الحياة الحقّة! الحياة " المتحركة " من ناحية، التي ينشأ من حركتها في النفس هذا القلق المعبر عن الرغبة الدائمة في جديد من صور الحياة، وعدم الركون أو السكون إلى وضع واحد من أوضاع الحياة مهما كان جميلاً في ذاته! والحياة " المشتعلة " من ناحية أخرى، التي تصل المشاعر فيها إلى درجة التوهج والاشتعال من قوتها واندفاعها. وهذا القلق وهذه الحرق هي خلاصة الحياة وأمنية الأحياء، بحيث لا يساوي " العمر " أو " الزمن " شيئاً بجانبها.. فليس المهم أن تطول الحياة وتمتد، إنما المهم أن " تمتلئ " .. تمتلئ بالحياة وبالحرق.. ولو ليلة واحدة أو لحظة واحدة! تساوي في " جوهرها " كل الحياة.

وهذا المعنى الجميل لا يقدمه لنا الشاعر في صورة فلسفية مبلورة. وإلا فقد سحره كله وجماله، وإنما يقدمه لنا من خلال "نفس" حية، هي الفراشة التواقفة للحياة، التي تعبر في ذات الوقت عن نفسه هو، وطريقة إحساسها بالحياة.

وقريب من هذا المعنى - في صورة تعبيرية أخرى - الرباعية (٦٠) التي يقول فيها إن "جرس" الحياة ضعيف عند الشيطان! لأن الحياة هناك خادمة ليس فيها معاناة! وإنما حياة الخلد تواتى عن طريق التعب والنصب والصراع والاقتحام..

وفي الرباعية (٢٤) يسخر من الإنسان الذي يبحث جاهداً في أسرار الفلك الخارجية - أو الظاهرية - وهو يجهل سر ذاته، وأنه هو "الحياة" أو منبت الحياة. وأنه لو تدبر طاقات ذاته وعرف حقيقتها لاستطاع أن يجعل منها قوة نامية حية متحركة "منشئة" .. لأنه يكمن فيها سر الحياة.

وقريب منه - في صورة أخرى - رباعية (٨٤) التي يقول فيها إن الطينة البشرية تشتمل على نار مقدسة هي التي تضيء للكائن البشري حياته. وأن "شرر" هذه النار مقيم لا يبرح الكيان البشري.

وفي هاتين الرباعيتين نلمح ما سبق أن أشرنا إليه من غرام الشاعر بالحياة "المتحركة" من ناحية، "المشتعلة" من ناحية أخرى.

وفي رباعية (١٠١) يعبر - في صورة فنية - عن شعوره "بالقضاء". إنه ليس خبط عشواء. إنه ليس بلا غاية. إنه ليس شيئاً يتزل بالبشر بلا ضرورة. وإنما الكيان البشري - كتمثال من تراب لم يكتمل تكوينه (أو لم يكتمل نضجه بتعبير آخر) - يقلبه تداول النهار والليل كما يقلب النحات التمثال بالإزميل والمبرد، ليسوي فيه قطعة هنا أو يحفر قطعة هناك.. حتى يكتمل التمثال وينضج الكيان!

ومرة أخرى لم يقل لنا الشاعر هذا المعنى في صورة فلسفية مبلورة، وإن كان يتناول معنى من المعاني الفلسفية، وإنما يصوره في صورة فنية تشغل مساحة في الحس والخيال والوجدان.

وفي رباعيتي (١٠٨، ١٠٩) نرى غرام الشاعر بالنور.. النور جميل رائق صاف.. إنه نور "الحب" .. ومع ذلك فهو يحب النور على طريقته الخاصة في تلقي الحياة كلها والأحياء.. إنه النور ليس - كما يراه غيره من الناس - ضياءً حالماً ناعساً هادئاً "مريحاً" للأعصاب!! كلا! إنه "اشتعال"! إنه "حرق"! فالنبات ينمو في باطن الأرض المظلم ولكنه يتطلع إلى "الشمس". وتلك حقيقة "علمية"! ولكن الشاعر يلتقطها هنا من خلال مزاجه الخاص، فالذي يلفته فيها أن النور المشرق الحار المشتعل هو أصل الحياة.. وهو الذي تقبسه الكائنات وتوزعه إشراقاً وحباً.. والأصل فيه هو "الاحتراق" .. أو هو إثارة

"الحرق" .. ومن ثم لا يوجد ظلام في الكون حتى في الليل حين تغيب الشمس المادية الملموسة، لأن الأصل في النور وفي الحياة، وهو الحرق والاحتراق، باقٍ في الليل، يضيء للقلوب كالسراج!

وفي رباعية (١١٤) يعبر عن حبه للطبيعة بكل كائناتها من زهور وورود وأطيبار.. كلها جميلة لأنه "يعرفها". فالمعرفة - وهي المعرفة "الباطنة" بلغة الصوفية - هي التي تنشئ الحب، وهي التي تمزج بين أرواح الكائنات فتلتقي كلها على الحب.

وفي رباعيتي (١١٢ ، ١٢٦) يعبر عن حقيقة الحياة في نظره. فليس الجسد هو الذي يقرر الحياة أو الموت.. وإنما هي الروح.. والروح باقية وإن فني الجسم. ومن ثم فلن يهرب الموت. فهو باق من بعد الموت. وإذا كان الموت سيحرمه كوناً واحداً هو الذي تراه عيناه، ففي قلبه ألف كون لن يفقدها لأنها حية معه في قلبه الحي.

وفي رباعية (١٣٩) صورة من صور "الجيشان" في نفس إقبال. إنه يثير بنغمته "كل" النوادي. هكذا على الاتساع! فلن يكون حياً في نظر نفسه حتى يحدث دويّاً في كل ناد! وزاده هو "شرر" الحياة! مرة أخرى يمزج بين الحياة "المتحركة" والحياة "المشتعلة" .. إلهما عنده سمتا الوجود. لا وجود بلا حركة واشتعال!

ولكنه في الشطرين الثالث والرابع من هذه الرباعية ذاتها ينشئ معنى جديداً، نادراً في اندفاعات إقبال الجياشة! إنه "التوازن" .. التوازن بين القلب والعقل. بين طاقتين من طاقات الحياة. إن قلبه يستمد الضياء من عقله. ولكن عقله مع ذلك يستمد توازنه من فؤاده أي من قلبه. وهكذا "تتنز" مشاعر إقبال، ليكون متمشياً مع "توازن" الإسلام!

أما رباعيات (٨٢ ، ٨٣ ، ١٦١) وقد غيرنا ترتيبها لتجيء متجاورة، فهي تعبر عن نزعة إقبال "الإنسانية" الإسلامية.. إنه ينفر نفوراً شديداً من تقسيم المسلمين إلى عرب وأفغان وتار وترك.. إلخ. إنما هم جميعاً مسلمون، ولا يجوز أن تقوم الفرقة بينهم وهم جميعاً من غصن واحد، وفي مرج واحد، وزهواً في ربيع واحد (ولا يفوتنا هنا أن نلتفت إلى تعبيره بالطبيعة الحية وبالربيع عن معنى من المعاني التجريدية وهو الأخوة في الإسلام) ثم ينتهي في الرباعية الأخيرة إلى الأخوة في البشرية عامة وهي الأصل الكبير الذي تلتقي فيه الأخوات جميعاً، والذي ينبغي أن يرتد إليه البشر كلهم في علاقات بعضهم ببعض، قبل أن يتعصبوا لقومياتهم.. فهذا التعصب لون من الأسر.. أسر الطين الذي يأسر الروح!

○ ○ ○

وهذه قصيدة اسمها " الربيع " :

(١)

هلم فإن سحاب الربيع
وشدو العنادل في كل واد
ودُرَّاجه والقطا في تمادي
على حافة النهر جذلي شوادي
شقيق وورد ضحوك ينادي
فَطَرَفَكَ سرح بهذا المراد
هلم فإن سحاب الربيع
يخيم فوق الربى والوهاد

(٢)

هلم فملء الربى والسهول
نسيم الربيع على كل عود
وللطير إبداعها في النشيد
ومزقت الجيبَ حمراً الخدود (٢٤٣)
جنى الحسنُ ناشئَ زهر نضيد
وللعشق إبداع غم جديد
هلم فملء الربى والسهول
قوافل أزهاره والورود

(٣)

صغير البلابل ملء الجواء وصوت الصلاصل (٢٤٤) ملء النسيم
دم المرج في جوفة كالحميم
فيا قاعداً صامتاً لا يريم!

(٢٤٣) شقائق النعمان .

(٢٤٤) الصلاصل الفاتحة أو ظائر يشبهها .

دع الصمت واترك وقار الحليم
 وخمر المعاني اشربن يا سقيم
 تدثر بوردٍ وغنّ النديم
 صفير البلابل ملء الجواء
 وصوت الصلاصل ملء النسيم

(٤)

دع الدور واطلب فسيح البراري
 على حافة الماء دون مالال
 تأمل ترقرق ماء زلال
 وحدق إلى نرجس ذي دلال
 بنيات نيسان ذات اختيال
 وقبل عيوناً لها كالآلي
 دع الدور واطلب فسيح البراري
 وانظر إلى صفحات الجمال

(٥)

وعين البصيرة فانظر بها
 شقيق بدا حلقاً في حلق
 بأعطافه لب قد علق
 على كبـد فيه ذات حرق
 بلوح ندى من دموع الفلق
 فحدّق إلى أنجم في شفق (٢٤٥)
 وعين البصيرة فانظر بها
 أيا غافلاً عن عيان الخلق

(٦)

ثرى المرج صرّح في هيّجه
 بما أضمرت مهج الكائنات

(٢٤٥) يشبه الندى على الشقيق بالأنجم في الشفق (المترجم) .

فناء الصفات وكون الصفات
وما أبدت الذات من جلوات
وما خلّته من معاني الحياة
وما خلّته من معاني الممات
فليس له ها هنا من ثبات
ثرى المرج صرّح في هيجه
بما أضمرت مهج الكائنات

◦ ◦ ◦

إنه مهرجان حافل بالحياة! هذا هو الربيع..
السحاب والعنادل والدراج والقطا وشقائق النعمان والأزهار والورود والنسيم
والطير المنشدة.. والربى والسهول والبراري.. والأرض والماء والسماء.. كلها مشتركة في
المهرجان الصاحب المغرد الزائط المتحرك المتفتح للحياة!
إنه قلب شاعر يتفتح للحياة في الربيع.. ويلمسها في الكائنات كلها : السحاب
المخيم فوق الربى والوهاد، والأزاهير المتفتحة من كل لون، والطيور المغردة بمختلف
الألحان، والثرى المصرح بما في جوفه، والمرج الذي يغلي دمه كالحميم!!
والشعراء كلهم تلفتهم ولا شك ظاهرة انبثاق الحياة في الربيع وتفتحها، وتنفعل بها
مشاعرهم انفعالاً خاصاً، ويتصل ضميرهم بضمير الكون.. ولكن لكل شاعر صادق
طريقته الخاصة في " تلقي " الربيع والانفعال به والاتصال بمعاني الحياة فيه..
وإقبال الشاعر، المتفتح للربيع، هو إقبال الذي رأيناه يشرح نفسه في القصيدة
السابقة، وهو يسجل " فلسفة حياته " في تلك الرباعيات.
الحياة المتحركة.. والحياة المشتعلة.. هي الحياة!
الموسيقى في المقطوعة كلها (وإن كانت مترجمة) موسيقى دافئة متحركة حية
نابضة.. ولكن تلفت الحس تعبيرات معينة تحمل طابع إقبال!
فحمر الحدود (شقائق النعمان) " تمزق " الجيب. والحسن " يجني " الزهر الناشئ.
ثم - وهذا ألصق بطبيعة إقبال! - شقائق النعمان قد علق بأعطافها هب (مشتعل طبعاً!)
وكبده ذات " حرق " والمرج دمه " يغلي " في جوفه " كالحميم "!

وفي المقطوعة السادسة يثوب الشاعر من رحلته الواسعة في هذا المهرجان الحيّ المتحرك المتوفر الواسع الأرجاء الفسيح الآماد.. آماد المكان وآماد الحس وآماد المشاعر.. يثوب إلى صوفيته الهادئة.. ولكن أهدوء هو؟

إنه - فيما يبدو لي - كالثلج.. بعد هذه الرحلة الواسعة التي أشبعت حسه وملأت مشاعره حتى أعماقها.. إنه أهدأ نبضاً.. نعم.. لأنه "شبعان" .. إلى حد الامتلاء.. إنه يقول لك - كالمخدور - إن الثرى قد صرح بما في جوفه.. صرح بما في مهج الكائنات.. فقال لك إن ما يخيل إليك - في ظاهر الحس - من علائم الحياة وعلائم الموت ليس هو الحقيقة.. إنما الحقيقة هناك.. هناك في الأعماق.. والحقيقة هي الحياة!!

(٢) عمر الأميري

عمر بهاء الدين الأميري شاعر سوري مسلم.. رقيق العاطفة، في تعبيره عذوبة تعبر عن عذوبة روحه. وهو يحاول - في هذا المجتمع الجاهلي المنحرف الذي تشتبك حياته بحياته، وتصطدم مفاهيمه بمفاهيمه - يحاول أن يعيش مسلماً بقدر ما تطيق روحه. لا في ثورة جامحة "مشتعلة" كثورة إقبال، ولكن في ثورة هادئة تناسب طبيعته! ثورة تحتدم في داخل المشاعر، ولكنها تهدأ حين تصل إلى التعبير!

وقد أخرج قبل عام ديواناً سماه "مع الله" .. أودعه مجموعة من أشعاره يتوجه بها إلى الله.. يتوجه بها في مختلف حالات نفسه: من رضاء وثورة، وهدوء وقلق، وإشراق وظلمة، ورفرفة روحية وتوقد جسدي.. كلها ترانيم إلى الله وابتهالات، ورغبة حارة إلى الله ألا يتخلى عنه في أية حالة من حالاته، لأنه في جميع حالاته - حتى حالات الضعف والهبوط - متشبث بأستار الله، متطلع إلى حماه.

وقد اخترنا له نموذجين من هذا الديوان في حالتين مختلفتين من حالات نفسه. أحدهما أزمة فكرية والأخرى أزمة عاطفية - أو بالأحرى وقدة حسية - يتجه في كليهما إلى الله.

إنه في "صراع" دائم.. صراع ضد الثقل والهبوط والقيود والضرورة القاهرة والتهيه والانحراف.. ومحاولة دائمة للتخلص من هذه الثقل، والانطلاق في عالم النور. محاولة "بشرية" ..

فهو بشر.. لا افتعال فيه ولا تصنع.. ولكنه - وهو بشر مسلم - يحاول أن يحقق الإسلام في ذات نفسه، فيكون هذا الصراع الدائم، والتطلع الدائم إلى الله.. وهذه المحاولة الدائمة.. هي الإسلام!

ذرة...

فكرت في آلامي النامي
وفي ألامي وأحلامي
وفي طريق الغيب أشتقه
وفي مجاهيل الغد الغافية
وثم في الحيرة ساحت بيه
عوالم الأكوان أفكاره
فصحت مأخوذاً بإبداعها
وسيرها هادية واعي
حاشاه أن يقضي خلاقها
تركي فيها ذرة نايه

هذا هو الشاعر يواجه أزمته الفكرية.. إنه الفكر في آلامه المتزايدة، وفي أحلامه التي لا تتحقق.. وفي الغيب الذي يتطلع إليه فلا يكشف شيئاً من أستاره، وفي الغد المجهول المحذور.. فتتملكه الحيرة.. لماذا؟ لماذا يتألم؟ لماذا يختفي الغد في أستار الغيب ولا ينكشف شيء منه؟ لماذا لا تتحقق الأحلام؟ لماذا يقضي حياته معذباً بهذا التطلع الذي لا ينتهي؟ وفي حيرته تسبح به أفكاره في الملكوت..

إنها إحدى علائم الصفاء في روحه.. فحيرته لا تتحول إلى تيه ينفصل فيه عن الكون وعن الله، وإلى شرود لا يهتدي فيه إلى معلم من معالم الطريق. وإنما تخرج به روحه من سجن ذاته الذي أغلقته الحيرة النابتة في ضميره. فتسبح به عوالم الأكوان. وعندئذ.. عندئذ يقع التجاوب - الفطري - بين روحه وروح الكون الكبير. فما تكاد الروح الصافية تتطلع إلى الكون حتى يحدث هذا اللقاء. لقاء بين أخوين حبيين. ثم ينقله هذا اللقاء.. إلى الله! يفتح بصيرته عليه! فهكذا الروح الصافية حين تلتقي بروح الكون الكبير.. لا بد أن تهتدي من حيرتها، فتتطلع إلى خالقها.. وتطمئن إليه.

نعم. إنها الطمأنينة في نهاية المطاف.. الطمأنينة إلى أن الله خلق هذا الكون المبدع المنسق الموزون المترابط، لن يترك هذه الذرة البشرية نائية وحدها، تائهة منقطعة الصلات..

وهي طمأنينة الإيمان..

ولكنه لم يقدم لنا هذا " المفهوم " في صورة " تجريدية " مبلورة. وإنما هي " قصة .. قصة شعورية وجدانية حية نابضة.. ولذلك تدخل في عداد الفنون!

وحين نضع هذه التجربة الروحية تجاه تجربة " ألبير كامو " مثلاً، وهو يقف أمام الكون فيجده أحرس، لا يفصح له بشيء، ويجد نفسه غريباً في هذا الكون لا تربطه به صلة، ويحس بالضيق والعدم والضالة.. حين نضع هذه التجربة أمام تلك، ندرك الفرق المميز الواضح بين نظرة الإسلام ونظرة " الوجودية " عند بعض روادها، الفرق بين التجربة في الحس المضلل الشارد، والتجربة ذاتها في الحس المسلم المهتدي إلى فطرة الكون.. والمهتدي إلى الله.

○ ○ ○

ضراعة تائر

كان في كراتشي.. واستيقظ بعد منتصف ليلة عرفة، هائج النفس، تائر الشباب، وكان قد تعرض في تلك الأمسية إلى إغراء كثير.

ذكر إقامته على التقوى في باريس وهو طالب.

وذكر مواقفه في الحج، في مثل هذه الليلة منذ عام مضى.

وذكر ما تعرض له قبل ساعات...

وفي غمرة الحيرة وسوار النفس، وأوار الظمأ، أنشأ القصيدة التالية.

ولما كاد ينبلج الصباح، هدأت نفسه بعض الشيء، وعاد يراود الكرى " :

كيف أنجو يا خالقي من شباب

عارم عاصف التوثب ضاري

مستبد بكل ذرات جسمي

مستفز كوامن الأوطار

كلما ربت كبته، ثار جهلاً

وتخطى عقلي وأعيا وقاري

فأنا منه، ما كبحت هواه ،

في جموح وحدة واستعار
 كيف أنجو ، وإنه مستقر
 في كياني، وفي صميمٍ نحاري (٢٤٦)
 هو من طينتي التي لوثني
 ورممني فريسة الأقدار
 إنه رجعة الصدى لفحيح
 لاهب الذات غاشمٍ كفار
 قد تحدى أبي الكبير قديماً
 فرماه من عالم الأبرار

○ ○ ○

آه يا ويح مقلتي، وفؤادي
 وإبائي وعزتي واصطباري
 والليالي الطوال مرت شهاداً
 وعناداً ، ودمعي المدرار
 وجهادي في حلقة الليل نفسي
 وذيادي ، وعزمي المغوار
 وغلابي ضروب كيد صحابي
 واعتزازي بدحرهم وانتصاري
 وثباتي ، وقد ترامى لداتي
 واعتدادي بعفتي ، وفخاري

○ ○ ○

آه يا ويح وقفتي في ديار
 قدّس الله تربها من ديار

(٢٤٦) النجار : الأصل .

خضت هول السماء سعياً إليها
 وطويت البحار إثر البحار
 وعلوت النجوم في صخب الأنواء
 .. أشرى مر العنا بالنضار
 فكأني وقد حللت رباها
 جوهر خالص من الأوضار
 نَقَيْتُ من طبيعة الترب نفسي
 حين حَلَّتْ في روضة المختار
 غمرتني أنواره فكأني
 عنصر من عناصر الأنوار
 وكأني - والبيت يشرق حولي
 شامخ المجد في سنا الأسحار -
 ذاب جرمي في ماء زمزم حتى
 خلّطني طرت من خلال إزاري
 جاوز الروح بي معالم أرضي
 فالسماوات والعوالم داري
 والمفاهيم في مسارح روعي
 والمساحات غير ذات قرار
 فقيامي في الحجر (٢٤٧) لاح سجوداً
 وسجودي، سَبَّحُ مع الأقمار
 وانطلاقي أسعى، هدوء مريح
 ووقوفني، سياحة في البراري
 وضجيج الحجيج حولي، سكون
 ويسمعي جارة الأحجار

○ ○ ○

(٢٤٧) حجر إسماعيل عليه السلام في البيت الحرام .

آه يا ويح همتي وجلادي
 إن نبا بي عن الفلاح اقتداري
 أبيض في مثله طاح وزري
 أتردى مجدداً أوزاري؟
 كيف أنجو يا خالقي من شبابي
 وشبابي قد كاد يديني دماري
 أنت سويتني وألهمت نفسي
 خطيئتها من التقى والفجار
 وأنا منهما بحرب لظاها
 في ضلوعي يشوى وفي أفكاري
 لم أرم قط أن أدسى نفسي
 كيف أرضى للنفس ذل الصغار!
 ولو أني كُفيتُ إغواء عصري
 وأحاييل خلقه الأشرار
 وحُييتُ اختيار وجهة أمري
 لتساميت واستقر قراري
 ولكانت نفسي الشُّرود تزكت
 غير أني كالعود في تيار

○ ○ ○

كيف أنجو يا خالقي كيف أنجو
 والمقادير ألزمتني إساري
 فتخير لمن خلقت سبيلاً
 نرتضيها، فإن ذاك اختياري
 إنني نازع إليك بنور

منك، للنور في العوالم باري
وأنا مقسم عليك بأسمائك
.. من راحم، ومن جبار
لا تُفَرِّطُ بمن دعتك خلاليه
.. داركاً ، في ليله والنهار

○ ○ ○

رُبَّ سارٍ والسحب قد لفت النجم
.. فحار السارون عبر القفار
سفر الفجر، فاستبان خطاه
فراها اهتدت بلا إبصار

هذه القصيدة الطويلة ربما كانت " أعنف " قصائد الديوان ! إنها سورة جسد ملتزمة
يتلظى بها كيانه ولا يطيق كبتها، في ليلة عاصفة تكاد تخرج به عن صوابه وضوابطه
وكواجه.. بعد تعرضه لفتنة جائحة.. ويشير هذا اللظى، وعجزه عن كبحه، يثير فيه
أشجاناً وذكريات، تزيد من اضطراب نفسه، وتجعل الصراع مرّاً عنيفاً لا يكاد يطاق.

إنه في سورة الجسد الجائحة يتذكر شبابه الذي قضاه في باريس تحوم حوله المغريات
من كل جانب، ولكنه يعزف عنها ويغالبها، ويتشبث بنقاء أخلاقه ونظافة مشاعره، بينما
إخوانه يتهاوون في مهاوي الرذيلة، غير قادرين على مقاومة الفتنة المغرية، أو غير راغبين
في المقاومة!

ويتذكر أنه في مثل تلك الليلة من عام مضى كان في الحرم المقدس يتطهر من
الأوزار وتعلو روحه وتشرق، وتطير مع النور السماوي الذي يغمر الأرواح..

يتذكر هذا وذلك فتزداد ثورته على نفسه، أو تشتد حدة الصراع بين نوازع الفتنة
الطاغية والرغبة في التطهر والتغلب على ثقله الطين.. التي أوقعت من قبل أباه الكبير آدم
وجرته إلى المعصية.. ويظل ليلته في هذه الذكريات، يدفع بها عن نفسه خواطر الفتنة،
وهي ذاتها تزيد من الصراع الدائر في داخل ذاته.. فيتطلع إلى الله في حرقه ولهفة، ألا يدعه
يهوي، وألا يفرط فيه.. وهو يدعو الليل والنهار! وفي النهاية ينبجل الفجر، وتكون نفسه
قد هدأت شيئاً من الهدوء.. ويطمئن إلى الله.

تلك قصة الصراع المرير التي يقصها لنا الشاعر في قصيدته.. خطوة خطوة وخاطراً
خاطراً.. منذ بدء السّورة إلى لحظة الهدوء والاطمئنان.

ولكن ماذا نجد من " ملامحه " النفسية فيها؟!

إنه أولاً لم يسمها ثورة! وإنما سماها " ضراعة تائر " ولهذا دلالتة بلا ريب!

ثم هو قد كتبها - دون شك - متأثراً بهذا الصراع المرير، مدفوعاً بوقعه في نفسه
وهو يكتب، مستجاشاً بلذعه في ضميره.. ولكن.. أي معنى وقف عنده أطول وقفة دون
أن يشعر، وهو يعبر عن الآلام المتأججة في شعوره؟

إنها ذكريات الحج والطواف حول المسجد الحرام...!

وفي " هدوء " يسرد هذه الذكريات!

فهذه المقطوعة بذاتها التي يذكر فيها مشاعر الحج وأثرها في نفسه - هي ثلث
القصيدة تقريباً - يمكن أن تعزل وحدها، فتكون سبحة روحية هادئة رضية لا صلة لها
بالثورة والصراع!

ولكنها هنا في القصيدة " مهرب " لا شعوري، يهرب به الشاعر من حدة الصراع!

ثم.. ما هي أمنيته في نهاية القصيدة؟

ولو أني كفيت إغواء عصري

وأحاييل خلقه الأشرار

وحبيت اختيار وجهة أمري

لتساميت.. واستقر قراري!

إنه يخوض الصراع.. نعم! ولكنه نافر منه ضيقاً به صدره! يتمنى في قرارة نفسه لو
أنه قد كُفِيَ المثيرات والأحاييل والانحراف.. فيتسامى ويستقر!

إنها " الوداعة " الرضية العذبة التي تفيض بها روح الشاعر، تطبع شعره كله حتى في
أشد ساعات الثورة والجموح والانفلات!

وهي الوجه المقابل تماماً لإقبال!

فهناك تكون أمنية الحياة هي " القلق " و " الحرق " والصراع الدائم والاشتعال!

وهنا أمنية الحياة هي الهدوء المطمئن الوادع اللطيف..

ولكنهما وجهان يسعهما الإسلام معاً، ويسعهما الفن الإسلامي!

فالإسلام لا يلغي الفوارق الذاتية للنفس، ولا يسعى لطبعها كلها بطابع واحد
مكروور! كلا! إنه حريص على إبقاء السمات الذاتية للناس ما دامت لا تصادم مفاهيمه

وقواعده وشروطه للحياة. أما السمات النافرة أو المنحرفة فهو يروضها ويعدّها حتى تستقيم على النهج.. ويتركها هناك!

وطبع إقبال الجامح.. وطبع الأميري الوداع.. كان يمكن أن ينحرفا كلاهما عن الإسلام!

كان يمكن أن ينقلب عند إقبال إلى رغبة في الصراع من أجل الصراع! ورغبة في الانفلات من القيد.. أي قيد.

وكان يمكن أن ينقلب عند الأميري إلى هروب من الصراع!

ولكن "الإسلام" يعصم كلاً منهما من ذلك الانحراف.

فيتحول صراع إقبال إلى صراع هادف.. يريد للناس أن يتحركوا في الحياة حركة حية خيرة، وأن يثبتوا ذواتهم - لا عن طريق المعصية والشر - ولكن عن طريق الالتقاء مع ناموس الحياة الأكبر ومع ناموس الوجود.

وتتحول وداعة الأميري إلى سماحة روحية عذبة، ولكن مع عزيمة وإصرار على مكافحة الشر وصراع الانحراف..

وبذلك يكونان مسلمين، يسعهما الإسلام، فيسعهما الفن الإسلامي.. وهما وجهان متقابلان!

(٣) طاغور

طاغور ليس مسلماً بطبيعة الحال!

والطابع الهندوكي واضح فيه شديد الوضوح..

السماحة العذبة، والصفاء الروحي، والحب الفيض.. الحب للحياة كلها وللأحياء.. والفناء في الوجود الأكبر.. فناء المحبة والمودة والإخاء!

و.. كذلك السلبية!

إنها في طاغور سلبية عذبة! فلطف روحه وصفاء سريره وشعوره الفيض بالحب.. وإعطاؤه نفسه كلها لكل شيء وكل إنسان.. يضيف على هذه السلبية عذوبة!

ولكنها ما تزال - رغم ذلك - سلبية! لا تحب الصراع ولا تطبيقه. ولا ترى أن الشر يمكن أن يقاوم بغير الحب والمودة التي تغلبه في النهاية وتستميله إلى جانب الخير..

حلم جميل لا يتحقق في كل حالة ولا في أكثر الحالات!.. وحين لا يتحقق، فهو يثير في نفس الشاعر الأسى والحزن.. ولكنه لا يعزف به عن سلبية طبعه، ولا يدفعه إلى معاناة الحياة الدافقة المشتعلة في عالم الصراع!

وهو - في هذا - لا يلتقي مع المنهج الإسلامي!

ولكنه مع ذلك لا يخرج تماماً من دائرته!

فهناك نقط التقاء كثيرة بين طاغور وبين المنهج الإسلامي.. نقط التقاء جزئية كلها، ولكنها تكفي لإيجاد روابط المودة بينه وبين هذا المنهج، بحيث يذكر معه - في حدود هذا الالتقاء!

يلتقي معه في شعور المودة والحب نحو الوجود الكبير والحياة والأحياء.

.. والحب الجميل للإنسانية.

ويلتقي معه في دعوته الدائمة للسماحة والخير بين الناس، والانفلات من ثقله الضرورة، والانطلاق إلى عالم الطلاقة والنور..

وإن اختلفا بعد ذلك في طريقة تصورهما للحياة، ودور الإنسان في هذه الحياة!

رحلة إلى السوق..

اليوم لم يختم بعد. والسوق التي على شاطئ النهر ما تزال.

لقد خفت أن يكون يومي قد تبدد، وآخر دراهمي قد ضاع.

ولكن. لا. لا يا أخي. إني ما زلت أملك شيئاً، لأن حظي لم يسلبني كل شيء..

○ ○ ○

الآن انتهى البيع والشراء.

لقد جمعت حصيلتي من الطرفين.

والآن حان وقت عودتي إلى البيت.

ولكن، أيها الحارس، أفتطلب ضريبتك؟

لا تخف يا أخي. لأني ما زلت أملك شيئاً، فإن حظي لم يسلبني كل شيء.

○ ○ ○

إن سكون الريح ينذر بالعاصفة.

وإن السحب المتجهمة في الغرب لا تبشر بالخير.

والماء الساكن ينتظر الريح.
أما أنا فأهروول لأعبر النهر قبل أن يدركني الليل.
ولكن يا صاحب المعبر، أفتريد أن تطلب أجرك؟
أجل يا أخي، إني ما زلت أملك شيئاً، فإن حظي لم يسلبني كل شيء.

○ ○ ○

وفي ظلال الشجرة على جانب الطريق تربع الشحاذ.
وا أسفاه! إنه يحرق في وجهي وفي عينيه رجاء وحياء!
إنني - في ظنه - غني بما رجحت في يومي.
أجل يا أخي، إني ما زلت أملك شيئاً، فإن حظي لم يسلبني كل شيء.

○ ○ ○

لقد اشتد ظلام الليل، وأفقير الطريق، وتألق الحباحب بين أوراق الشجر.
من عساك تكون يا من تتبني في خطوات متلصصة صامتة؟
أه، لقد عرفت، إنك تريد أن تسرق مني كل أرباحي.
لن أخيب ظنك!
لأني ما زلت أملك شيئاً، فإن حظي لم يسلبني كل شيء.

○ ○ ○

وصلت المنزل عند منتصف الليل بيدني فارغتين.
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت، وفي عينيك شوق.
وكعصفورة وجلت طرت إلى صدري، يدفعك حب تواق.
آه يا إلهي. إن شيئاً كثيراً لم يزل باقياً معي. فإن حظي لم يخدعني ويسلبني كل شيء.

إنها رحلة إلى السوق ولكنها رحلة في قلب ودود عطوف، يسع الكون بعطفه وسماحته، ويتجاوب تجاوب المودة مع كل شيء وكل شخص فيه، حتى مع اللص قاطع الطريق!

وهنا تبدو نقط الالتقاء مع المنهج الإسلامي ونقط الافتراق! فهي سماحة جميلة ولا شك. ولكنك تلمح فيها مع ذلك مشاعر غير "بشرية"! قد تعجبك لحظة وأنت حامل تسبح في الملكوت.. ولكنها لا تملأ "الإطار" الكامل للإنسان!

وهذه قصيدة أخرى لطاغور :

إن الطائر الأصفر يغني على الفنن فيرقص قلبي فرحاً..
نسكن معاً في قرية واحدة، وهذا هو سر سرورنا جميعاً.
يجيء حملاها المدللان ليرعيا في ظل أشجار حديقتي.
وإذا ما ضلّا طريقهما في حقل شعيري أحملهما بين ذراعي.
اسم قرينتنا "خانجانا" ويسمون نهرنا "أنجانا" واسمي يعرفه الجميع.
أما اسمها هي فهو "رانجانا".

○ ○ ○

وفصلنا حقل واحد..

فالنحل الذي يتجمع في حديقتنا يذهب لبيحث عن الرحيق في حديقتهم.
وأزهارهم التي تتساقط في النهر يدفعها التيار إلى حيث نستحم.
وسلال أزهار "الكسم" الجافة تجلب من حقولهم إلى سوقنا.
اسم قرينتنا "خانجانا" ويسمون نهرنا "أنجانا" واسمي يعرفه الجميع ،
أما اسمها هي فهو "رانجانا".

○ ○ ○

إن الطريق الذي يؤدي إلى منزلها يعبق في أيام الربيع برائحة أزهار "المانجو".
عندما ينضج بذر كتانهم ويكون صالحاً للجمع يزهر القنب في حقولنا.

والنجوم التي تبتسم لكوخهم تبعث لنا بنفس النظرة المتألثة.
والأمطار التي تملأ أحواضهم تنعش عندنا غابات " الكادام ".
اسم قريتنا " خانجانا " ويسمون نهرنا " أنجانا " واسمي يعرفه الجميع،
أما اسمها فهو " رانجانا ".

إنها قطعة غزل لطيفة شفيفة عذبة. تعبر عن عواطف " إنسان ". إنسان يعيش
بروحه في هذه العاطفة، لا بجسده، ولا بمشاعر الحس الغليظة المتلمظة إلى متاع الحس
القريب! وفيها تلك الرفرفة المشعة التي تنقل الإنسان من عالم الأرض المحدود، وعالم
الضرورة، إلى الطلاقة والبشاشة في الكون الواسع الرحاب.
إنها " لحظة " حب، ولكنها وجود متكامل، لا تنفصل فيه عاطفة القلب عن
الإحساس بالكون الكبير، ووشائج المودة والقربى لا تصل قلبه بقلب حبيبته فحسب، بل
تصل قلبه بالوجود كله في ذات الوقت بلا تعارض ولا انفصال.
ومن هنا تلتقي كلها بمنهج الإسلام!

(٤) سَكِينَةُ بِنْتِ الْحُسَيْنِ

سهرت أعين ونامت عيون في أمور تكون أو لا تكون
إن رباً كفاك ما كان بالأمر — س سيكفيك في غد ما يكون

هذان بيتان منسوبان لسُكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ رضي الله عنهما (٢٤٨) ؛ وقد كانت
متصوفة تعيش من خلال التسليم المطلق لله، وتمنح حياتها كله لله.
وهما بيتان فردان.. ولكنهما تاريخ حياة! تاريخ حياتها النفسية كلها، ونموذج في
الوقت ذاته للمشاعر الإسلامية تجاه الحياة، وتجاه القدر، وتجاه الله!
إن كثيراً من الناس يقضون حياتهم في التوجس من الغد الجهول.. من أمور " تكون
" أو " لا تكون ". ويصل هذا التوجس عند كثير من الناس إلى حد القلق المدمر الذي

(٢٤٨) لم أتمكن من تحقيق نسبة البيتين لسكينة، ويقال إنهما لأحد المتصوفين. والذي يعنينا من هذه
النماذج هنا هو موضوعها بصرف النظر عن قائلها .

يتلف المشاعر ويفسد الحياة. هل يكون كذا أم لا يكون؟ وماذا إذا كان؟ وماذا إذا لم يكن؟ ويقضون الحياة في هذه الفروض والتوقعات، يببدون طاقتهم في القلق والتوجس، وهم لا يملكون اليقين الذي يستندون إليه، ولا الحقائق الواقعية يواجهونها بما تتطلبه من إعداد.

والشاعرة المتصوفة، المسلمة الصادقة الإيمان، تنهاهم - من تجربتها الخاصة - عن هذا القلق المفسد للحياة المدمر للأعصاب. وتنهاهم - من هذه التجربة الخاصة - بحقائق، تلقاها قلبها الكبير في سياحته إلى الله.

فماذا يصنع أولئك الذين لا تنام عيونهم من التوجس والقلق والاضطراب؟ ماذا يصنعون بقدر الله؟ هل يغيرون شيئاً منه! هل يخفف القلق والتوجس من وقع القدر في حياتهم وأعصابهم؟

وأولئك الذين تنام أعينهم، مطمئنين إلى الله، مسلمين أمرهم إليه، متوكلين عليه. كيف تصنع الحياة بهم؟ هل يهلكهم التسليم؟ هل يضرهم الاطمئنان؟

كلا! إنه العكس! فأولئك يدمرون أعصابهم، ويعيشون الحياة ولا طعم لها في نفوسهم، ويبددون طاقتهم في لا شيء.. بينما التسليم لله، وإن كان لا يغير شيئاً من أحداث القدر، فهو يغير طعمها في النفس! فلا تنهاوى النفس في مهاوي اليأس ولا تذهب حشرات!

وهذا الإنسان الذي يتوجس اليوم من الغد المجهول فيفرق ويجزع ويضطرب أما واجهته بالأمس أحداث وأحداث؟ كيف نجا منها وعاش؟ أو ليس الله هو الذي كفاه ما كان بالأمس؟ أفلا يدع له كذلك ما يكون من أمر الغد فيكفيه إياه كما كفاه ما كان بالأمس؟

إنه هكذا الحس المسلم.. يسلم الأمور كلها لله.. ويعيش في رحابة متطلعاً إلى رضاه.. ويطمئن إلى رعايته، فلا يذهب التوجس القلق بأمنه وطمأنينته في الحياة.

(٥) ابن الرومي

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى	إلي وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الإثراء أزهّد زاهد	وإن كنت في الإثراء أُرغب راغب
حريصاً جباناً أشتهي ثم أنتهي	بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فإنه	فقير أتاه الفقر من كل جانب

تنازعتني رغب ورهب.. كلاهما
فقدت رجلاً رغبة في رغبة
أخاف على نفسي وأرجو مفازه
ألا من يريني غاييتي قبل مذهبي
قوي.. وأعياني اطلاع المغائب
وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب
وأستار غيب الله دون العواقب^ج
ومن أين والغايات بعد المذاهب

هذه الأبيات فيها من دقة الوصف ما اشتهر به ابن الرومي في الأدب العربي، فهي مزيتة البارزة سواء في وصف المحسوسات أو وصف المشاعر والخلجات النفسية الدقيقة. ولكننا نختارها هنا بصفة خاصة لأنها تلتقي - في البيتين الأخيرين منها - بمنهج الفن الإسلامي في تصوير موقف "الإنسان" أمام "الغيب" المجهول.

إن الأبيات الأولى، على كل ما تحمله من جمال في تمثيل في دقة الوصف من ناحية، وفي "سرد" الأحاسيس المتتابعة كأنها قصة شعورية يحكيها لنا الشاعر، فتتبعها لحظة لحظة وشعوراً إثر شعور، حتى نلم بجزيئاتها جميعاً وقد اتخذت في حسنا مساحة أوسع واستجابة أعمق.. هذه الأبيات - رغم جمالها الفني - لا تزيد على أن تكون وصفاً لمشاعر خاصة لإنسان "ما" تصور طبيعة خاصة ليست هي الطبيعة الإسلامية. فإيماءات التصور الإسلامي لا تدعو إلى كل هذا القلق، وإلى كل هذا التردد، وإلى إثارة العافية على المخاطرة.. إنها طبيعة "ابن الرومي" خاصة. الطبيعة المتوجسة المتوفرة القلقة..

حتى إذا قال :

أخاف على نفسي وأرجو مفازها
ألا من يريني غاييتي قبل مذهبي
وأستار غيب الله دون العواقب
ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب!

حتى إذا قال ذلك، نقلنا من تلك الحالة الخاصة لإنسان ما إلى "الإنسان" كله، وموقفه من الغيب المجهول والقدر المستور. وهي نقلة واسعة..

فمن تتبع الخلجات الخاصة لشخص معين نراه أمنا على اللوحة.. يفتح المنظر في لحظة، فإذا نحن نطل على رقعة فسيحة تشمل كل الحياة وكل "الإنسان" واقفاً أمام ستر الغيب المسدل، يحاول جاهداً أن يمتد ببصره إلى ما وراءه، وأن يقرأ الصفحة التي تليه.

ويظل يتطلع في لهفة وتشوّف، حتى يدرك أن ليس إلى شيء من ذلك سبيل، وأن الغايات بعد المذاهب، ولا يمكن أن تكون خلاف ذلك. فهذه حقيقة الواقع ليس لها من تبديل! هنا ننتقل من الرقعة المحدودة الصغيرة المفردة، إلى الرقعة الفسيحة التي لا تزول، لأنها تتصل بناموس الكون الشامل الكبير.

وهنا كذلك نلتقي مع أحد المفاهيم الإسلامية للكون والحياة والإنسان، ونلتقي بها في نطاق الفن، فهي لا تجيء إلينا مبلورة في صورة فلسفية، وإنما تجيء من خلال تجربة إنسانية حية، ومن خلال وصف فني لخلجات النفس، يبرز التجربة بلغة المشاعر النفسية لا بلغة الذهن والتجريد.

ثانياً : من القصة والمسرحية

القصة والمسرحية - كالشعر، كالحظيرة، ككل ألوان التعبير - ينطبق عليها المنهج الذي شرحناه من قبل. وتنطبق عليها الحقيقة التي أشرنا إليها، وهي أنها لم توجد بعد - متكاملة - في الأدب العربي. وإن وجدت منها بواكير تدل على الطريق.. ولا يسعنا هنا - ونحن نختار الأمثلة من هذه البواكير - إلا أن نختار قصصاً قصيرة، تتناسب مع الحيز المتاح للأمثلة في هذا الكتاب.

وقد اخترنا هنا نموذجاً من القصة القصيرة، ثم اخترنا - لنفس الأسباب التي اخترنا من أجلها نماذج لطاغور في الشعر - مسرحية لكاتب إيرلندي، تلتقي التقاء جزئياً مع المنهج الإسلامي.

(١) قصة ضررس (٢٤٩)

كانت الساعة في يده تشير إلى الثامنة والثلاث، زفر زفرة ضيقة مكتومة، ساعة كاملة وعشر دقائق انطوت منذ جلس فوق هذا المقعد، وأكثر من ساعة أخرى ضاعت هناك في الحجرة المحاورة في صمت الانتظار الثقيل، كلمات المنتظرين الثرثرة تشد أذنيه برهة، ثم تتوه أفكاره في متاهات صمت ومتاهات حديث!.... وعاد ينظر في الساعة الصغيرة الملتفة حول معصمه، لقد فات موعده معها منذ أكثر من ثلث ساعة، لا بد أنها سئمت الانتظار وذهبت غاضبة... وغام وجهه... لمح الطبيب ولكنه ظل هادئاً يعمل في تودة، ملامحه الهادئة لم تتغير وإن كان طيف ابتسامة كسا قسماته الصارمة وغمغم بصوت خفيض عميق الهدوء:

- هانت، لم يبق الليلة غير دقائق.. ثم تعود بعد غد.
- بعد غد؟! ألم ينته بعد! مرة ثانية، بل رابعة من أجل ضررس!
- الذهب أكبر قليلاً، وعصب الضررس حساس ما يزال.. سنضع له مادة مهدئة حتى بعد غد. ربما يستطيع وقتها أن يقبل الحشو.
- ألا يمكن أن تنتهي منه الليلة - بينج مثلاً؟. لقد ألغيت أعمالاً كثيرة، ووقتي مشحون بشدة.

نحاول. لو استطعت أن تحتل المواصله..
وأمسك برأسه يعيده إلى مكانه على مسند المقعد، وأذعن هو في ضيق..

(٢٤٩) حميدة قطب من مجموعة قصص قصيرة تحت الطبع .

ألقى رأسه إلى الوراء وفتح فمه ليواصل الطبيب عمله، وفي السكون المخيم دارت الآلة من جديد.. آلات صغيرة كثيرة، مديبة، مستديرة، مستطيلة، مبططة، مستقيمة، منحنية، لم يحصها، كلها دخلت في فمه تدور حول هذا الكائن الصغير الذي لم يعره اهتماماً من قبل، بل لم يشعر بوجوده.. العرق يتصبب من وجهه ومن وجه الطبيب أيضاً رغم النافذتين المفتوحتين والمروحة الدائرة في الركن البعيد... وحدق في وجه الطبيب يتأمل، ورائت على مشاعره سحابة اشفاق.. لكم هو مستغرق. ساكن الملامح، مجهد القسمات، الوقفة الطويلة، وفحيح الألم المتصاعد من القدمين، وحين الساقين المتعبين إلى لحظة استرخاء، تتصاعد في خطوط صامدة وتحفر مكانها على صفحة الوجه الصلب المتماسك القسمات، يده لا تكفان، وعيناه أيضاً وقدماه. يحفر، ينظف، يقيس، ثم يحفر من جديد، ينظف من جديد، يقيس من جديد، ثم يعود ويعود ويعود، لا يمل... الآلات هناك تملأ الصوان الصغير، وهنا حول المقعد وعلى الرف الرخامي الصغير بجوار الصنبور، لا يمل الترداد بين هنا وهناك وهناك.. كم آلة أمسكتها يده، وكم آلة أدخلها في فمه، ثم عاد فأدخل غيرها وغيرها، ثم أعادها من جديد، لم يستطع أن يحصيها، ولكن هذا الرجل الصابر بغير حد لم يمل!!

حين أدخل قطعة الذهب الصغيرة في الحفرة الصغيرة التي جهدت في حفرها الآلات صرخ بغير وعي.. أحس كأن حازوقاً ضخماً قد انحشر في فمه، في لحم فمه، بل في أعصاب عينه، خجل من نفسه وأمسك بآهته وابتلعها.. حاول من جديد أن يغلق فمه، ولكن الصرخة كانت أسبق من قدراته.. لا، مستحيل!

وأجاب الطبيب في هدوء:

- لا بد من وقت يستريح فيه العصب ليطيقه.. لندعه أياماً أخرى..

لم يجرب ذلك أبداً من قبل، لم يعرف كيف تكون آلام ضرر وحين كانت أخته تتألم مرات أمامه لم يكن يملك التصور.. منذ متى تعيش هذه الكائنات الصغيرة داخل فمه في صمت! تتحرك فيه كل لحظة، دون أن تشعره بوجودها! وهو يأكل. وهو يشرب، وهو يتحدث ويضحك لاهياً، بل حتى حين يبتلع ريقه، وحتى حين يهمس بينه وبين نفسه!.. كان مشغولاً عنها بكبريات الأمور!.. لم يفكر فيها قط ولم يعرها اهتماماً حتى كان ذلك المساء حين أعلنت بكل جبروت عن ضخامة وجودها! في ذلك المساء كان مشرق القلب كعادته حين يكون في السهرة الصاخبة وسط الشلة، بين مرح الأصدقاء والصديقات. وكان الطعام لذيذاً باسماء، والحديث يدور متفتحاً كزهر الربيع، كلهم شباب، كلهم مثقفون، بعضهم أدباء وشعراء وصحفيون، تجمعهم ليلة الجمعة يتحادثون ويتناقشون في أعظم أمور الكون، يسعدون ويستمتعون ويلهون..

كان حديثهم تلك الليلة متشعباً كالمعتاد، ولكن هبوط الإنسان فوق القمر قد استغرق معظم الاهتمام. ومن ثانياً الحديث كانت سعادتهم تفوح بانتصار الإنسان وبقدراته الباهرة.. محمود فقط من بينهم كان واجهاً، أساءه دون شك أن يكون أول هابط على القمر أمريكياً.. أما فريد فكان منتشياً للغاية، لقد هتف بحياة الإنسان وبحياة أمريكا، وكادت مشادة تنشب بينه وبين محمود لولا أن تدخلت سامية فأصلحت بينهما. واعتذر فريد قائلاً إنه يمزح ليغيط محمود!.. أخذت سامية تقرأ عليهم مقدمة كتاب عن المرأة بدأت في تأليفه بعنوان (الزمن لن يعود إلى الوراء).. اعترض مصطفى على بعض الجمل قائلاً إنها تعد صريح على الله، وانطلق محمود يدافع عن الفكرة بحماسة ويشجع سامية على المضي في الكتابة!

لم يكن في حديث سامية ما يرفضه الفكر الحر. ولكن مصطفى، رغم ذكائه الواضح تعيش في قلبه أفكار رجعية كثيرة، كان يوماً ما ينتمي إلى جماعة دينية، وأبواه ما زالا عضوين فيها.. لقد استطاع أستاذه الكبير رئيس التحرير أن يستل من رأسه الكثير من تلك الأفكار خلال سنوات عمله الخمس معه، ولكن قلبه ما يزال متلبساً بها!.. ولكنه أخيراً تزوج من صديقته علياء. لسوف تعدل بقية أفكاره دون شك.. كانت معه في تلك الليلة.. لكم كانت رائعة، فستانها الأزرق الداكن المفتوح فوق بشرتها البيضاء كان فتنة الليلة.. كانت هذه هي أول مرة تحضر ندوة الأدب هذه وهي زوجة لمصطفى، العيون كانت تلتهمها بشره، أما مصطفى فقد ارتسمت على وجهه سحابات من صراعات دفينه، مسحة خجل، انتفاضة غيرة، ضيق تسكوه ابتسامة فرح ونشوة، كان اضطرابه ينم عن محاولته التي لا تكف لدفن أفكاره القديمة، ليستقر في فكره الجديد وليبدو إنساناً متحضراً.

وحين التف الجميع حول المائدة كانت أصوات ضحكاتهم أعلى من صخب الأدوات المعدنية في أيديهم، كان الطعام شهياً ووجه علياء وصوتها الناعم أشهى وهي تتيه في دلال العروس، فقد كانت الليلة كلها احتفاء بزواجها بمصطفى، وكانت النكتات الخبيثة المداعبة تتراشق من هنا وهناك فتتلقاها مشرقة بروح مرح، وكان المرح اللاهي يملأ الجو كله ويحملهم فوق الواقع وفوق متاعب العمل وأثقال الفكر وصراعات العيش..

فجأة. أحس كأن شيئاً هائلاً قد تحطم داخل فمه وهو يمضغ قطعة من اللحم البارد. على إثره انطلق ألم مزعج.. كان الذي تحطم هو أحد جدران ضرسه الأخير، أبعد ضرر في فمه، ولم يستطع أن يكمل الطعام، ولم يستطع أيضاً أن يكمل حديثه، حاول أن يحمد الألم بكل طريق ولكنه لم يفلح فغادر الأصدقاء عائداً إلى البيت..

كانت الوقت متأخراً فلم يجد طبيباً تلك الليلة، قضاها ليلة مبرحة صاخبة الألم، كل المسكنات التي يملكها لم تفلح في تهدئة العاصفة التي أطلقها ذلك الكائن الصغير

الصامت دوماً، انطلق كالمارد الجبار يصل صليل الأفعى، كالوحش الهائج يحطم رأسه معلناً وجوده وجبروته.. منذ سنوات انبعثت في ذلك الموضع البعيد من فمه آلام خفيفة هادئة، على إثرها نبت هذا الكائن الصغير ونما في يسر ورفق واستقر هناك وسكن، ونسي هو أنه هناك.

ولأول مرة يدخل عيادة طبيب الأسنان، وجهه الضاحك دوماً كان يحمل آثار ليلة قارسة، عيناه ذابلتان تحت مطارق الألم الموجه، وفمه المشرق البسمة بدا ساكناً منطفئاً يضم شفثيه على عالم جديد، غريب! لسانه الطليق، المشهود له بفصاحته لا يملك إخراج الكلمات الهزيلة، عاجز عن كل حركة كأن إبرة رفيعة مسمومة قد اخترقته حتى أصوله، تورم واحتقن وغدا هو الآخر قطعة من العذاب. كل شيء قد تبدل إلى عالم غريب كأنما مسته يد شيطان مارق.. كل هذا من أجل قطعة صغيرة من جدار ضرس؟! لم يكذب يصدق ذلك الأمر العجيب!

ومشى إلى عيادة الطبيب مطأطئ الرأس، لأول مرة! كانت جلسته الأولى عند طبيب الأسنان بالغة الإزعاج له، ساعة كانت أو تزيد، آلات عديدة لم يحصها تناوب الدخول في فمه المفتوح بغير حراك، آلة الحفر الرتيبة الصوت تحفر وتحفر كأنما تغوص في أعماق جبل! وينقل الفضلات فإذا هي ذرات قليلة من غبار.. ويعود الحفر من جديد، وتتناوب الآلات الصغيرة عملها في العالم الغريب!

ألم لا يوصف بيمور، لا يكاد يطيقه، خيل إليه أن فمه ردهة واسعة الأرجاء يجول فيها معول، يحطم كل شيء ويغوص إلى أعماق بعيدة، وتجسست الصورة أمامه حتى ملأت الفراغ.. حاول مستميتاً أن يستعيد شعوره بالحقيقة! حاول أن يتخيل ضرسه الصغير في تجويف فمه الصغير في رأسه الصغير! حاول بلا جدوى، صورة الردهة الواسعة العميقة الغور تملأ عينيه المغلقتين، وطنين آلة الحفر يصم أذنيه!.. أما هو ذاته، فقد بدا أمام بصره المغمض صغيراً، ضئيل الحجم كأنما ابتلعت الردهة الواسعة الغائرة! حتى طبيبه المفرط الطول بدا مغرقاً في الصغر وغارقاً في إجهاده، وتحت قطرات العرق التي تنصب من وجهه!.. لا شيء كبير غير فمه، غير رأسه، غير ضرسه العملاق!

وعجب، كيف لم يشعر به من قبل! وهو يأكل، وهو يشرب، وهو يتحدث، وهو يتلع ريقه! وهو يفكر في ضخامة الإنسان وقدراته الباهرة!.. كيف لم يأبه له وهو يشق طريقه في ثنايا اللحم الساكن في صمت ليستقر شامخاً راسخاً في طمأنينة عجيبة دون أن تلحظه عين أو يأبه له شعور، هذا العملاق الذي بدل حياته!! كل لحظة هو هناك في أعماق فكره يححو كل فكر سواه! كل لحظة هو هنا في فمه. في شعوره، في أعصابه، في كل رأسه وجسده، كل حركة هو فيها، هو معطلها، وهو يطلق الألم حولها كأنما هو الحياة، كأنما هو أضخم ما في الحياة! كأنما هو مسير الحياة! لا يملك أن يقضم طعاماً، لا

يستطيع أن يتلع شراباً، بل لا يستطيع أن يتلع ريقه أو يحرك لسانه ليخرج الكلمات، شائخة كقدرة الإنسان!! حتى الصمت.. لم يعد يملك الصمت، لأول مرة يجده عبئاً ثقيلاً! لأول مرة ينوء بحمل لسانه في فمه، يود لو يرفعه من هنا ليضعه هنا. بل يود لو لم يكن هنا!.. والكلمات! ما أعجز هذا اللسان عن حمل الكلمات، الكلمات التي تاه بها وحملها في طلاقة شائخة كل إعجابه بعظمة الإنسان!

وعملية الطعام!! ما أشق عملية الطعام وما أعقدها! كيف لم يفكر في هذا الأمر العظيم من قبل وهو يلوك طعامه في عجلة وفي نشوة ثم ينطلق إلى آفاق الحياة. وخرج من أفكاره على صرخة ألم في أعماق الهوة في قلب الضرس، لقد حاول الطبيب من جديد أن يضع قطعة الذهب الصغيرة لتقبع في الحفرة التي صنعتها الآلات في ساعاتها الطويلة!

- كلا يا دكتور.. لا يمكن أن تحتل.. كأن خازوقاً بشعاً قد انحسر في فمي، في أعصابي، رأسي كله.

- إذن لا بد أن نعود إليه بعد أيام، حتى يهدأ العصب.

في الطريق، تمنى أن يعود إلى البيت، وتراءت له منى هناك حيث اتفقا على اللقاء.. عيناها السوداوان الواسعتان كأنما تحقدان فيه. تعبان.. ونظر في ساعته، لقد تأخر الوقت كثيراً، لا يمكن أن تظل هناك.. وغمرته راحة مفاجئة، وقرر أن يعود إلى البيت، يتوق أن يستلقي هناك في سريره وحده، مع نفسه! منذ متى لم يلتق بنفسه!

وقرر أن يسير على قدميه، فخطوه الدائب يريجه كأن وقعته موسيقى رخية تهدأ أعصابه على دقاتها.. الطرقات المفعمة بالضوء تصدم عينيه، تصد فكره وتقلق روحه.. واخترق طريقاً، وطريقاً، وانحنى مع ثالث. ثم استقام في الطريق الهادئ على النيل..

كم يتوق لأن يجد نفسه.. لهفة غائرة، غامضة في أعناقه.. وحدق في المياه. في ظلمتها الداكنة الرهيبة، ما أشد أغواره البعيدة بأغوارها! ظلمات كثيفة داكنة ترقد هناك وراء فرحة الحياة الظاهرة.. وراء الصباح المشحون بالعمل بين طنين الماكينات الضخمة، بين الزملاء والزميلات والأخبار والأوراق والحركة الدائبة، ووراء الأمسيات اللاهية الغنية بالأمانيات.. وراء وجه منى المشرق بفرحة الرجاء ووراء كل تطلعاته وإشراقه الوجود في قلبه، يهفو الآن، لا يدري لماذا لأن يغوص في هذه الظلمات ويغرق في سرها الدفين ويلتف في حناياها البعيدة في لجة الغموض.. يغمره الحنين إلى.. لا يدري.. لا يذكر، كأن ماضياً سحيقاً يرقد في ظلمة الغموض. لا يعرف كنهه، لا يميز لونه، ولكن حنيناً شجياً يشده إليه..

وجه جدته، في بيتهم القديم الواسع في الحلمية يتراءى له.. لماذا الآن ولم يتذكره منذ أمد بعيد؟ أبيض ساطع البياض حوله شعر أبيض مهيب، تجلس على سجادة صغيرة. في طرف حجرها تهمهم بشيء لا يفهمه، رهيب مهيب يقشعر له جسده الصغير، ولكنه يظل مشدوداً إليه يسمع ويسمع.. وحجرات البيت الواسع وحديقته وهو يلهو بغير حرج.. ووقتها كان خط حياته الطويل هذا غارقاً في أعماق الجهول.. هل كان هو، هو ذاته الذي هو الآن؟! كأن جداراً سميكاً يفصلهما وكأنه بناء سامق وبغير جذور وأحس أنه يميد، وعلى مقعد من هاته المقاعد المستطيلة المنتشرة على الكرنيش، ألقى بحسبه الخائر في استلقاء مريح وتنهد في عمق.. وفي لحظة كالبرق مر وجه أمه أمام ناظره، ثم أسرع الخطى.. يوم غادرتهم في الرحلة البعيدة بغير عودة كان هناك، لم يكن يدري شيئاً، ولكنه أصر أن يراها وأن يرقد بجوارها وأن يقلبها، ولم يكن يدري أنها لن تعود، كل ما كان يفزع هو أصوات العويل، والوجوه الفزعة اللاهتة الواجمة، وحركة البيت الرهيبة المفاجئة.. لم يكن جاوز الرابعة بعد، ولكن وجهها المسبل محفور في ذاكرته، وصورة الحجره وهم يبدلون فراشها بفراش جديد بعد الرحيل..

وعاود المسير.. وقع خطاه يبدو رهيباً في ضوء الطريق الخافت، وصوت المياه يطن في دأب لا يصمت، والأغوار الداكنة تمد أذرعها إليه.. قشعريرة تحتاح رأسه، وجسده.. ترى أیظل یسير؟!

بعد غد سيكون لقاء " الشلة " .. سيكون هذه المرة في بيت مصطفى.. مصطفى؟! منذ خمس سنوات كان مصطفى إنساناً آخر، يذكر أول لقاء به في المجلة، كان ذلك في مكتب رئيس التحرير، كان شاباً وسيقماً، ملاحه يغشيها حياء رقيق.. ضحكوا منه جميعاً فيما بعد وكانوا يسمونه الشيخ مصطفى! ولكنه كان - بغير شك - أطفهم حساً وأرفعهم أخلاقاً.. مرات كثيرة تحدث معه عبد الله، وفي هذا المكان سارا معاً في إحدى الليلات واستغرقهما الحديث، كان حديثه مفعماً برطوبة حلوة ولكنه جادله بعنف.. يكاد يذكر الكلمات، قال هو: ليس لدينا وقت نضيعه في النظر إلى الخلف، وأجابه مصطفى بكلمات حارة كأنها نبض موسيقى هزت قلبه حينها ولكنه طمرها. لا يذكر كل حديثه، ولكن بعض كلماته ما زالت تنقر في مشاعره، قال: لن ننظر إلى الخلف، ولكن ننظر في أعماقنا، ننظر حولنا، ننظر في السماء وفي دكنة هذه المياه وننظر في قلوبنا.. كان صوته متهدجاً وكانت كلماته ذات رنين حلو، ولكنها تاهت في اللجة... في أعماق ترقق حنين غامض، لأشياء كثيرة.. بيتهم القديم ووجه جدته الساطع البياض، وجه والدته المسبل الجفنين، وخط ذكريات طويل وحنين آخر مجهول السميت.. وأحس برغبة لأن يلقى مصطفى، وطافت بقلبه صورته في آخر لقاء، يده في يد علياء، وفستانها الأزرق اللاصق يبشرها البيضاء وعلى صفحة وجهه ابتسامة مضطربة تصارع رؤوساً تطل من

الأعماق ثم تغيب.. كلا.. ليس ذاك.. إنه يهفو أن يلتقي بمصطفى.. ذلك الذي كان قبل أن يغمره الطوفان...

(٢) الراكبون إلى البحر

مسرحية للكاتب الأيرلندي ج.م. سينج

ولد جون ميلينجتون سينج في دبلن سنة ١٨٧١ ومات سنة ١٩٠٩ في مقتبل شبابه، ولم يخلف إلا ست مسرحيات من بينها - وأعظمها - هذه المسرحية: "الراكبون إلى البحر" (Riders to the sea). ويضعه بعض النقاد في قمة المؤلفين المسرحيين باللغة الإنجليزية.

وقد اخترناه في نماذج الفن الإسلامي - وهو غير مسلم - كما اخترنا طاغور في نماذج الشعر من قبل، لأنه - كما قلنا - يلتقي التقاء جزئياً مع المنهج الإسلامي.

إن المسرحية تصور أمّاً فقدت من قبل خمسة من أبنائها.. ذهبوا جميعاً إلى البحر ولم يعودوا.. ولم يبق إلا ابنها السادس والأخير. وتصوره المسرحية ذاهباً هو الآخر في رحلة إلى البحر. منطلقاً كالسهم.. إلى حتفه! لا يصده شيء ولا يقنعه شيء بالعدول عن رأيه.. إنه ينطلق كالقدر.. لأن القدر هكذا أراد!

وتفقد الأم ابنها السادس والأخير.. الأم الحزونة الموهونة الغائبة في الآلام.. ولكنها في هذه المرة تستريح! لقد سلمت البضاعة كلها عن آخرها! لم يعد لديها ما تفقده! وعندئذ تلجأ إلى الله.. الذي سلمته وديعته كلها.. تلجأ إليه تلتمس عنده وحده العزاء والسلوان!

والمسرحية تحمل طابعاً مسيحياً واضحاً شديد الوضوح - بمقدار وضوح الهندوكية في طاغور! - المسيحية المتصوفة اللائحة إلى مهرب الروح، تهرب إليه من جحيم الألم في عالم الإنسان.. ولكنها - كشعر طاغور - تلتقي مع المنهج الإسلامي في نقاط:

فهذا التسليم إلى الله.. وهذا اللجوء إليه.. والشعور بالموت على أنه رد الوديعة إليه.. والتأسي والصبر.. والرضا "بقدر" الله.. كلها جوانب تلتقي مع منهج الفن الإسلامي، وإن اختلف الطريق بعد ذلك في طريقة تناول الحياة!

أشخاص المسرحية:

موريا: امرأة عجوز.

بارتلي: ابنها.

كاتلين : ابنتها.

نورا : ابنتها الصغرى.

رجال ونساء.

المنظر : جزيرة على مسافة من غرب أيرلنده.

[مطبخ أحد الأكواخ، تُرى فيه شباك صيد، وقطع من الشمع، وعَجَلَة غزل، وألواح خشبية جديدة مسندة إلى الحائط.. الخ. " كاتلين " فتاة تناهز العشرين من عمرها، تفرغ لتوها من عجن كعكة وتضعها في وعاء على النار. ثم تمسح يديها وتأخذ في إدارة المغزل. " نورا " فتاة صغيرة، تطل من فتحة الباب].

نورا [في صوت خفيض] : أين هي؟

كاتلين : إنها مستلقية في فراشها. أعالها الله. وربما كانت نائمة.. إن كان ذلك في استطاعتها.

[تدخل نورا في هدوء، وتخرج لفافة من تحت شالها].

كاتلين [تدير المغزل في سرعة] : ما هذا الذي معك؟

نورا : لقد أحضرها القسيس الشاب. إنها قميص وجورب (سادة) انتزعا من جثة غريق في دونيجال. [كاتلين تتوقف عن الغزل بحركة مفاجئة وتمد رأسها لتسمع] علينا أن نعرف هل هي من ملابس " ميكيل "؟ لا بد أنها ستذهب بنفسها بعد فترة لتبحث بجوار البحر.

كاتلين : كيف يمكن أن تكون ملابس ميكيل يا نورا؟ كيف يمكن أن يذهب كل هذه المسافة إلى الشمال؟

نورا : يقول القسيس الشاب إنه يعرف حالات مماثلة. وهو يقول : " إذا كانت هذه ملابس ميكيل، فتستطيعين أن تخبريها أنه دفن مدفناً طيباً، برحمة من الله. وإذا لم تكن هذه الملابس له فلا تذكروا شيئاً عنها، فإنها ستقتل نفسها قتلاً بالبكاء والعيول ".

[الباب الذي واربته نورا ينفتح على مصراعيه بفعل الريح].

كاتلين [تنظر إلى الخارج بقلق] : هل سألته إن كان سيمنع بارتلي من الذهاب اليوم بالخليل إلى سوق جولوبي؟

نورا : لقد قال : " لن أمنعه، ولكن لا تخافوا. إنها تقوم الليل بنفسها تصلي. ولن يتركها الله العلي القدير محووجة، دون أحد حي من أولادها ".

كاتلين : هل البحر هائج عند الصخور البيض يا نورا؟

نورا : هائج إلى حد ما. والأمواج تزار بشدة في الغرب. وسيكون الأمر أسوأ حين يرتد المد في اتجاه الريح [تذهب إلى المنضدة باللفافة] هل أفتحها الآن؟
كاتلين : ربما تصحو الآن وتفاجئنا قبل أن ننتهي [تتجه نحو المنضدة] وسوف نظل فترة طويلة نكي.

نورا [تتجه إلى الباب الداخلي وتنصت] : إنها تتحرك في فراشها، وستكون هنا بعد لحظة.

كاتلين : أعطيني السلم الخشبي، وسأضعها في مخزن الوقود، فلا تعلم عنها شيئاً أبداً. وحين يعود المد فرما تذهب هي إلى الشاطئ لترى إن كانت جثته قد طفت من ناحية الشرق.

[يضعان السلم الخشبي تجاه سقف المدخنة. تصعد كاتلين بضع درجات وتخفي اللفافة في مخزن الوقود. تدخل موريا من الحجرة الداخلية].

موريا [ترفع بصرها نحو كاتلين وتحدث متسائلة] : أليس لديك من الوقود ما يكفيك هذا النهار والمساء؟

كاتلين : هناك فطيرة على النار تحتاج إلى فترة لكي تنضج [تلقي بعض الوقود] وسيحتاج إليها بارتلي حين يعود المد إذا كان ذاهباً إلى كونيمارا.
[نورا تلتقط حزمة الوقود وتضعها في النار حول الفطيرة].

موريا [تجلس على مقعد صغير بجانب النار] : لن يذهب في هذا اليوم والريح تمب من الجنوب والغرب. لن يذهب اليوم فسوق يمنعه القسيس الشاب لا محالة.

نورا : لن يمنعه يا أماه. وقد سمعت إيمون سيمون وستيفن فيتي وكولم يقولون إنه ذاهب.

موريا : وأين هو؟

نورا : ذهب ليرى إن كانت هناك سفينة أخرى مبحرة في هذا الأسبوع. وأظن أنه لن يغيب كثيراً، وأنه سيكون هنا بعد قليل، فالمد قد بدأ يعود عند الرأس الأخضر، وسفينة الصيد بدأت تصفر من ناحية الشرق.

كاتلين : أسمع أحداً يعبر الصخور الكبرى.

نورا [تنظر إلى الخارج] : إنه قادم الآن. وهو في عجلة.

بارتلي [يدخل. يدور بنظره في الغرفة. يتكلم في أسى وهدوء] : أين قطعة الحبل الجديدة يا كاتلين التي اشتريناها من كونيمارا؟

كاتلين [تزل] : أعطيه له يا نورا. إنه على مسمار بجوار الألواح البيض. لقد علقت هذا الصباح لأن الخنزير ذا القدم السوداء كان يقضمه.

نورا [تعطيه الحبل] : أهو هذا يا بارتلي؟

موريا : إنك تصنع معروفاً بترك هذا الحبل معلقاً بجوار الألواح. [بارتلي يأخذ الحبل] إنه لازم في هذا المكان، وها أنذا أخبرك، إذا ظهرت جثة ميكل غداً صباحاً، أو بعد غد، أو أي صباح في هذا الأسبوع. فسوف نحفر له قبراً عميقاً بإذن الله.

بارتلي [يبدأ في العمل بالحبل] : ليس معي لجام أركب به الحصان ولا بد أن أذهب الآن في الحال. فهذه هي السفينة الوحيدة المبحرة خلال أسبوعين أو أكثر، وستكون السوق سوقاً جيدة للخيل، هكذا سمعتهم يقولون هناك.

موريا : سيقولون كلاماً قاسياً هناك إذا ظهرت الجثة، وليس هناك رجل ليصنع التابوت، بعد أن اشترت له أجود الأخشاب البيض التي تجدها في كونيمارا. [تنظر ناحية الألواح].

بارتلي : كيف يمكن أن تظهر ونحن نبحت كل يوم لمدة تسعة أيام، وهناك ريح شديدة تهب من الغرب والجنوب؟

موريا : افرض أننا لن نجدها. ولكن هذه الريح تجعل البحر هائجاً. وهناك نجمة بجوار القمر، وهي ترفع المد في الليل وتهيج البحر. لو كانت مئة فرس أو ألف فرس تحصل عليها هناك.. ما قيمة ألف فرس في مقابل ابن، إذا لم يكن هناك غير هذا الابن؟

بارتلي [يصنع اللجام، لكاتلين] : عليك أن تذهبي كل يوم لتتأكدي أن الغنم لا تأكل الشعير، وإذا جاء التاجر فتستطيعين أن تبيعي الخنزير ذا القدم السوداء. إذا وجدت سعراً طيباً.

موريا : كيف تحصل مثلها على سعر طيب للخنزير؟

بارتلي [لكاتلين] : إذا استمرت ريح الغرب مع ليالي القمر الأخيرة فعليك أن تجمعي أنت ونورا ما يكفي من الحشائش. ستكون الأمور صعبة منذ اليوم وليس إلا رجل واحد يعمل في البيت.

موريا : ستكون الأمور صعبة حقاً حين تغرق أنت مع الباقيين. كيف أعيش والبتنان معي، وأنا عجوز أبحث عن القبر؟

[بارتلي يضع اللجام، ويخلع سترته القديمة ويلبس أخرى من نوعها ولكنها أحدث].

بارتلي [لنورا] : هل هي قادمة إلى الميناء؟

نورا [تنظر إلى الخارج] : لقد مرت بالرأس الأخضر وحلت شراعها.

بارتلي [يأخذ محفظته وعلبة طباقه] : سأكون هناك في ظرف نصف ساعة، وستروني قادمًا مرة أخرى خلال يومين، أو ثلاثة، أو أربعة إذا ساءت حال الريح.

موريا [تتجه نحو النار وتضع شالها على رأسها] أليس رجلاً فظاً قاسياً ذلك الذي لا يستمع لكلمة واحدة من امرأة عجوز وهي تمنعه من الذهاب إلى البحر؟

كاتلين : إنها الحياة بالنسبة للشباب أن يذهب إلى البحر. ومن ذا الذي يستمع إلى امرأة عجوز وهي تقول نفس الشيء مرة بعد مرة؟

بارتلي [يأخذ اللجام] : لا بد أن أذهب الآن سريعاً. سأركب الفرس الحمراء، وسيجري المهر الأشهب ورائي.. دعواتي لكم أن يشملكم الله ببركاته [يخرج].

موريا [تصرخ وهو بالبواب] : لقد ذهب الآن. فليرحمنا الله. ولن نراه مرة أخرى. لقد ذهب الآن، وحين يسدل ستار الليل الأسود فلن يكون قد بقي لي ولد في هذه الدنيا.

كاتلين : لماذا لم تمنحيه بركتك وهو يلتفت إليك حين كان بالبواب؟ أليس مما يبعث الأسى في النفس أنه ما من واحد في هذا البيت إلا شيعته بكلمة تعيسة من ورائه وكلمة قارسة في أذنه؟ [موريا تمسك بالملقاط وتحرك النار بلا هدف دون أن تنظر حواليتها].

نورا [تلتفت حولها] : إنك تبعدين النار عن الفطيرة.

كاتلين [صارخة] : عفوك يا رب. نورا، لقد نسينا فطيرته. [تذهب إلى الفرن]

نورا : وسيهلك من الجوع حين يحل الليل، وهو لم يأكل شيئاً منذ طلعت الشمس.

كاتلين [تخرج الفطيرة من الفرن] : سيهلك حتماً. لا يمكن أن يبقى عقل في رأس أي واحد في منزل فيه عجوز لا تكف عن الكلام [موريا تلقي بنفسها على مقعدها].

كاتلين [تقطع جزءاً من الفطيرة وتلفه في قطعة من القماش، لموريا] : فلتذهبي الآن إلى النبع وتعطيه هذه حين يمر هناك. ستريه عندئذ، وتبطل الكلمة المشؤومة، وتستطيعين أن تقولي له : " أعادك الله إلينا سريعاً " فيستريح باله.

موريا [تأخذ الفطيرة] : هل أستطيع أن أصل هناك حين يصل هو؟

كاتلين : إذا ذهبت الآن سريعاً.

موريا [تقف مترنحة] : إنها لمهمة شاقة عليّ أن أمشي.

كاتلين [تنظر إليها قلقة] : أعطيتها العصا يا نورا، وإلا انزلت قدمها فوق الصخور الكبيرة.

نورا : أي عصا؟

كاتلين : العصا التي جاء بها ميكل من كونيمارا.

موريا [تأخذ العصا التي تعطيها إياها نورا] : في الدنيا العريضة كلها يخلف الكبار وراءهم أشياء لأبنائهم وأطفالهم، أما في هذا المكان فالشبان هم الذين يخلفون الأشياء للكبار.

[تخرج في بطاء ، تصعد نورا على السلم].

كاتلين : انتظري يا نورا، فقد تعود سريعاً. إنها امرأة أكلها الحزن. كان الله في عونها. لا تستطيعين أن تعرفي أي شيء تعمل.

نورا : هل عدت الشجرة الصغيرة؟

كاتلين [تنظر إلى الخارج] : لقد ذهبت. ألقيتها بسرعة، فالله وحده يعلم متى تخرج مرة أخرى.

نورا [تحضر اللقافة من المخزن] : لقد قال القسيس الصغير أنه سيمر غداً، وإن علينا أن نذهب إليه ونخبره إن كانت ملابس ميكل حقاً.

كاتلين [تتناول اللقافة] : هل قال كيف عُثر عليها؟

نورا [تتزل] : قال : " لقد كان هناك رجلان يجدفان قبل الفجر، فاصطدم جحداً أحدهما بالجثة بينما كانا يعبران بجوار الجرف الأسود هناك في الشمال ".

كاتلين [تحاول فتح اللقافة] : ناوليني سكيناً يا نورا. لقد بلي الخيط من الماء الملح، وفيه عقدة لا تنحل في أسبوع.

نورا [تناولها سكيناً] : سمعتهم يقولون إنها مسافة طويلة إلى دونيجال.

كاتلين [تقطع الخيط] : إنها طويلة حقاً. لقد كان هناك رجل منذ قليل - وقد باعنا هذه السكين - وقد قال إنك إذا مشيت من عند تلك الصخور هناك، فإنك تصلين إلى دونيجال بعد سبعة أيام.

نورا : وكم يأخذ الرجل إذا كان طافياً؟

[كاتلين تفتح اللقافة وتخرج قطعة من قميص وفرد وجورب. تنظران إليهما بلهفة].

كاتلين [في صوت خفيض] : فليرحمنا الله يا نورا! أليس عجباً أن نقول إن كانت هذه ملابسه حقاً؟

نورا : سأحضر قميصه من المشجب لنقارن بين هذا القماش وذاك. [تنظر في بعض الملابس المعلقة في ركن الكوخ] ليس فيها قميصه يا كاتلين، فأين ذهب؟

كاتلين : أظن بارتلي ارتداه في الصباح إذ كان قميصه ثقيلاً من الملح [تشير إلى الركن] ها هي ذي قطعة من الكم كانت من نفس القماش. ناوليني هذه وهي تكفي. [نورا تحضرها إليها وتقارنان القماش] إنها من نفس القماش يا نورا. ولكن إذا كانت من نفس القماش، ألا توجد أثواب ضخمة منه في المحلات في جولويي، أولاً يشتري منها رجال كثيرون ويصنعون منها أقمصه كما صنع ميكل؟

نورا [التي كانت قد أخذت الجورب وعدت الغرز التي يحتوي عليها، صارخة] : إنه ميكل يا كاتلين. إنه ميكل. ليرحمه الله. أي شيء سوف تقول هي حين تسمع هذه القصة وبارتلي في البحر؟

كاتلين [تأخذ الجورب] : إنه جورب (سادة).

نورا : إنها الفردة الثانية من الزوج الثالث الذي اشتغلته. وأنا أعرف عدد غرزه. إنها ستون غرزة.

كاتلين [تعد الغرز] : إنه العدد الذي تقولين [صارخة] آه يا نورا. أليس شيئاً محزناً أن يفكر الإنسان فيه وهو طاف فوق الموج كل هذه المسافة إلى الشمال، وليس هناك من يكيه إلا الطيور السود المحلقة فوق البحر؟

نورا [تدور حول نفسها نصف دورة وتلقي بذراعيها فوق الملابس] : أو ليس من المحزن أيضاً ألا يتبقى شيء من رجل كان مجدفاً ماهراً وصياداً بارعاً إلا قطعة من قميص قديم وفردة جورب؟

كاتلين [بعد لحظة] : خبريني.. هل هي قادمة يا نورا؟ إنني أسمع صوتاً في المعبر.

نورا [تنظر إلى الخارج] : إنها قادمة يا كاتلين. إنها مقبلة نحو الباب.

كاتلين : أخفي هذه الأشياء قبل أن تدخل. ربما يكون حالها أحسن بعد أن باركت بارتلي، ويحسن ألا نقول لها شيئاً، وهو في البحر.

نورا [تساعد كاتلين في ربط اللقافة] : نضعها هنا في الركن.

[يضعانها في فتحة ركن المدخنة. تعود كاتلين إلى المغزل].

نورا : هل تراها ستلحظ أنني كنت أبكي؟

كاتلين : اجعلي ظهرك للباب فلا يقع النور عليك.

[نورا تجلس في ركن المدفأة وظهرها إلى الباب. تدخل موريا في ببطء شديد دون أن تنظر إلى البنتين، وتذهب إلى مقعدها بجانب النار من الناحية الأخرى. اللفافة التي بداخلها الفطير ما تزال في يدها. وتتبادل الفتاتان النظرات وتشير نورا إلى اللفافة].

كاتلين [بعد أن تغزل لحظة] : لم تعطيه قطعة الفطير؟

[موريا تأخذ في النوح بصوت خفيض، دون أن تلتفت حولها].

كاتلين : هل رأيته يركب إلى الميناء؟

[موريا تستمر في نواحها]

كاتلين [بشيء من نفاد الصبر] : غفر الله لك. أليس من الأفضل أن ترفعي صوتك قليلاً وتقولي لنا ماذا رأيته، خيراً من التوجع على شيء حدث وانتهى؟ هل رأيته بارتلي؟ إني أسألك.

موريا [بصوت ضعيف] : إن قلبي محطم منذ اليوم.

كاتلين [كالمرة السابقة] : هل رأيته بارتلي؟

موريا : رأيته أروع شيء.

كاتلين [تترك مغزها وتنظر إلى الخارج] : غفر الله لك. إنه راكب فرسه الآن عند الرأسسالأخضر، والمهر الأشهب وراءه.

موريا [تفزع حتى إن شالها يقع من فوق رأسها ويظهر من تحته شعرها الأشيب المعقوص فوق رأسها. تتحدث بصوت مفرّج] : المهر الأشهب وراءه...

كاتلين [تتجه نحو الموقد] : ماذا بك؟ من أي شيء تشكين؟

موريا [تتحدث ببطء شديد] : رأيته أروع شيء رآه إنسان منذ اليوم الذي رأته فيه العروس دار الرجل الميت يحمل الطفل بين يديه.

كاتلين ونورا : أوه..

[تجلسان منكمشتين أمام المرأة العجوز بجانب الموقد].

نورا : حديثنا بما رأيته.

موريا : ذهبت إلى النبع ووقفت هناك أتمتم بدعاء في نفسي. ثم جاء بارتلي يركب فرسه الأحمر والمهر الأشيب وراءه [تمد يدها أمام عينيها كما لو كانت تحجب عن بصرها شيئاً] يرحمنا الله يا نورا!

كاتلين : أي شيء رأيته؟

موريا : رأيته ميكل نفسه.

كاتلين [تتكلم بصوت خفيض] : لم تريه يا أماه. لم يكن ميكل الذي رأيته، فقد وُجِدَتْ جثته في أقصى الشمال، وقد دفن مدفناً طيباً برحمة من الله.

موريا [بشيء من التحدي] : لقد رأيته اليوم راكباً منطلقاً بفرسه. جاء بارتلي أولاً على الفرس الأحمر، وحاولت أن أقول : " أعادك الله إلينا سريعاً " ولكن شيئاً ما أوقف الكلمات في حلقي. ومر بي مسرعاً، وقال : " أحاطك الله برعايته " ولم أستطع أن أقول شيئاً. ورفعت بصري والدموع تنهمر من عيني نحو المهر الأشهب، وهناك وجدت ميكل راكباً فوقه وعليه ملابس نظيفة وحذاء جديد في قدميه.

كاتلين [تأخذ في النواح] : لقد هلكنا منذ اليوم.. لقد هلكنا حقاً.

نورا : أليس القسيس الصغير قد قال إن الله العلي القدير لن يتركها محووجة بغير أحد حيٍّ من أولادها؟

موريا [بصوت خفيض ولكنه واضح] : إن مثله لا يعرف كثيراً عن البحر. إن بارتلي قد فقد الآن. فلتنادي إيمون ليعد لي تابوتاً جيداً من الألواح البيض. فلن أعيش بعدهم. لقد ضاع مني في هذا المنزل زوجي وأبوه، وستة أبناء - ستة رجال معتبرين. رغم أنني تحملت العناء وهنا على وهن حين جاء كل منهم إلى هذه الدنيا - وبعضهم وُجِدَ وبعضهم لم يعثر عليه، ولكنهم ذهبوا الآن كلهم.. ستيفن، وشون فقدوا في الرياح العاتية ووجدوا بعد ذلك في خليج جريجوري عند الجولدن ماوث وحُمِلَ معاً إلى لوح خشب واحد، وأدخلوا من هذا الباب.

[تتوقف لحظة، وتفزع الفتاتان كما لو كانتا قد سمعتا شيئاً من خلال الباب الموارب من خلفهما].

نورا [هامسة] : هل سمعت يا كاتلين؟ هل سمعت ضحيجاً في الشمال الشرقي؟

كاتلين [هامسة] : هناك إنسان يزعم على شاطئ البحر.

موريا [تستمر دون أن تسمع شيئاً] : وفقد شيموس ووالده وجده في ليلة مظلمة، ولم يظهر منهم شيء على الإطلاق حين طلعت الشمس. وغرق باتش في مركب انقلب به في البحر. وكنت جالسة هنا مع بارتلي وكان رضيعاً في حجرِي، ورأيت امرأتين وثلاث نساء وأربع نساء داخلات يرسمن علامة الصليب ولا يقلن كلمة واحدة. ورفعت بصري فرأيت رجالاً قادمين خلفهن، يحملون شيئاً في نصف شراع أحمر، يقطر منه الماء، وكان اليوم جافاً يا نورا، والمياه تتقاطر وتترك على الأرض خطاً منقطاً حتى الباب.

[تتوقف مرة أخرى ويدها ممدودة نحو الباب. ينفتح الباب في هدوء. وتأخذ نساء كبيرات السن يدخلن، ويرسمن علامة الصليب وهن على عتبة الباب، ويركعن في مقدمة المسرح وعلى رؤوسهن مآزر حمراء].

موريا [كالحلمة، إلى كاتلين] : هل هو باتش؟ أم ميكل؟ أم من..؟
كاتلين : لقد وجد ميكل في أقصى الشمال، وإذا كان قد وجد هناك فكيف يكون هنا في هذا المكان؟

موريا : هناك قوة تحمل جثث الشباب الطافية وتسبح بها في البحر. وكيف يعرفون أنه هو ميكل الذي وجدوه، أو رجل آخر يشبهه؟ فعندما يظل الرجل تسعة أيام في البحر والريح هائجة فمن الصعب حتى على أمه ذاتها أن تقول أي رجل هو.
كاتلين : إنه ميكل. يرحمه الله. فقد أرسلوا إلينا قطعة من ملابسه من أقصى الشمال.

[تمد يدها وتناول موريا ملابس ميكل. موريا تقف في بضع وتتناولها بيديها. نورا تنظر إلى الخارج].

نورا : إنهم يحملون شيئاً بينهم والماء يتقاطر منه ويترك خطاً على الصخور الكبيرة.
كاتلين [هامسة إلى النساء اللواتي دخلن] : أهو بارتلي؟
إحدى النساء : هو بالتأكيد. ظلل الله روحه.

[تدخل امرأتان أصغر سناً، وتجران المنضدة. يدخل رجال يحملون جثة بارتلي على لوح خشبي، تغطيها قطعة من شراع، ويضعونها على المنضدة].
كاتلين [للمرأتين وهما تصنعان ذلك] : كيف غرق؟
إحدهما : أوقعه المهر الأشهب في البحر، ودفعته أمواج الشاطئ الصخري العنيفة فوق الصخور البيض.

[موريا قد ذهبت وركعت عند طرف المنضدة. النساء يُنحْنَ في صوت خفيض وتهتز أجسامهن في حركة بطيئة. ترقع كاتلين ونورا عند الطرف الآخر من المنضدة. ويركع الرجال عند الباب].

موريا [ترفع رأسها وتتحدث كما لو كانت لا ترى الناس من حولها] : لقد ذهبوا الآن جميعاً. ولن يستطيع البحر أن يصنع لي شيئاً بعد ذلك.. لم يعد هناك ما يدعوني الآن أن أبكي وأتمتم بالدعاء حين تم الرياح من الجنوب، ويسمع صوت تكسر الأمواج على الشاطئ الصخري في الشرق والشاطئ الصخري في الغرب، فتحدث ضجة عظيمة وهي تتخبط من هنا ومن هناك. لم يعد هناك ما يدعوني أن أذهب لأحضر الماء

المقدس في الليالي المظلمة من سامهين، ولن أفكر في حال البحر حين تنوح النساء الأخريات. [لنورا] أعطيني الماء المقدس يا نورا. هناك بقية منه لم تزل على (دولاب الفضيات).

[نورا تعطيها إياه].

موريا [تسقط ملابس ميكل من عند قدمي بارتلي وترش الماء المقدس فوقه] : ليس لأمر أنني لم أدع لك العلي القدير يا بارتلي، ليس الأمر أنني لم أدع لك في الليل المظلم حتى لا أعود أعرف ماذا أقول. ولكنني الآن سأجد الراحة العظمى. وقد آن أوانها. إنها الراحة العظمى التي سأجدها الآن، والنوم المستغرق في الليالي الطويلة، حتى ولو كان طعمنا حفنة من الدقيق وسمكة قديمة ننتة.

[تركع مرة أخرى، وترسم علامة الصليب وتصلي صلاة غير مسموعة].

كاتلين [لإحدى النساء] : لعلك تصنعين أنت وإيمون تابوتاً حين تطلع الشمس. عندنا ألواح بيض اشترتها بنفسها، أعانها الله، ظناً منها أن ميكل سيعثر عليه، وعندني فطيرة طازجة تستطيعين أن تأكلي منها وأنت تعملين.

الرجل العجوز [ينظر إلى الألواح] : هل معها مسامير؟

كاتلين : لا يوجد يا كولم. لم نفكر في المسامير.

رجل آخر : إنه لعجيب جداً ألا تفكر في المسامير بعد كل التوابيت التي رأيتموها.

كاتلين : لقد كبرت وتحطم قلبها.

[موريا تقف مرة أخرى في ببطء شديد، وتنشر ملابس ميكل بجانب الجثة، وترشها بما تبقى من الماء المقدس].

نورا [هامسة لكاتلين] : إنها الآن هادئة مطمئنة. أما يوم مات ميكل فكنت تسمعينها تصرخ من هنا حتى النبع. إنها أكثر شغفاً بميكل. هل كان أحد يظن ذلك؟

كاتلين [ببطء ووضوح] : إن امرأة عجوزاً مثلها لا بد أن يدركها الملل من أي شيء تصنعه. أو ليست تبكي وتنوح منذ تسعة أيام كاملة، وتحدث أسىً عظيماً وحرزاً في البيت؟

موريا [تضع الفنجان مقلوباً على المنضدة، وتضع يديها معاً على قدمي بارتلي] : إنهم كلهم معاً في هذه المرة. والنهاية قد أتت. ليتزل الله برحمته على روح بارتلي وروح ميكل وأرواح شيموس وباتش وستيفن وشون [تحني رأسها] وليتزل الله برحمته على روحي يا نورا وعلى روح كل إنسان في هذه الأرض.

[تتوقف ويرتفع النواح قليلاً من جانب النساء ثم يصمت].

موريا [مستمرة] : لقد دفن ميكل مدفناً طيباً في أقصى الشمال، برحمة من الله. وسيكون لبارتلي تابوت جيد من هذه الألواح البيض ومدفن عميق بكل تأكيد. أي شيء نريد أكثر من هذا؟ لن يعيش الإنسان إلى الأبد. وعلينا أن نرضى. [تركع ويسدل الستار ببطء].

آفاق للمستقبل

تتمثل في الأدب العربي الحديث نهضة فريدة، قد لا تكون لها شبيهة في تاريخ هذا الأدب كله إلا في العصر العباسي، حين اتسعت آفاق الأدب، وشملت كل المجالات المتاحة في ذلك الحين.

وهذه النهضة الحديثة التي ترجع جذورها إلى نهاية القرن التاسع عشر، والتي امتدت في النصف الأول من القرن العشرين حتى شملت كل مجالات الأدب وفنونه من قصة ومسرحية وشعر وملحمة ومقالة وخاطرة وبحت.. تشبه مثيلتها في العصر العباسي، في أنها لم تكنف بالأصول العربية، وإنما استمدت مما جاورها من الثقافات والحضارات والآداب والفنون، ثم صاغت ذلك كله في أسلوب عربي وإطار عربي.

ولا ضير في هذا الاستمداد..

فالغن لا يعرف الحواجز.. لا يعرف حواجز اللغة أو الوطن أو الجنس.. إنه تعبير بشري عن الإنسانية في أوسع مجالاتها وأوسع مفاهيمها. ومن ثم يلتقي لديه البشر جميعاً بلا تفرقة ولا انفصال. يلتقون عليه بوجودناهم وأفكارهم ومشاعرهم، كما يلتقي الأخ بالأخ في أسرة البشرية الكبيرة المتصلة الحلقات.

ولكن التقاء البشرية كلها على هذا الجوهر الإنساني المشترك، وتعارفها على السمات المشتركة بين الجميع : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) لا ينفي وجود التميز بين فرد وفرد، وبين فن وفن، وبين مزاج ومزاج. ولحكمة عليا كان هذا التميز والاختلاف..

فلو كان الناس كلهم صورة واحدة لصارت الحياة كذلك صورة واحدة مكرورة رتيبة مملة، لا فسحة فيها ولا تشويق!

ولكنها بهذا الاختلاف - مع وجود الجوهر المشترك - تصبح أكثر ثراءً وأوسع مساحةً وأحفل بألوان الجمال..

وفي الفن بصفة خاصة تبرز هذه الظاهرة البشرية الفريدة : التشابه والاختلاف في ذات الوقت. ويبرز كذلك هذا الجمال، الناشئ من التقاء الصور المتعددة للجوهر المشترك بين الجميع.

وكل فن أصيل لا بد أن يحمل هاتين السمتين في وقت واحد : فهو فن إنساني، بما هو تعبير عن النفس الإنسانية في حقيقة جوهرها، وهو في الوقت ذاته فن متميز بطابعه الخاص، الذي يعبر عن شخصيته الذاتية في نطاق الإنسانية الشاملة.

وحين بدأت النهضة الحديثة في الأدب العربي، لم تكن قد أخذت طابعها النهائي المتميز، الذي يكفل لها السمة الإنسانية والسمة الذاتية في نفس الوقت.

فقد بدأت تقليداً للصور الأدبية المتوارثة في الأدب العربي، ثم أخذت شيئاً شيئاً تتأثر بالآداب الأوروبية، وبخاصة الإنجليزية والفرنسية، اللتين وجدتا لهما - بحكم الاحتلال من ناحية، وبحكم مكانتهما العالمية من ناحية أخرى - تلاميذ ومدارس في الشرق العربي، يتأثرونهما وينسجون على منوالهما.

وكان هذا أمراً طبيعياً ومنطقياً مع سير الأحداث : السياسية والفكرية والثقافية في نهاية القرن الماضي ومبادئ القرن العشرين.

ومرت فترة ظهر فيها في مصر أدباء كبار.. أدباء لهم ذاتيتهم التي لا شك فيها، ولهم براعتهم وحذقهم واجتهادهم ومشاركتهم الأصيل.. ولكن طابع " الترجمة " كان يسيطر عليهم. ولا نقصد أنهم كانوا يترجمون الأعمال الغربية أو الأفكار الغربية وينسبونها إلى أنفسهم. وإنما نقصد عملية أعمق من ذلك وأخفى، لعلها كانت تتم عن غير وعي من هؤلاء الأدباء أنفسهم ؛ فقد كانت " مشاعرهم " هي المترجمة عن الآداب الغربية! مشاعرهم وطريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة وتقديرهم للقيم الإنسانية و " للمفاهيم " على وجه العموم!

ورغم الأصالة الذاتية لهؤلاء الأدباء الكبار - وهي أصالة غير منكورة - ورغم حرصهم الواعي الدقيق المتمكن، على سلامة الأداء العربي وقوته وفصاحته، ورغم الخدمات الجليلة التي أدوها في تنقية الأسلوب العربي وتطويره وتحمله.. رغم هذا كله فقد كانوا طبعة عربية أنيقة من المفاهيم الغربية في الأدب والحياة!

وكان ذلك - كما قلنا - أمراً منطقياً، و متمشياً مع طبائع الأشياء.

وكان المفروض أن تلي فترة الانتقال الطبيعية هذه، فترة أخرى تبرز فيها السمات الأصيل لفن هذا الشعب، وتتخذ طابعها الخاص المميز، الذي يعطيها شخصيتها الذاتية على مائدة الأدب العالمي الحافل بكل السمات وكل المميزات.

وبدأت هذه الفترة فعلاً، وسارت شوطاً في الطريق.

وأخذ الأدب يتبلور ويصفو على أيدي عدد من أدباء الشباب، وأخذ ينضج على مهل ليعطي نكهته المتميزة الأصيل.

ولكن هذا لم يدم طويلاً، ولم يسر في الطريق الصحيح إلا خطوات..

وبعدها، كأنما أصابت الأدباء الشبان زوبعة عاصفة نكثت رؤوسهم وأفكارهم وطيرتها في كل اتجاه..

وخرجت دعوات الأدب الملتزم وغير الملتزم. وتعددت المذاهب التي يلتزم بها الأدب، المذاهب الفنية، والمذاهب الاجتماعية، والمذاهب التعبيرية، والمذاهب " الأيديولوجية"، وغيرها من التسميات والاتجاهات..

زوبعة كأنما انطلقت في لحظة.. فشئت كل ما كان في طريقه إلى التجمع والاتصاح والبروز.

وضاعت شخصية هؤلاء " الأدباء " في غمار الزوبعة المشتتة!

وصاروا طبعات.. غير أنيقة.. من المذاهب التي ينقلون عنها بوعي أو بغير وعي، ويتأثرونها كأنها مقدسات، يتبعون حرفيتها ويقلدونها جاهدين.

وصار الأدب - من هذه الناحية - كأنه يرجع إلى الوراء!

لقد صار أكثر فنوناً وأكثر طرائق وأكثر إنتاجاً وأكثر ميادين.. ولكنه أقل أصالة وأقل جودة، وأسوأ من ناحية القدرة التعبيرية وسلامة اللغة والأسلوب.

ذلك أن أدباء الشباب - بجانب الزوبعة التي نكثت رؤوسهم - لم يكن لهم الصبر المتأني الذي يحصلون به ويتمكنون في التحصيل، فهم مستطارون معجلون إلى الشهرة والكسب وكثرة الإنتاج ولمعان الأسماء.



وقد استفاد الأدب والأدباء خبرة كبيرة ولا شك بالاستمداد من أدب الغرب ومذاهبه وأفكاره، وسعة مجالاته وتعدد فنونه، وطرائق العرض فيه والأداء، والقواعد الفنية للعرض والأداء.

ولكنهم فقدوا شخصيتهم المميزة وتبعثروا، فلم يعودوا يمثلون طابعاً مميزاً محدد السمات في الأدب العالمي الواسع الثراء.

ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون بأنفسهم أو يعرفون ذاتيتهم!

ولا يعرفون ميراثهم..

لقد خرجوا من الآفاق المحدودة التي كانوا يعيشون فيها، يريدون أن ينطلقوا ويلحقوا الركب الظافر المتراخي أمامهم بكل قوته وجبروته..

وفي انطلاقهم انسلخوا من كل موروثاتهم الفكرية والروحية و " الأيديولوجية " .. لأنهم ظنوها حملاً يعوقهم عن الانطلاق، وقيداً يعثر خطواتهم في الطريق..

ولكنهم كذلك - من ثم - انسلخوا من ذاتيتهم وكيانهم.. وأصبحوا بلا كيان!
وصاروا طبعة - غير أنيقة - من الأدب الذي ينقلون عنه، أو المذهب الذي
يحشرون أنفسهم فيه! إذ أن تلك المذاهب نتاج تاريخي لبيئات معينة، مرت بظروف
وأحوال معينة ؛ لم يكن لها وجود في بيئتنا ولا في تاريخنا القريب أو البعيد!



والخبرة الفنية التي اكتسبوها كانت ذخيرة ضرورية لأية نهضة جادة تراد في عالم
الأدب والفن.

ولا ضير - كما قلنا - من الاستمداد في هذا المجال.
ولكن الضرر الأكبر أن نستمد هذه الخبرة كلها ثم لا يكون لنا وجود متميز الطابع
واضح السمات.

ولكي يكون لنا هذا الطابع ينبغي أن نرجع إلى أنفسنا!
ينبغي أن نعود إلى موروثاتنا الفكرية والروحية والأيدولوجية التي انسلخنا منها
ونحن منطلقون فيما يشبه هذيان المحموم.
ينبغي أن نعود إلى الإسلام..

فالإسلام هو كياننا الحقيقي الأصيل العميق الذي يعطينا صفتنا الإنسانية، ويتيح لنا
في الوقت ذاته أن نكتسب ذاتية متميزة في المجتمع الإنساني المتصل الحلقات.
لقد صاحبنا هذا الإسلام أربعة عشر قرناً متوالية، ومن تصورات الذاتية نشأت
مجتمعاتنا، وترسبت هذه التصورات في كياننا حتى ونحن نحاول التملص منها في الظاهر،
ونجري وراء التصورات المتسحثة التي لم تنضج في تاريخنا الذاتي.

والإسلام - في عالم الفن - هو هذا المفهوم الواسع الشامل الذي عرضناه في هذا
الكتاب : أكمل مفهوم عرفته البشرية في تاريخها الطويل، وهو كذل أجمل مفهوم.
وقد كان لا بد من خبرة فنية عالية ليستطيع الأدب والفن أن يعبرا عن المفهوم
الإسلامي بصورة تكافئ هذا المفهوم من ناحية الأداء.

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعي، فقد كان الأدب والفن قمينين أن يستمدا
إيجاءهما الفنية من القرآن وفنون القرآن، ومن التصورات الإسلامية والرواسب الإسلامية
في ضمير الشعب وفي حياته واتجاهاته، ثم ينتفعا بما استجد من طرائق العرض والأداء،
وقواعدهما الفنية المستحدثة في الغرب، لإبراز تلك الإيجاءات والتصورات.

ولكن ذلك لم يحدث..

فالأدب العربي القديم لم يتجه هذه الوجهة من قبل إلا نادراً، ولم يكونَ رصيذاً فنياً يصلح لأن تستمد منه النهضة الحديثة وهي في سبيل النهوض... بالإضافة إلى أن هذه النهضة ذاتها لم تتخذ منذ البدء وجهة إسلامية، وإنما كانت أوربية في صميمها، متأثرة بكل إحياءات الغرب، ومستعيرة لكل مفاهيمه في الفن والحياة.

وعلى أي فالذي حدث بالفعل هو أننا استمددنا خبرتنا الفنية كلها من أوروبا.. ولا ضير في هذا الاستمداد.. فقد سبقتنا أوروبا في هذا المضمار فترة من الزمن، اكتسبت فيها خبرات متعددة هي رصيد للبشر جميعاً، يستمدون منه بحرية، كل وما يريد.

ولكن هذه الخبرة ينبغي أن تخدم أصالتنا الفنية لا أن تخدم التقليد..

كذلك حدث في الأدب الروسي في القرن الماضي، الذي شهد أكبر العبقريات الروسية في عالم الفن.

لقد استمد الفنانون الروس كل "التكنيك" من غرب أوروبا.. ولكنهم أبدعوا أدباً أصيلاً ذا طابع مميز لا يخطئ الإنسان مميزاته وسماته الأصيلة..

وهذا هو الذي ينبغي أن يحدث في مجال الإنتاج الفني: تأخذ البراعة الفنية وطرائق الأداء وطرائق العرض من أي مكان نشاء.. ولكننا في النهاية نكون أنفسنا ونكون ذواتنا وشخصياتنا.

ولن يتسنى لنا ذلك حتى نكون "إسلاميين" في تصورنا للكون والحياة والإنسان.. فهذه هي حقيقتنا التي عشناها حوالي أربعة عشر قرناً، ولا يمكن أن ننسلخ منها ولو أردنا أو أرادها لنا المريدون! وهي حقيقة لا تشمل المسلمين وحدهم في الشرق الإسلامي.. ذلك أن المفاهيم الإسلامية رصيد متاح للجميع، يملكون الاستمداد منه بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم.

○ ○ ○

وتلك مهمة الجيل الصاعد في عالم الأدب والفن..

أن يكتسبوا الخبرة الفنية من كل مكان في العالم يمكن أن يمددهم بالخبرة المنشودة.. ثم يعودوا إلى أنفسهم فيبدعوا فناً يعبر عن ذاتيتهم الأصيلة.. يعبر عن المفاهيم الواسعة الشاملة العميقة الجميلة التي عرضناها بالتفصيل في هذا الكتاب.

وبذلك لا يكونون أنفسهم فحسب.. بل يقومون كذلك بإضافة فصل جديد في الآداب والفنون العالمية، هو أروع فصولها وأشهاها، وهو المرأة المجلوة التي تنظر فيها الإنسانية نفسها، فتجدها على أصفى صورة وأنقاها.

وهي مهمة ضخمة تحتاج إلى صبر وأناة وتمكن وعمق.. وأصالة.

ولكنها ليست عسيرة التحقيق.. حين تمتلئ نفوس الفنانين والأدباء بمفاهيم هذا المنهج، فتنتطلق من ذاتها تنشئ تصورات فنية جديدة، وصوراً فنية جديدة، وموضوعات شائقة ذات جاذبية وجمال مشرق طليق.

وقد بدأت تباشير في عالم الفن الإسلامي.. في القصة والشعر والبحث والمقالة والخطابة، تبشر بأننا في الطريق الصاعد، وأنا إن شاء الله واصلون.

وإني - وأنا أدلي بمجهدتي اليسير في هذا المجال - لأرى على الأفق الممتد تباشير هذا النور، فتملؤني الثقة بأن الصبح المشرق قريب.. قريب!

المحتويات

مقدمة

- طبيعة الإحساس الفني
- طبيعة التصور الإسلامي
- الإنسان في التصور الإسلامي
- الواقعية في التصور الإسلامي
- العواطف البشرية في التصور الإسلامي
- الجمال في التصور الإسلامي
- القدر في التصور الإسلامي
- حقيقة العقيدة في التصور الإسلامي
- الفن الإسلامي : حقيقته ومجالاته
- القرآن والفن الإسلامي
- أولاً : مشاهد الطبيعة في القرآن
- ثانياً : القصة في القرآن
- ثالثاً : مشاهد القيامة في القرآن
- في الطريق إلى أدب إسلامي
- (نماذج) أولاً : من الشعر
- ١ - محمد إقبال
- ٢ - عمر الأميري
- ٣ - طاغور
- ٤ - سكينة بنت الحسين
- ٥ - ابن الرومي
- ثانياً : من القصة والمسرحية

١ - قصة ضرس

٢ - الراكبون إلى البحر

آفاق للمستقبل

هذه دعوتنا

دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

● دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

● دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

● دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنمى علماء الحكومات، بنذ تقليد الأحرار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

● دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

● دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

● ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

منبر التوحيد والجهاد

www.alsunnah.info

www.tawhed.ws

www.almaqdese.com